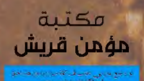
أ. و. ريد

أساطير الماوْري

وحكاياتهم الخرافية

ترجمة أ. د. موسى الحالول



أ. و. ريـــد

أساطير الماوْري

وحكاياتهم الخرافية

ترجمة أ. د. موسى الحالول

الطبعة الأولى 1436هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة

PZ8.1.R24 M2412 2014
Reed, A. W. (Alexander Wyclif), 1908-1979.
[Maori myths & legendary tales]
أساطير الماوْري وحكاياتهم الخرافية/ أ. و. ريد ؛ ترجمة موسى الحالول.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2014.
ص. 354 ؛ 13×20 سم.
ترجمة كتاب: Maori myths & legendary tales
تدمك: 978-9948-17-385-4
1- الماوري (نيوزيلندا) - الفولكلور. 2- القصص والحكايات الشعبية.
أ- حالول، موسى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
A.W. Reed
Maori Myths and Legendary Tales



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

أساطير الماوْري

وحكاياتهم الخرافية

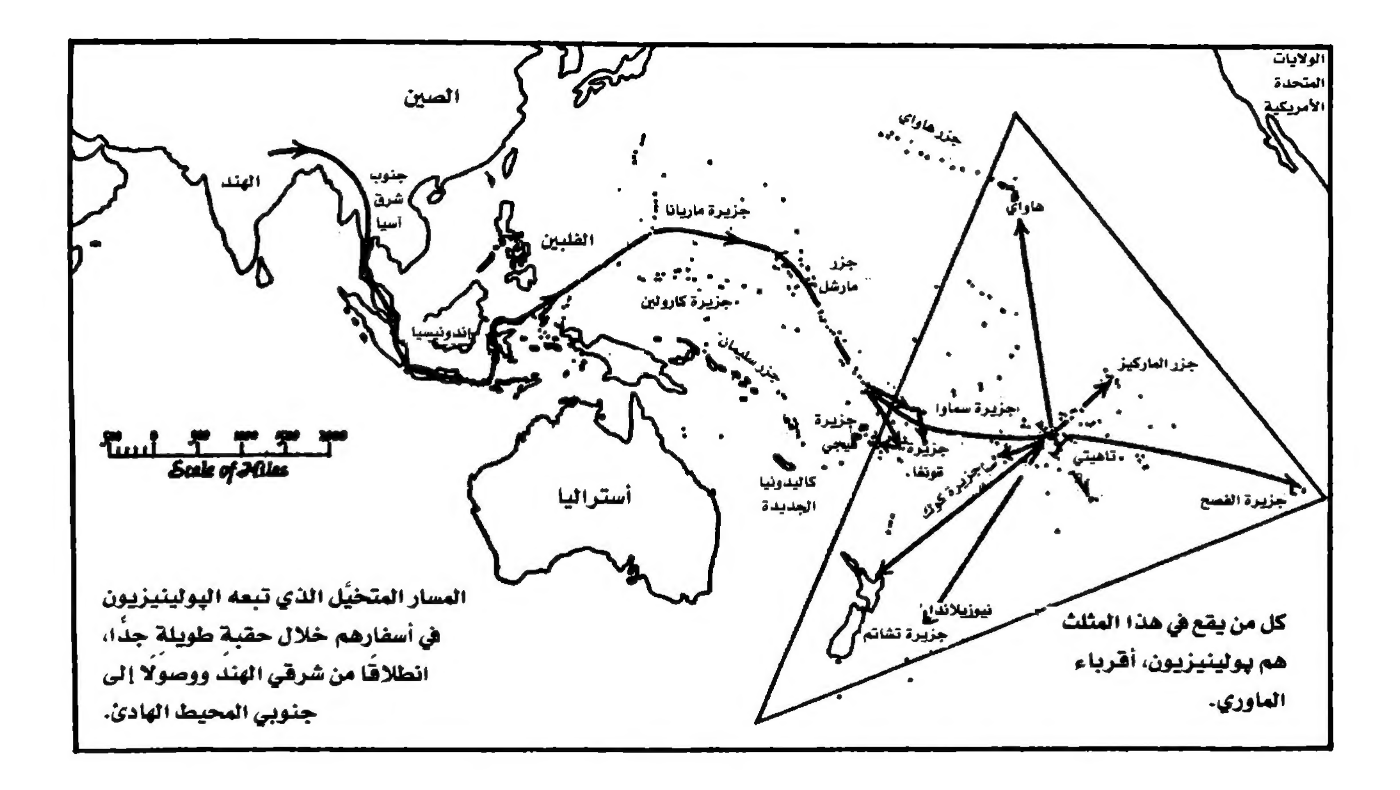
قائمة المحتويات

1

أصل الماوري

لو نظرت إلى الخارطة التي على الصفحة التالية، للاحظتَ مثلثًا تشكل نيوزيلاندا وجزر هَوايِي وجزيرة الفِصْح رؤوس زواياه. وهذا ما يُطلَق عليه اسمُ «المثلث البولينيزي» لأنه في مئات الجزر التي تقع ضمن حدوده يعيش أقوامٌ لهم ذات المظهر العام ويتكلمون لغاتٍ متقاربة جدًّا. وهؤلاء الأقوام، مثل الماوري في نيوزيلاندا، طِوال القامة، رشيقو القوام، ذوو بشرةٍ سمراءَ فاتحةٍ وشعرٍ أسودَ متموجٍ، ولديهم عاداتٌ ومعتقداتٌ متشابهةٌ.

فَمَن هؤلاء البولينيزيون ومن أين أتوا إلى آلاف الجزر في المحيط الهادي؟ هذا سؤالٌ يحاول العلماءُ الإجابةَ عليه منذ أن جاء المغامرون البيض إلى محيط كِيْوا العظيم. ربما لن تكون هناك إجابةٌ قاطعةٌ لحل هذا اللغز، لأن أسلاف البولينيزيين القدامى لم تكن لديهم وسيلةٌ لتدوين تاريخهم سوى نقلِه من جيلٍ إلى جيلٍ مُشافهةً. لكن هناك دلائل يستطيع العلماء أن يستخدموها ليخبرونا أن أسلاف البولينيزيين جاؤوا من جنوبي آسيا. لا بد أن هؤلاء الأسلاف غادروا موطنهم الأصلي قبل آلاف السنين، حيث إن البولينيزيين لا يعرفون شيئًا عن الدولاب أو المعادن أو فن الخزف، وهي الأشياء التي كانت معرفتُها شائعةً في الهند وجنوب شرق آسيا منذ سنين لا تُحصى.


الولايات
المتحدة
الأمريكية
الصين
الهند
جنوب
شرق
آسيا
الفلبين
إندونيسيا
جزر هاواي
هاواي
جزيرة ماريانا
جزر
مارشل
جزيرة كارولين
جزر سليمان
جزر الماركيز
جزيرة سماوا
جزيرة
فيجي
تونغا
تاهيتي
جزيرة الفصح
كاليدونيا
الجديدة
أستراليا
نيوزيلاندا
جزيرة تشاتم
Scale of Miles
المسار المتخيَّل الذي تبعه اليولينيزيون
في أسفارهم خلال حقبة طويلة جدًا،
انطلاقًا من شرقي الهند ووصولًا إلى
جنوبي المحيط الهادئ.
كل من يقع في هذا المثلث
هم پولينيزيون، أقرباء
الماوري.

ربما كانت لدى البولينيزيين مثل هذه المعرفة طبعًا، لكنهم فقدوها خلال رحلتهم عبر ميكرونيزيا التي استمرت قرونًا، حيث لا يوجد فِلِزٌّ لاستخراج المعادن أو طينٌ للخزف في هذه الجزر الصغيرة، والعجلات ستكون بلا فائدةٍ عمليةٍ على الشواطئ الرملية.

يُعتَقَد أن البولينيزيين، أولَّ ما وطئت أقدامُهم جزر پولينيزيا، استوطنوا تَجَمُّعين كبيرين هما: سَماوا-تونغا في الغرب، وجُزر تاهيتي في الشرق. ومن هاتين المستوطنتين الكبيرتين انطلقت زُمَرُ المستعمِرين إلى الجزر المجاورة. استعمرت سَماوا-تونغا كلًا من نِيْوِي وجزر إليس وجزر توكِلاو وفُتونا ويوڤيا وجزرٍ أخرى أصغر حجمًا. أما مجموعة تاهيتي الأكبر والأكثر نشاطًا فقد أرسلت زمرًا من المستعمِرين (لا أحد يعرف أكان ذلك عمدًا، أو بالصدفة بفعل الرياح أو التيارات) بعيدًا إلى هوايي وراروتونغا وجزر الماركيزا وجزيرة الفصح وراپا وآوتِيارُوا التي نعرفها باسم نيوزيلاندا. ومن هَوايْكي، التي يسميها الماوري أيضًا رانجي آتِيا (وهي جزيرة راياتِيا في تاهيتي اليوم)، أبحروا إلى موطنهم الجديد.

وقبل أن نسمع عن رحلاتهم الشاسعة، حيث لا نعرف عن التاريخ إلا ما ترويه لنا الأساطير القديمة والقصص، تعالوا نتخيل ڤايكنغ الشروق وما لديهم من زوراق تجوب البحار.[1] كانت هذه الزوارق تنقسم إلى صنفين: مفردة ومزدوجة. كان طول الزورق في بعض الحالات يبلغ مئة قدم وطاقمه مئةً وأربعين بحّارًا. والزوارق التي أتت إلى نيوزيلاندا كانت إما مزدوجة أو ذات ركائز. كانت

بعض الزوارق المزدوجة يعلوها بيتٌ صغيرٌ مبنيٌّ على منصةٍ تربط بين الزورقين. كانت أماكن النوم مكتظةً، لكن بما أن العمل كان يُقسم إلى ورديات منتظمة، لم تكن هناك حاجةٌ لمكانٍ يتسع لمنامة كل الطاقم. كانت جوانبُ الزورقِ المصنوعِ من جذعِ شجرةٍ مجوَّفٍ تُبنى بألواحٍ كثيرةٍ يُجمَع بعضُها إلى بعض بشكلٍ مُتقنٍ، حيث يُضَمُّ كلُّ لوحٍ إلى الذي يليه بوساطة حبالٍ تُمرَّر عبر ثقوبٍ في حروفٍ بارزةٍ من الألواح من الداخل. كانت تُربَط دعاماتٌ بين طرفي الصفائح العُلوية لتمتين الزورق، وحين تسوء الأحوال الجوية تُركَّب ألواحٌ تمنع اندفاقَ الماء داخل الزورق. وفي العواصف الشديدة كانت الزوارق تنجو منها بتثقيل مؤخرةِ الزورق بمرساةٍ أكبر تعمل على رفع مقدمته. كما كانت تُستخدَم أيضًا مجاديفُ مدببةٌ طولُها ستةُ أقدام، وهكذا استطاعت الزوارق أن تقطع بسرعةٍ فراسخَ طويلةً في رحلاتٍ صنعت التاريخ بالمجداف والشراع.

هناك جُذاذاتٌ من الموروث تدل على القوم الذين جاؤوا هذه البلاد قبل سنين لا تُحصى، لكن ما نعلمه عنهم أقل مما نعلمه عن ماوي الذي استخرج الأرض من موطن تانغا رُوا. وكان كوپيه أول من سمّى الأرض الجديدة حين برزت من الأعماق بعد أيامٍ طويلةٍ كثيرةٍ قبل ألفِ سنةٍ. صاحت زوجته «هِيْ آو! هِيْ آو!» (غيمة! غيمة!)، وبينما هما يُبحِران كبرت الغيمة أمام عيونهما مثل عالَمٍ ساطعٍ طويلٍ. إنها أرضٌ نهارُها طويلٌ لَبْثُه—آوْتِيارُوا! جعل كوپيه، في زورقه مَتاهو رُوا، وصاحبه نْغاهُوِي، في تاهيري رانجي، هبوطهما

على اليابسة في أقصى الشمال. أبحرا نحو الساحل الشرقي، وراحا يرسُوان في أماكن نسميها الآن رأس القلعة وخليج پاليسَر وميناء وِلِنْغتِن. توهَّجت نارُ مخيمهما تحت أشجار الكَراكا في الغابة الصامتة عند سِياتون حيث تُدمِّر الآن حركةُ المرور من الضواحي وإليها هدوء الليل، وأضواء السيارات الأمامية تنداح على طول الواجهة البحرية.

وبعد أن غادرا وِلِنْغتِن، أبحرا عبر المضيق إلى پُورِي رُوَا. وبعد زيارةٍ قصيرةٍ إلى الجزيرة الجنوبية، وجّه كلٌّ منهما مقدمةَ زورقه نحو الأسفل (كعادة الماوري) باتجاه الجزيرة موطنهما. أبحرا على طول الساحل الغربي يقصدان هوكْيانغا «مَعادِ كوپيه»، وراحا يقطعان المُسطَّحاتِ البحريةَ المتراميةَ نحو رارو تونغا، ومن هناك إلى أهلهما. كانا يحملان لهم هديةً لا تُقدَّر بثمنٍ—أرضَ خيرٍ وسلامٍ جديدةً وفيها اتجاهاتٌ ترشدهم في الإبحار.

لا شيء يشهد على المغامرة العظيمة سوى هذه القصة القصيرة عن صنائع كوپيه وأسماء الأماكن على ساحل آوْتِيارُوا. أما بالنسبة إلى عشيرة كوپيه ونْغاهُوِي فقد اكتفوا بما رأوه. كانت الغابة مليئةً بطيورٍ متعددةِ الألوان. وكانت تلك الأرض الخضراء الرائعة خاليةً من الوحوش الكاسرة. لم يكن هناك سوى طائر الموا[2] ذي الحجم الهائل الذي يبدو هؤلاء الناس مثل الجراد في عينيه. وحتى الموا لا داعيَ للخوف منه. وبرهانًا على شجاعته وصدق قصته جاء نْغاهُوِي بشيءٍ من لحمه. كما أحضر نْغاهُوِي معه شيئًا آخر هو پونامو أو الحجر

الأخضر الذي وجده في أراهُوْرا. وكان قد كسر منه كِسرةً وأخذها معه. ومنها صُنِعَ هاي تيكي، حَلَقٌ للأُذُن، وفأسان استخدمتا بعد أربعةِ قرونٍ في صناعة زوارق الهجرة الكبرى.

قبل حوالي ثلاثين جيلًا، أُجري سباق بالزوارق في بحيرة پيكو پيكو إِيْوِيتي في هَوايكي. جلس تُويْ، الزعيم الطاعن في السن، وغيره من شيوخ القبيلة على سفح تلةٍ لمشاهدة السباق. وكان الفائزان شابين هما واتونغا وتو راهْوي. كانا في عِزِّ الشباب، وأبحرا من المرفأ إلى عرض البحر. وقبل أن يتمكنا من العودة، هبَّت عاصفةٌ حجبت عنهما الرؤية. أصاب تُوي حزنٌ شديدٌ على حفيده واتونغا، فظل يترقب عودة الزورقين يومًا بعد يوم، ولكن من غير جدوى. وعندما انصرمت عدة أقمارٍ ويئس الناسُ من عودة الأشرعة استعد تُوي للانطلاق في رحلة بحثٍ عن حفيده في الزورق تي پاي پاي كِي رارو تونغا. وصل إلى پانغو پانغو (في مجموعة جزر تاهيتي)، حيث وُجد بعضُ المفقودين، ولكن واتونغا لم يكن من بينهم.

توجَّه المحارب القديم إلى البلاد القصية التي زارها كوپيه قبل عدة سنوات. توقف في رارو تونغا في طريقه ثم أبحر قاصدًا بحار الجنوب. أخطأ هدفه، فَرَسا في جُزر تشاتَم وأمضى بعض الوقت هناك. نشر أشرعته مرة أُخرى، ووصل إلى آوْتِيارُوا، حيث رسا عند تاماكي. غير أن بحثه عن حفيده كان بلا طائل، وحين سئم الشيخ من الترحال الطويل المُخْبِط قرر أن يستقر في هذه البلاد الجديدة. استوطن في وَكاتاني بعيدًا عن أهله وقومه، ولم يكن لديه من الجيران

إلا التانْغاتا وِنْوا، أهل البلاد الأصليون. وبدلًا من البطاطا الحلوة والأطعمة الأخرى التي اعتاد عليها، صار عليه أن يكتفي بمنتجات الغابة وجذور السرخس، وأحيانًا ينوِّع غذاءه بأطباق السمك والطيور. وهنا اكتسب اسمه تُوْي كاي كَراو، أي تُوْي آكل الغابة.

في هذه الأثناء وصل واتونغا إلى رانجِي آتِيا (راياتِيا). لقد وجد طريقه إلى موطنه مرةً أخرى، فعلم أن جده قد ذهب للبحث عنه. قرر أن يجد تُوي، فأبحر مع ستين رجلًا وعددٍ من النساء في الزورق كُورا هاوْپو. هبط عند تونغا پوروتو وهناك سمع عن تُوْي كاي كَراو الذي يعيش في وَكاتاني على الطرف الآخر من الجزيرة. وهكذا أبحر شمالًا مرةً أخرى، فدار حول الرأس الشمالي، وهبط عند ماكيتو. سُرَّ تُوي سُرورًا عظيمًا بلقاء حفيده، واستقبله في قريةٍ غير مُسوَّرة تُدعى كاپو تي رانجي تقع على هضبةٍ تُطل على وَكاتاني الحالية. وهناك التأم شملُ الجد والحفيد بعد فراقٍ طويلٍ.

وأخيرًا انتقل واتونغا إلى ماهِيا، وحين تقدم به العمر استوطن ابناه، تارا وتاوْتوكي، عند مرفأ وِلِنغتِن، الذي كان اسمُه تي وانْغا نُوِي آتارا، أي مرفأ تارا العظيم.

خلال بحثه عن جده، كان يتحارب زعيمان في هَوايْكي يُدعيان نوكو ومَنايا. ولما كان مَنايا هو الطرف الأضعف، فقد هرب في الزورق توكومارو. طارد نوكو وقومُه الزعيمَ المهزومَ في ثلاثة زوارق هي: تي هُواما، وايْماتي، تانجي آپكورا. توقف كلٌّ من مَنايا ونوكو في رارو تونغا ثم جاءا إلى آوتِيارُوا. عَبَرَ مَنايا المضائق وهبط

عند رانجي توتو (جزيرة ديرڤل). حين وصل نوكو، كان مَنايا قد رحل، ولكن رماد مُخيمه كان لا يزال دافئًا. استمرت المطاردة إلى أن شُوهِد مَنايا في پوكي رُوا التي تبعد بضعة أميال من وِلنغتِن. نشبت حربٌ ضروسٌ حتى حلَّ الظلام، وحجب الليلُ الأنيسُ الرؤية عن المحاربِين. عندئذ اتفق الزعيمان على أن يترجلوا من زوارقهم بسلامٍ ويتحاربوا في اليوم التالي. توجها إلى شاطئ پايْكاكا ريكي، ولكن عاصفةً شديدةً ظلت تهب طوال الليل، وظلت أمواج المحيط الهادرة تتلاطم على الشاطئ. كانت هذه العاصفة من تدبير مَنايا بسحره. كانت العاصفةُ شديدةً إلى درجةٍ أنها شكلت الكثبان الرملية من پايْكاكا ريكي إلى أُوتاكي. شلَّتِ العاصفةُ قدرةَ نوكو على القتال، فأُعلن السلامُ وعاد إلى هَوايْكي، لكن مَنايا بقي في آوْتِيارُوا.

ظل البحارةُ يجتازون البحارَ الجنوبيةَ جيئةً وذهابًا على مدى مئتي سنة بعد ذلك. لكن لا يُعرَف عن هذه الرحلات البحرية إلا القليل. فما هي إلا ذكرياتٌ قاتمةٌ لماضٍ مظلم.

لا يحلو للماوري أن يتتبعوا أصولهم إلا من الهجرة الكبرى في القرن الرابع عشر. لقد كانت تلك آخرَ رحلاتهم البحرية الطويلة ونهايةَ الألقِ الساطع قبل أن ينطفئ المشعَل. حينها صارت آوْتِيارُوا عالمًا مختلفًا، معزولةً عن البلدان الأخرى التي لم يُبقِها حيةً في ذاكرة الرجال إلا حكاياتُ الزمن الغابر وأسماء موطنهم الأصلي التي أطلقوها على كثيرٍ من الأماكن في آوْتِيارُوا لتذكِّر الماوري بمحبوبتهم هَوايْكي.

نشبت حروبٌ ضَرُوسٌ في الجزر المدارية. كان السبب الأساسي هو الاكتظاظ السكاني وقلة الغذاء. لهذه الأسباب وغيرها أبحرت مجموعة من الرجال الشجعان في متاهات البحار في زوارق ذات أسماء دالّة: أراوا (سمك القِرْش)، تايْ نُوِي (المدُّ العظيم)، ماتا أَتْوا (وجهُ إلهٍ)، كُورا هاوِپو (سحابةُ عاصفةٍ)، توكو مارو (ظلُّ الجنوب). كما كانت هناك زوارق أخرى مثل آوْتِيا، تيكي تيمو، هُوروتا التي أبحرت في ذات الوقت تقريبًا، وتُدرَجُ عادةً في الأسطول.

أومأت أمواجُ محيط كِيوا الرمادية للبحارة الشجعان. اضطربت الزوارق حين نُشِرت الأشرعة المثلثة، وعلا العويل وصراخ الوداع فوق تنهيدة الرياح التجارية في أشجار النخيل. كان ذلك هو الوداع لِهَوايْكي الذهبية، لأيام شمس الصيف الحارقة، للضحك والغناء والذكريات السعيدة على شواطئ موطنهم الأصلي التي تحفها أشجار النخيل. ولكنه كان أيضًا وداعًا لِتُو، إله الحرب، الذي كان يجوس بينهم ويُلقي بظلاله عليهم. كان وداعًا للشمس المدارية التي لم تكن تُنضِج ما يكفي من الفاكهة لإشباع جوعهم.

فجأةً حلَّ سكونٌ مفاجئٌ. وقف الشيخ الجليل ذو الشعر الأشيب، هاو ماي تاوْهيتي، حيث كانت المَوْجات البيضاء تلعق الشاطئ. رفع صوته مودِّعًا، «لا تَقْفُوا أثر إله الحرب في بلادكم في الجنوب، بل عليكم بأفعال رونغو المسالم. هايِيري! هايِيري! هايِيري آتو را».

تلاشى صوته في السكون، وحملت الريحُ لازمة الشيخ الرقيقة.



الأسطول ينطلقُ من هَوَايْكي.

داعبت الأمواجُ الزوارقَ وهي تبتعد عن الشاطئ. كان تي أراوا في المقدمة، تحمله أشرعته الثلاثة بسرعةٍ إلى عرض المحيط. لحقت به الزوارق الأخرى، وتلاشت الواحد تلو الآخر وراء الأفق مثل طيورٍ مهيضة الجناح تتحدى الأهوال في عرض البحار.

كان أراوا أوَّلها جميعًا؛ وكان رُبّانُه تاما تي كاپوا، ابنَ السحاب، ابنَ هاو ماي تاوْهيتي. ضحك في سره حين ارتفع أراوا مع أمواج المحيط الطويلة. وكان قبل إبحاره قد طلب من نْغاتورو، الكاهن المشهور، أن يصعد على متن الزورق لأداء الطقوس المقدسة التي ستضمن له حماية الإله وأرواح الأسلاف. جاء نْغاتورو غارًّا غافلًا، ومعه زوجته كِيارُوا. وما إن وضعا أقدامهما في الزورق حتى أمر تاما تي كاپوا بأن تُنشَر الأشرعة، وقبل أن يتمكن الكاهن وزوجته من الاحتجاج، راحوا يُبْحِرون مبتعدين عن الزوارق الأخرى. لهذا السبب تقدم أراوا على الزوارق الأخرى وهي تغادر المرفأ.

كان نْغاتورو حانقًا، ولكن تاما حاول استرضاءه بإخباره أن زورقه الخاص سيلحق بهم سريعًا وأنه سيؤخِّر تي أراوا إلى أن تلحق به الزوارق الأخرى. لكن حين رفع أراوا مقدمته للأمواج، وأزَّت الحبال في النسيم، أدرك نْغاتورو أن كلام تاما هراءٌ، وأن عليه أن يبقى هو وزوجته حيث هما طوال الرحلة الطويلة. كان تاما يأمل من أخذهما معه أن ينال رضا الآلهة، حيث إن نْغاتورو كان عارفًا بسُبلها. لم يقل الكاهن شيئًا، ولكنه كان يُضْمِر في قلبه خطةً للانتقام.

في هَوايْكي، التي ابتعدت عنها الزوارق كثيرًا الآن، كان مظلومٌ



تي أراوا في قبضة كورو كورو أُوتي پَراتا، حَلْقِ الوحش.

يبتهل إلى الآلهة لكي تُحبط عملَ تاما، فكانت ابتهالاتُه، القادرةُ على أن تبدل نجوم الصباح إلى نجوم المساء، وتبدل نجوم المساء إلى نجوم الصباح، تصعد كل يوم مثل الدخان في جو الصباح الساكن.

وذات يومٍ صعد نْغاتورو إلى سطح المنزل المبني على المنصة التي تربط بين الزورقين ودعا السماء بصوتٍ عالٍ. وانطلق تأثيره في الأمواج من المركب الوحيد ودبَّت الحياةُ في الرياح العاتية من سماءٍ صافيةٍ. انعطفت مقدمة الزورق باتجاه كورو كورو أُوتي پَراتا، حَلْقِ الوحش، إلى الهاوية حيث ينتهي العالم. كانت الأمواجُ تتلاطم من حول أراوا، وادلَهَمَّت السماءُ، وسُحِب الزورق إلى أطراف الدوامة الهائجة. اختفت مقدمة الزورق المزخرفة، وبلغ الماءُ المَنْزَحةَ الأولى، وكانت الثانية في منتصف الزورق. كان نْغاتورو يسمع من مكانه في المنزل مخاضة الآلهة في الماء ورأى المجدفين يتمسكون بمقاعدهم مخافةَ أن يقذفهم الزورق. كان وجهه الموشوم خاليًا من أي تعبير، ولكن حين رأى المجدفين ينقذفون الواحد تلو الآخر في الماء المتلاطم، أخذته بهم رأفةٌ، فدعا تانْغا رُوا، إله البحر، أن يحميهم.

لم يبدُ أثرٌ للخوف في عيني تاما. فقد نظرَ إلى المياه المتلاطمة بهدوءٍ كأنه يتحيَّن فرصةً لنجاتهم. خرجت من شفتي نْغاتورو ترتيلةٌ لتهدئة العاصفة. فقد نادى على روحَيْ رُوا رانجي وماوي أن «يُنجِّيا من المهالكِ مَسالِكَ نْغاتورو في البحر»، وشيئًا فشيئًا أغلق پَراتا حلقه الأبيض، وهدأت الأمواج الثائرة.

لكن بقيت أمامهم فراسخ عديدة من الإبحار. مرت الأيامُ يومًا

بعد يومٍ، وكل مساءٍ كانت الشمس تلتحف في بحرٍ لا نهاية له. ثم راحت الأشرعة الوحيدة تهتز في ظُلُمات البحر، ولم يصل إلى أسماعِ البحارةِ إلا صوتُ الأمواجِ، وصريرُ الحبالِ، وهَمهَمةُ الرياحِ.

كان ضوء القمر يسطعُ على المسطحات الخالية، ولم يخرق سطح المياه الفضي إلا شكلٌ أسودُ لزعنفةٍ تتبع الزورق.

وبعد عدة أيامٍ برزت الأرض الجديدة للعيان. ولما تهادى الزورق داخل الميناء، كان الماء مثل الزجاج يعكس بريق پوهوتو كاوا المزهرة.[3] كان اللون القرمزي الزاهي يتوهج على الشاطئ وفي الماء، فَبَهُتَت بالمقارنةِ الألوانُ البراقة للحلي التي يلبسونها على رؤوسهم. وما إن بدا بهاءُ پوهوتو كاوا من بعيدٍ، حتى ألقى أحد الرجال حِليَّ رأسه الحمراء في البحر قائلًا، «انظروا هناك، حلي الرأس الحمراء في هذه البلاد أكثر من الموجودة في هَوايكي. وها أنا أُلقي بحلية رأسي في الماء». لكنه وغيره من الزعماء أُصيبوا بخيبة أملٍ مُرَّةٍ حين وجدوا أن اللون المتألق مصدره الأزهار التي تذبل حالما توضع في الشعر أو تتفتت باللمس. أما الكورا أو حِليُّ الرأس في هَوايكي فكانت تُصنَع من ريش طائرٍ أحمر ولا يلبسها إلا الزعماء.

وصلت معظم زوارق المهاجرين في هذا الوقت تقريبًا، ونشأت خلافاتٌ بينهم حول من وصل منهم أولًا. كان حوتٌ قد جنح على الشاطئ، وراح ربّان كل زورق يدعيه لنفسه. ولهذا السبب اكتسب الخليجُ اسمَ وانغا پاراوا، أي خليج حوت العَنْبَر. حاول الربابنة أن يحسموا الأمور بطريقة ودية. أقامت الزوارقُ المختلفةُ



مَرسى تي أراوا.

الأماكنَ المقدسة على الشاطئ. ولدى معايَنة الأعمدة تبين أن التي نصبتها جماعةُ تايْ نْوِي قد ذبلت ويبست، بينما الأعمدة التي نصبتها الزوارقُ الأخرى خضراء نَضِرة. لهذا ادّعت جماعة تايْ نْوِي الحوت لنفسها، كما ادَّعت شرفَ كونها أولَ الواصلين.

زرعت جماعة أراوا البطاطا الحلوة في وانْغا پاراوا، وهي تنبت هناك إلى يومنا هذا. وبعد وقتٍ قصيرٍ انفصل هذا الزورق عن بقية الزوارق. استكشف مئة وأربعون رجلًا بقيادة تايْ كِيْهُو الساحل الشمالي الغربي. ثم أبحر أراوا إلى موتيتي، التي سُمِّيت باسم مكانٍ في هَوايْكي بسبب قلة الحطب فيها، وإلى مَكِيتو لاحقًا. وهناك نصب الناس مَعبَدهم الذي سَمّوه تخليدًا لاسم موطنهم القديم. في مَكِيتو صخورٌ تُعد بمثابة مَرَاسٍ لمقدمة أراوا ومؤخرته. مرساة المؤخرة، توتي رانجي هارورو، عبارة عن نتوءٍ صلبٍ رُبِطت به على الأرجح حبالُ المؤخرة. سكنت سُلالةُ تاما منطقة البحيرات الحارة، وسكنت سلالةُ نْغاتورو بحيرة تاوْپو، ولهذا يُقال عن الزورق أراوا إن مقدمته في مَكيتو ومؤخرته في تونْغاريرو.

راح نْغاتورو يطوف في البلاد، وحين يجد وديانًا يابسةً كان يخبط الأرض بقدميه، فتخرج منها ينابيع الماء. ثم زار الجبال وأسكن الپاتو پاياريهي (الجنيّات) فيها. كان يريد أن يعوض ما فاته من الزمن، لأنه حين رسا أراوا عند مَكيتو منعته واجباته الكهنوتية من انتقاء أرض له حين انتقى الزعماء الآخرون. خشي أن تكون قد أُخِذت خيرةُ الأراضي، لكن عبده أخبره عن جبلٍ مكللٍ بالثلوج وأنه لو تمكن

من صعود قمته لصار بإمكانه معاينةُ جزءٍ كبيرٍ من الجزيرة وهكذا يستطيع أن يحوز لنفسه من الأرض حصةً أكبر من حصص الزعماء الآخرين.

رأى نْغاتورو سَدادَ قولِ العبد. وما إن انتهت واجباته حتى انطلق برفقة عبده وكلبه المفضل إلى قمة جبل تونغاريرو. لم يصعدوا القمة الشاهقة إلا بِشِقِّ الأنفُس، حيث كان نَفَسُهم يَصَّعَدُ كالبخار في الجو البارد. تطلَّع نْغاتورو حوله، فأعلن كل الأرض على مَدِّ البصر مُلكًا له ولذريته من بعده، لكنه لكي يُثَبِّت ملكيته كان عليه أن يُسمّي كل رابيةٍ ووادٍ وغابةٍ.

لم يَتوانَ عن تسميتها، فسمى بعضَها بأسماء الأماكن في موطنه الأصلي، وبعضها بسبب مظهرها، أو بسبب حادثةٍ حدثت له وهو يسافر إليها. وحين انتهى من ذلك، نظر إلى الأسفل وأبصر عبدَه مُلقىً على الثلج متخشِّبًا من البرد. لقد مات متجمدًا من شدة البرد على قمة الجبل. وحين انحنى فوقه شعر نغاتورو أن أطرافه تتصلب. كان يتنفس بصعوبة شديدة في الهواء الضئيل، وكان البردُ حادًّا مثل سكين. ذهب إلى كلبه وأمسكَ بفروه السميك وأمره أن يحمله إلى أسفل الجبل. نهض الكلب بصعوبة على أقدامه وبدأ يزحف منحدرًا على سفح الجبل، ساحبًا سيدَه وراءه، ولكن خطواته راحت تتباطأ شيئًا فشيئًا. حثَّه نْغاتورو على مواصلة المسير، لكن الكلب في النهاية تجمد من البرد، فَخَرَّ ميتًا على الأرض. شعر الكاهنُ بالخَدَر المتجمد الذي يسبق الموت. كان يزحف على جسده.

أدرك نْغاتورو أنه لن يتمكن من الهبوط إلى الأراضي المنخفضة الدافئة من غير مساعدة، فنادى أخواته في هَوايْكي البعيدة ليُنجِدْنَه. وقد سمعن صوتَ أخيهن على الطرف الآخر من محيط كِيوا، ثم التقطن جمرة ملتهبة من النار المقدسة، وغطسن في البحر. ظللن يسبحن تحت الماء حتى بلغن خليج الوفرة، حيث صعدن إلى السطح ليعرفن أين هن. وبينما رحن يتلفَّتن حولهن، احترق الماء ولا يزال يحترق في المكان الذي نعرفه باسم الجزيرة البيضاء. غطسن ثانيةً، وما يدل على مسارهن تحت الماء هو تلك الينابيع الحارة في منطقتي روتوروا وتاوْپو. وأخيرًا وصلن إلى تونْغاريرو وأَحْيَيْنَ نْغاتورو بدفء أجسادهن بعد أن أشرف على الهلاك.

في مَكيتو كان تاما غيرَ راضٍ وقلقًا. فانطلق شَمالًا إلى تاوْرانْغا حيث عثر على تايْ كيهو، ولكن روحه القلقة قادته إلى مُويْ هاو وهاوْ راكي. وفي رأس كولڤِل اتخذ لنفسه موطنًا نهائيًا، وفيه مات. استوطن نْغاتورو في جزيرة موتيتي، ولكن تاما تي كاپوا دفنه أبناؤه على قمة مُويْ هاو الحراجية. تركه أقرباؤه بسلام هناك وعادوا إلى مَكيتو.

حين دفنه أبناؤه، قالوا عنه:

«دعوه يَنَم هنا حيث بوسع روحه أن تتفرَّس بعيدًا فوق المحيط وفوق أرض آوْتِيارُوا. وستظل الرياح التي تهب على محيط كِيوا العظيم تغني تهويدته الجامحة إلى أبد الآبدين».

كانت أنشودةً جنائزيةً تليق بالبحار الشهير. ونُصُبه هو الاسم

الذي يطلقه الماوري على الرأس البحري:

تي مُوْي هاو أُو تاما تي كاپوا
مَرقدُ تاما العاصفُ بالرياح

بُني زورق تايْ نْوِي بعد أراوا. وتاريخه مرتبط بتاريخ أراوا، فقد نشبت بين رجال الزورقين البغضاء بعد أن غدر تاما تي كاپوا بنْغاتورو إي رانجي وخطفه مع زوجته. كان تايْ نْوِي، مثل أراوا، زورقًا مزدوجًا، وكانه ربانه هو هوتورُوا. وبعد مغادرة وانغا پَراوا، وصل تايْ نْوِي إلى تَماكي حيث نزل البحارة. ثم أبحروا أعلى النهر حتى وصلوا إلى محمَل السفن. وهناك شاهدوا نوارس بحرية وصائدي المحار تحلق فوقهم من الغرب، فخمنوا أن المحيط على الطرف الآخر من اليابسة لا يمكن أن يكون بعيدًا. ومن بعيدٍ رأوا مرفأ مانوكاو يتلألأ كالفضة، فقرروا أن يُنزلوا الزورق عند أوتا هوهو ويبحروا مرةً أخرى.

جاءت زوارق أخرى إلى تَماكي. عَبَرَ توكو مارو الجزيرة أولًا، ولكن سرعان ما تبعه تايْ نْوِي، وأبحر في مياه مانوكاو الهادئة. ولا يزال ممكنًا رؤيةُ المرساة الصخرية لزورق تايْ نْوِي عند واي واكا روكو روپو هانغا بين نَهرَي واي هاو وپياكو. وهي صخرةٌ ضخمةٌ تُعرَف في التراث باسم تي پُنغا پُنغا. وأخيرًا بلغ الزورق كاوْهِيا حيث سُحِب إلى الشاطئ ودُفِن لاحقًا. ولا يزال بإمكانك أن ترى مقدمة

الزورق ومؤخرته، بعد أن تحجَّرتا، ناتئتَيْن فوق الأرض إلى يومنا هذا. أراوا أحرقه راو ماتي، من قبيلة تايْ نْوِي، فأشعل صراعًا لا ينتهي بين القبيلتين. وقد استوطنت سُلالة تايْ نْوِي في وايْ كاتو.

يُقال إن زورق ماتا أتْوا صُنِع من نصف شجرة وقعت فانفلقت فِلقتين صُنِع منهما زورقان. كان تورُوا هو رُبّان الزورق، ووكاتاني مثواه الأخير.

أبحر توكو مارو حول الرأس الشمالي ونزل إلى الساحل الغربي حتى نهر موها كاتينو في تارا ناكي.

لا يُعرف إلا القليل عن الزورق كورا هاوپو. يقول قومُ نْغا پوهي من أهل الشمال إنه تحجَّر وصار حَيْدًا مرجانيًا في الساحل الشرقي، ولكن قوم آوْتِيا يقولون إنه تحطَّم ونُقل ركابُه إلى قاربهم هم.

من القوارب التي لم ترافق الأسطول العظيم لكنها أبحرت في ذات الوقت تقريبًا كان قارب آوتِيا بقيادة توري، وقد أبحر من را إياتيا لكنه لم يتوقف عند رارو تونغا. بل رسا في رانجي تاهْوا (جزيرة الأحد) حيث أُعيد تجهيزه وذُبِح كلبٌ قربانًا لمارو. كما أبحر ريرينو مع آوْتِيا، لكنهما اختصما حول وجهة الإبحار التي اختارها كوپيه، فافترقا. يقول بعضهم إن ريرينو فُقِد، ويقول آخرون إنه تحطَّم على الضفة الصخرية قريبًا من نِلسِن.

منح آوْتِيا اسمه لمرفأٍ صغير على الساحل الغربي حيث هبط الطاقم أول مرة. تُرِك الزورق هناك، وتبع توري ورجاله الشريط الساحلي برًّا حتى وصلوا إلى نهر پاتِيا، حيث استوطنوا هناك. أما ذُرِّيتهم فقد

توجهوا إلى أعلى نهر وانغان وي. يقال إن توري جلب معه الكثير من النباتات القيمة.

غادرت خمسة زوارق من هَوايكي بقيادة تاماتِيا، لم ينجُ منها إلا اثنان: تاكي تيمو وهوروتا. اختير أقوى الرجال والنساء بعنايةٍ شديدة للرحلةِ، إلا أن مخاطر الرحلة كانت كبيرةً إلى درجة أن ثلاثةً من الزوارق فُقِدت في الطريق.

بسبب سرعته، وبمساعدة الكاهن الذي دعا آلهة البحر للمساعدة، كان الزورق تاكي تيمو أول الواصلين. رسا قريبًا من الرأس الشمالي، ولكن عاصفةً هوجاء هبت، فأبحر الزورق ثانيةً. وبعد الإبحار حول الرأس الشمالي، واصل الزورق إبحاره حتى وَكاتاني. بُنيت قريةٌ واستقر عددٌ من أفراد الطاقم هناك. رجع تاماتِيا بالزورق إلى خليج الجُزُر، حيث تُرِك ربع أفراد الطاقم تقريبًا. أبحر ثانيةً حتى جاء وايابو، فوجد آخرين قد أبحروا في الزورق هُوروتا. بقي جزءٌ من جماعته في وايابو، ولكن تاماتِيا القلق اندفع وزار الجزيرة الجنوبية التي مكث فيها قليلًا ثم تابع إبحاره شمالًا إلى وانْغان وي، صاعدًا النهر باتجاه تاوْپو ووَكَتاني. وهناك قولٌ مُتوارَث يقول إن الزورق تيكي تيمو تحجَّر فصار سلسلةَ أوتاغو الجبلية.

هكذا استُوطنت البلاد. استوطنت سلالة بحارة أراوا ومَتا أتْوَا في أنحاء متفرقة من خليج الوفرة، وسلالة تاي نُوِي في وايْكاتو، وسلالة آوْتِيا في تارا ناكي، بينما توجَد سلالةُ البحارة الرواد من قوم تيكي تيمو وهُوروتا في منطقتي الساحل الشرقي والرأس الشرقي،

وهكذا قُسِّمت آوْتِيارُوا تقريبًا إلى مناطق زوارق.

كانت هناك زوارق أخرى. بعض الأسماء وصلت إلينا من طريق الأساطير وما يتفرع عنها، لكننا لا نعرف عنها إلا القليل وهذا الأمر: لم تكن الأفعال العظيمة التي قام بها أولئك البحارة الأوائل أفعالًا بطولية منعزلة. في تلك الأيام لم تكن البحار بالنسبة إلى عُتاة البحارة الجنوبيين إلا بمثابة الطرق السريعة لدينا. هناك سجلات عن رحلات جابت البحار الهائجة جيئةً وذهابًا، وعن جلب الطعام وغيره من المؤن للرواد.

ثم جاءت العزلة. لم يتجرأ أحدٌ على مدى أجيالٍ أن يجتاز حلق وحش البحر إلى أن أبحر أخيرًا الطائر الأبيض الكبير ببحارته الشاحبي البشرة في هذه البحار المنسية، وكانت تلك بداية قدوم الپاكيها إلى أرض الماوري.[4]

هذه هي قصة أصل الماوري. إنها تاريخٌ، ولكنه تاريخٌ جاءنا من صفحاتٍ غير مكتوبة من الأساطير والحكايات القديمة.

2

السماء والأرض

في الزمن البعيد حيث لا ليلٌ أو نهار، ولا شمسٌ أو قمر، ولا حقولٌ خضراء أو رمالٌ ذهبية، استلقى رانجي، أبونا السماء، في أحضان پاپا، أمنا الأرض. ظلا ملتصقين ببعضهما حِقَبًا طويلة، وكان أبناؤهما يتلمسون طريقهم بينهما كالعميان. لم يكن في العالم الذي عاش فيه أبناء رانجي وپاپا أي نورٍ، فتاقوا إلى الحرية، وإلى رياحٍ تهب على رؤوس التلال، وإلى نورٍ يدفئ أجسادهم الشاحبة.

وأخيرًا صار التصاقُ هذا العالم الضيق لا يُطاق، فزحف أبناء الأرض والسماء عبر أنفاق أرضهم الضيقة وكهوفها ليعقدوا اجتماعًا. جلسوا حيث كانت بضع أشجار تتمدد نحو السماء وتلتوي أغصانها بأشكال غريبة.

«ما العمل؟» تساءل أبناء الآلهة. «هل نقتل أبانا وأمنا ونُدخِل النور؟ أم نفصلهما عن بعضهما؟ علينا أن نفعل شيئًا، لأننا لم نعد أطفالًا نتعلق بأمنا».

«دعونا نقتلْهما»، قال توماتاوِنْغ.

نهض تاني ثم اعتدل حتى لامس رأسه السماء المتدلية، وقال، «لا، لا يمكننا أن نقتلهما. فهما أمنا وأبونا. دعونا نُفَرِّقْ بينهما. دعونا نُلقِ بالسماء بعيدًا ونَعِشْ قريبًا من قلب أمنا». قال هذا لأنه كان إله

الشجر الذي يستمد غذاءه من التربة.

وافق جميع إخوته إلا تَاوْهيري ماتِيا، أبو الرياح. كان يزعق بصوت حادٍّ وهو يواجه أخاه.

رد عليه بشراسة، «هذه فكرة خائبة. نحن نختبئ هنا بأمانٍ حيث لا يطالنا أي أذى. ومن فمك خرجت هذه الكلمات، 'إنهما أبونا وأمنا.' فإيّاك، يا تاني، وهذا الفعل المشين».

ضاعت كلماته وسط ضجيج الآلهة الآخرين الذي راح يتعالى في المكان المحصور. «نريد نورًا. نريد متسعًا من المكان نبسط فيه أطرافنا المقيدة. نريد مكانًا نسرح فيه ونمرح».

تجاوزوا تاوْهيري بينما راح رونغو ماتاني، راعي الفِلاحة، وحاول أن يدفع والدنا السماء بكتفيه لكي يعتدل ظهره. كانوا يسمعون صوت نَفَسه متسارعًا ثقيلًا في الظلام، ولكن جسد رانجي لم يتزحزح، وكان الظلام يُرخي سُدُولَه الثقيلة على الآلهة. عندئذٍ استجمع تانغورا، إله البحر والأسماك والزواحف، قوته. ثم تلاهُ هاوْميا تيكي تيكي، إله التوت البري والسرخس، وتَبِعَهُ تو ماتاوِنغا، إلهُ الحرب وأبو البشر. ولكن جهودهم ذهبت جميعها سُدى.

وأخيرًا، نهض الإله الجبار على قدميه، إله الغابات والأطيار وكل الكائنات الحية التي تعشق النور والحرية. وقف تاني، صامتًا لا يتحركُ مقدارَ ما يستطيع الإنسان أن يحبس نَفَسَه، ليستجمع قواه. ثم وقف على رأسه، وقدماه مغروستان في صدر أبينا السماء، ويداه تضغطان على الأرض. ثم عدَّل تاني ظهره ودفع السماء بقوة. ملأ

الجوَّ أنينٌ خافت. سرى هذا الأنين في الآلهة المستلقين على الأرض، حيث سمعوا الصوت يرتعد في جسد أمنا الأرض حين شعرت بذراعَيْ رانجي لم تعودا تُمسكان بها. تعالى الأنينُ حتى صار زمجرةً. أُلقي برانجي بعيدًا عن پاپا، وزمجرت الرياح الغاضبة في الفضاء الذي انفتح بين السماء والأرض.

راح تاني وإخوته يتطلعون حولهم إلى أمهم وثنايا جسدها الرقيقة. وكانت تلك أول مرةً يرونها بكامل حُسنها وجمالها بعد أن تدفق النور في أرجاء الأرض كلها. كست كتفي پاپا غلالةٌ فضيةٌ من الضباب، وكانت الدموع التي انحدرت مِدرارةً من عيني رانجي أمارةَ حزنه عليها.

تنفست الآلهة الهواء الطليق وراحت تضع الخطط لعالمها الجديد. ورغم أن تاني فرَّق بين والديه، إلا أنه كان يحبهما كليهما، فراح يكسو أمه جمالًا لم يكن يُحلَم به في عالم الظلمات. جاء بالأشجار التي كانت أبناءه وغرسها في الأرض، لكن لأن العالم كان قيد الخلق ولأن تاني كان مثل طفلٍ يتعلم الحكمة التي لم تولَد بعد، فقد ارتكب بعض الأخطاء بغرس رؤوس الأشجار في التربة بينما جذورها البيضاء العارية تنتصب بلا حراكٍ في الهواء.

اتَّكأ على ساق شجرة ليستريح، وقطّب جبينه وهو ينظر إلى غابته الغريبة. لم تكن مكانًا للطيور والحشرات التي كانت أبناء تاني المرحين. فزحزح شجرة كاوْري[5] عملاقة، وغرس جذورها غرسًا مكينًا في التربة. ثم نظر بافتخارٍ إلى تاج أوراقها الجميل الذي ينتصب

فوق جذعها الصافي المستقيم. وكان حفيفُ الأوراق ألحانًا في أذنيه.

ازدهت الأرضُ البهيةُ بحُلَّتها الخضراء. خرج الرجال والنساء السُّمْر من مخابئهم ليلهوا تحت أوراق روضة تاني. عاشوا بسلامٍ مع رونغو ماتاني وهاوْمِيا تيكي تيكي. رفع تاني ماهوتا ناظريه إلى حيث يستلقي رانجي، فكان مقرورًا ورماديًا وكالحًا في الفضاءات الممتدة فوق الأرض. بكى وهو يرى أباه معزولًا مهجورًا. ثم أخذ الشمس الحمراء ووضعها خلف رانجي ووضع القمر أمامه. كان تاني يجوب السموات العشر صعودًا وهبوطًا حتى وجد أخيرًا رداءً رائعًا ذا لون أحمرَ براقٍ فأخذه معه. ثم استراح سبعةَ أيامٍ بعد عمله المضني، ثم نشر الرداء الأحمر فوق السماوات، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فصار رانجي يتألق ألقًا. ولكنه لم يكن راضيًا. إذ لم يكن الرداء يليق بأبيه. فنزعه، ولم يترك إلا قليلًا عند طرف السماء حيث يمكنك أن تراه حين تغرب الشمس.

كان رانجي متعةً للناظرين في النهار، وكانت پاپا تتطلع إلى زوجها بافتخارٍ، ولكن رانجي كان في الليل مظلمًا لا شكل له إلى أن يسطع عليه مَراما، القمر، بنوره.

صرخ تاني، «أبتي العظيم، في الليالي الطويلة المظلمة تحزن الأشياء جميعًا قبل أن يسطع مَراما بنوره على صدرك. سأرتحل، يا أبتي، إلى آخر الفضاء لعلّي أجد زينةً لك». سمع تاني في مكانٍ ما من الصمت المخيم في الأعالي البعيدة آهةً ردًّا على صرخته.

تذكر تاني المنيرات التي تلهو في الجبل العظيم في أقصى أقاصي

الدنيا. فانتقل سريعًا إلى نهايتها، حيث المجاهل التي لا يُرى فيها وجه الأرض الباسم، إلى أن بلغ الظلمات عند مونغانْوي، الجبل العظيم، الذي تعيش عنده المنيرات التي هي أبناء أخيه أورو. سلَّم تاني على أخيه وراحا يراقبان المنيرات تلهو بعيدًا جدًا على الرمال عند أسفل الجبل.

استمع أورو بينما كان تاني يقص عليه كيف فُصِل رانجي وپاپا عن بعضهما، وأنه جاء يطلب من أخيه بعض المنيرات ليثبتها في رداء السماء. نهض أورو على قدميه وصاح بصوتٍ تردَّد كالهزيم على سفوح الجبل. سمعت المنيرات نداءه، فتوقفت عن اللعب وجاءت تمرح إلى أبيها على قمة الجبل. بينما كانت المنيرات تقترب، صار بإمكان تاني أن يراها وهي تتدحرج، حيث كانت كل مُنيرةٍ تشبه العين في شكلها، فكانت تتألق وتتلألأ وتضيء الجبل كله.

وضع أورو قُفَّة أمام تاني، فغمسا أذرعتهما معًا في كتلة الأنوار المتألقة وكوَّما المنيرات في القُفَّة. حملها تاني وتوجه إلى أبيه من فوره. وضع أربعة أنوارٍ مقدسة في أركان السماء الأربعة، ثم رتب خمسة أنوار متألقة على شكل صليب وزيَّن بها صدر رانجي؛ أما أبناء النور الصغار فقد رصَّع بهم ثوب أبيه.

تتدلى القُفَّة في السماء الواسعة حيث يمكننا أن نرى ضوءها الخافت، ذلك الضوء الذي نسميه درب التبّانة. وهذا النور هو الذي يُؤوي المنيرات ويحمي أبناء النور. وحين تغيب الشمس لتستريح، تتلألأ النجوم متألقةً ويستلقي تاني على ظهره ويراقب أباه وهو ينشر

رداءه حتى تمتلئ السماء بزينة رانجي وألق المنيرات.

بينما كان تاني ومن تشبث معه من إخوته بأمنا الأرض سعداء في حريتهم الجديدة، كان تاوْهيري ماتِيا ذو الجبين الأسود يمسك الرياح بتجويف يده، وينتظر سانحةً. رأى تاني يسير على غير هدىً في الغابة. وفي وسط البحر رأى أخاه تانغارو الذي يعيش راضيًا مرضيًا مع حفيديه، إيكاتيري، والد الأسماك، وتوتي ويهي ويهي، والد الزواحف. فنهض يتسامى مثل سحابةٍ سوداء مُدلهمةٍ تخيم على اليابسة والبحر البعيد. فتح يده وقذف الرياح في الفضاءات الخالية، وانقض من تحت أثواب أبيه، متسربلًا بسحبٍ رعديةٍ داكنةٍ وبرقٍ يومض. كان يندفع فوق الأرض اندفاعًا. انحنت الأشجار حين بلغتها الرياح الأولى. ثم جاء بعد ذلك تاوهيري ماتيا والعاصفة. اقتُلعت الأشجار من جذورها، وحين سكنتِ الريحُ كانت الغابةُ خاويةً على عروشِها.

هبَّ إله العواصف مسرعًا إلى حافة المحيط. غلى الماءُ وانتفض مذعورًا. نهض الموجُ حتى بدا كأن البحر يُفرغ نفسه ويتلاشى في عاصفة الرذاذ المتطاير وحطام العواصف. برز قعر البحر الخاويَ في الوديان الفاغرة بين الأمواج، فهرب تاغارو وحفيداهُ عبر وديان مملكتهم الكائنة تحت البحر.

صاح توتي ويهي ويهي، «هيا نَطِر إلى ملجأ الغابة». ولكن إيكاتيري أجابه، «البحر ملاذُنا الوحيد حين تغضب الآلهة». وهكذا انقسم أبناءُ حفيدَي تانغارو. فهرب توتي ويهي ويهي مع الزواحف

إلى البر، بينما خبأ إيكاتيري أبناءه في البحر. وكانت أصواتهم وهم يفترقون تعلو فوق صراخ تاوهيري ماتيا.

صاح إيكاتيري، «طيروا إلى الداخل. إلى داخل اليابسة. ولكن حين تُصطادون، وقبل أن تُطبخوا للأكل، سيحرقون حراشفكم بالسرخس الحارق».

فرد عليه توتي ويهي ويهي، «أما أنتم، يا من تهربون إلى البحر، فَدَوْرُكم آتٍ لا محالة. فحين تُقدَّم سلالُ الخُضار الصغيرة للجياع، فستوضَعون فوق الطعام لتعطوه نكهة».

وهكذا تسبب تاوهيري ماتيا في شِقاقٍ لا يَرحم، لأن تانغارو لم يغفر لأبنائه الذين هربوا إلى تاني صاحب اليابسة. فحين تزأر الرياح، يقذف تانغارو أمواجه على اليابسة محاولًا أن يحطم مملكة تاني الجميلة ويغطيها بأمواج البحر الشريرة؛ ولكن حين تسكن الريح وتهدأ المياه، يتسلل أبناء تاني وبناته في قواربهم ليصطادوا أبناء تانغارو ويستخدموهم لإضفاء نكهةٍ على سلال الخضار لدى بني البشر.

لم يَخْبُ غضبُ تاوهيري. انقض على تو ماتاونْغا، مخلفًا وراءه دمارًا هائلًا. زأر البحر زئيرًا غاضبًا، فانزوى عمالقةُ الغابِ محطَّمين بين الغياضِ، ولكن تو ماتاوِنغا ظل منتصبَ القامة لا ينحني أمام هبوب العواصف الشديدة. نادى تاوهيري كل رياحه لتنجده، ولكن تو تحداه إلى أن عاد تاوهيري في نهاية المطاف إلى والد السماء، بعد أن هزمه أبو البشر.

نظر تو إلى الغابات المحطمة والبحر المهزوم، فقال مفتخرًا، «أنا



استنجد تاوْهيري بجميع رياحِه ولكن تو تحدّاه.

قاهرُ كل شيء. لن يخاف أبنائي من أبناء الريح؛ سيكون أبناء تاني عبيدًا لهم، والبحر سيطيعهم حين يركبون الموج في القوارب التي سيعطيهم إياها تاني. سيكون السمك والطير والجزر والتوت طعامًا لهم. أنا تو!»

ولهذا السبب يتسيَّد أبناء تو ماتاوِنغا في الغاب والبحر.

مرت الأيام سراعًا بأمرٍ من الشمس بينما كان تاني يخلق الطيور ويطلقها لتنساب مع الريح، وظل هذا دأبه حتى امتلأ الهواء بأغاني ذوات الريش. هكذا خُلِقَت، ولكنها حتى الآن لم تكن تعرف أين تجد طعامها. استدعاها تاني وأمرها بالطيران إلى توتو وكَراكا وغيرهما لتجد طعامها في شَعرها. طارت الطيور إلى هناك، فوجدت ما لذ وطاب من التوت، حيث إن توتو وكَراكا من الأشجار، والطيور لا تزال تجد بين أوراق الغابات الحشرات والتوت والعسل، وكلها أطعمة خصصها لها تاني.

تقادم العهد على الدنيا، وتكاثر أبناء تاني الصغار من ذوات الريش. نزل بعضهم إلى البحر ولعب في وسط المياه العظيمة، أو على الرمال الرطبة المتألقة عند ملتقى الماء باليابسة؛ ولكن معظمهم توجه إلى داخل اليابسة بين الأنوار الساطعة وظلال الأشجار الباردة، فصدحت الغاب بموسيقى أصواتهم. وبعض منهم لم يكن يخرج إلا في الليل ويتسلل في الظلام بينما البقية نيام. كان كل طير يعرف موطنه وموعد غُدُوِّه ورواحِه وماذا يغني وماذ يأكل. الكل كان يعرف ذلك إلى أن زار كاواو المتبجح، غاقُ الأنهار، ابنَ عمه غاق

البحار. قُدِّم لِكاواو الأنهار سمكةً ليأكلها، ولكنه حين ابتلعها علق حَسَكُها في حلقه.

فقال كاواو، «آها، عليك أن تأتي إلى مكان صيدي وسأريك أسماك الأنقليس التي لا حَسَكَ فيها. في مملكتي أسماكٌ أفضل من أسماكك بألفِ مرة». ثم أخذ ابن عمه معه، وحين اصطاد غاق البحار سمكة أنقليس ووجد كلام كاواو صادقًا، توسل إلى ابن عمه أن يُشركه في مملكة الأنهار. ولما رأى كاواو صاحبُ الأنهار كيف انزلقت السمكة بسرعةٍ داخل بلعوم ابنِ عمه، ندم على تبجحه علانيةً، فطرده من مملكته. هبَّ غاق البحار مسرعًا، وأشاع خبر الأسماك الرائعة التي لا حَسَكَ فيها وتسبح في مياه الأنهار العذبة. اجتمعت طيور البحر وشكلت سربًا هائلًا واتجهت إلى داخل اليابسة لتهاجم طيور البر. وصباحَ المعركة أعلن پيتُوي تُوي أبو الحنّاء النفير العام، فاجتمعت طيور البر جميعًا.

سأل كاواو، «من سيكون الكشّاف؟ من سيستطلع لنا ويعلمنا بمجيئهم؟»

فقال كوي كويا الوقواق، «أنا سأكون الكشاف، وسأستطلع عندما يُقبلون». وفي الحال رأى كوي كويا سحابةً من الطيور مقبلةً من البحر.

«كُو أُوووي!» سمعتْ الطيور صرخته، ثم أتبعتها صرخةً «آها!» بعيدةً أطلقها كاروري النورس يردُّ على التحدي.

سأل كاواو، «من سيرد على ندائهم الحربي؟»

فقالت الحمامة ذات الذيل المروحي، «أنا. وبذيلي الخفَّاق سأرد على تحديهم».

سأل كاواو، «من سيقود أغنية الحرب؟»

قال طائر تُوِي، «أنا. دع هونغي الغراب، وتيروكا أبا سرج، وَوارُوْرُوَا الواقواق القصير الذيل، وكوكو الحمامة يساعدوني، وسأقود أغنية الحرب».

وحين انتهت أغنيتهم، واجه كاواو الطيور الغاضبة، فصاح، «من سيبدأ القتال؟»

صاح رورو البوم، «أنا سأبدأ القتال. بمنقاري ومخالبي سأبدأ القتال». ثم قام من عشه وانقضَّ على طيور البحر، تتبعه سحابةٌ هائلةٌ من طيور البر. حمي الوطيس وتناثر الريش مثل نُدَف الثلج بينما كانت الشمس تتوسط قبة السماء.

وأخيرًا خافت طيور البحر، وازداد هجوم طيور البر ضراوةً حتى تخاذلت صفوف طيور البحر وتهاوت، عندئذٍ ولَّتِ الأدبارَ وطارت إلى موطنها. وظلت قهقهة البط الرمادي الساخرة تُدَوّي في أسماعهم طيلة طيرانهم. «كي كي كي كي!» ضحك البطُّ پاريرا بينما أسراب النوارس تنداحُ مثل سحابةٍ تذروها الرياح.

لم يعد طير البحر يأكل طعام طير البر، وحل بينهما الوئام التام الذي صنعه تاني ماهوتا بيديه حين فُصِل رانجي عن پاپا وحلَّ النور.

شاهد تاني جمال الأرض والسماء ولكنه لم يكن راضيًا. أحس بأن عمله لن ينتهي إلا إذا امتلأت پاپا رجالًا ونساءً. كان عند تاني

وإخوته أطفالٌ، ولكنهم آلهةٌ سماويون خالدون لا تناسبهم الأرضُ ومعاشُها.

هبط الآلهة إلى الأرض ومن التربة الحمراء الدافئة صنعوا صورة امرأة. كانت مليحة المنظر، رقيقةَ البشرة، مستديرة القوام، ذات شعرٍ طويلٍ أسود، ولكنها كانت باردةً لا حياةَ فيها. عندئذٍ انحنى تاني ونفخ في منخريها. رفرف حاجباها وتفتَّحا، فتلفَّتت حولها إلى الآلهة الذين كانوا يحملقون فيها بشدة. ثم عطست. لقد تغلغل فيها نَفَسُ تاني فصيَّرها امرأةً نابضةً بالحياة.

طهَّرها الآلهة وأسموها هينا آهو أوني، أي المرأة المخلوقة من التراب. تزوجها تاني وأنجبا عدة بنات.

تيكي، الرجلُ الأول، خلقه تو ماتاوِنْغا، إله الحرب. صار والدَ الرجال والنساء الذين صارت الأرضُ آهلةً بهم، وورثوا من تاني ما صنعه لهم من مجدٍ وعجائب.

3

معركةُ الأسماك

انهمرت الدموع على خدّي المرأة وهي تجلس وحيدةً في بيتها. لقد تركها زوجها وهي لا تعرف أين ذهب. سألت الأشجار، فظلت صامتة. كان الجدول مسحورًا، فلم يُعطها جوابًا. وما كانت جدران البيت لتخبرها. ولم تشفق عليها إلا حَوْجَلة اليقطين التي كانت تشرب منها. فحين رفعتها إلى شفتيها، قالت لها، «لا تحزني. اكسريني على الأرض، ثم اجمعي شظاياي وخذيني معك. سأريك الطريق التي سلكها».

شكرت المرأة حَوْجَلة اليقطين. وبعد أن حطمتها على الأرض، جمعت الكِسَر، ووضعتها في قُفَّة من الكتان، وانطلقت. ودلتها الحَوْجَلة على الدرب الذي يجب أن تسلكه. وظلت تسير حتى بلغت ضفة الجدول المسحور. وبينما كانت تخوضه تسلل الماء إلى القُفَّة، وحين بلغت الضفة الأخرى، عادت الحَوْجَلة خرساء مرة أخرى.

عادت المرأة إلى بيتها حزينةً، لأنها وجدت العشرات من الدروب تحت الأشجار ولم تعرف أيها تسلك. وحين خيَّم الليل بظلامه امتلأ قلبها مرارةً على زوجها الذي هجرها. سمعت هدير أمواج المحيط وهي ترتطم بالشاطئ، فقررت أن تستنجد بتانغا رُوا لعله يساعدها

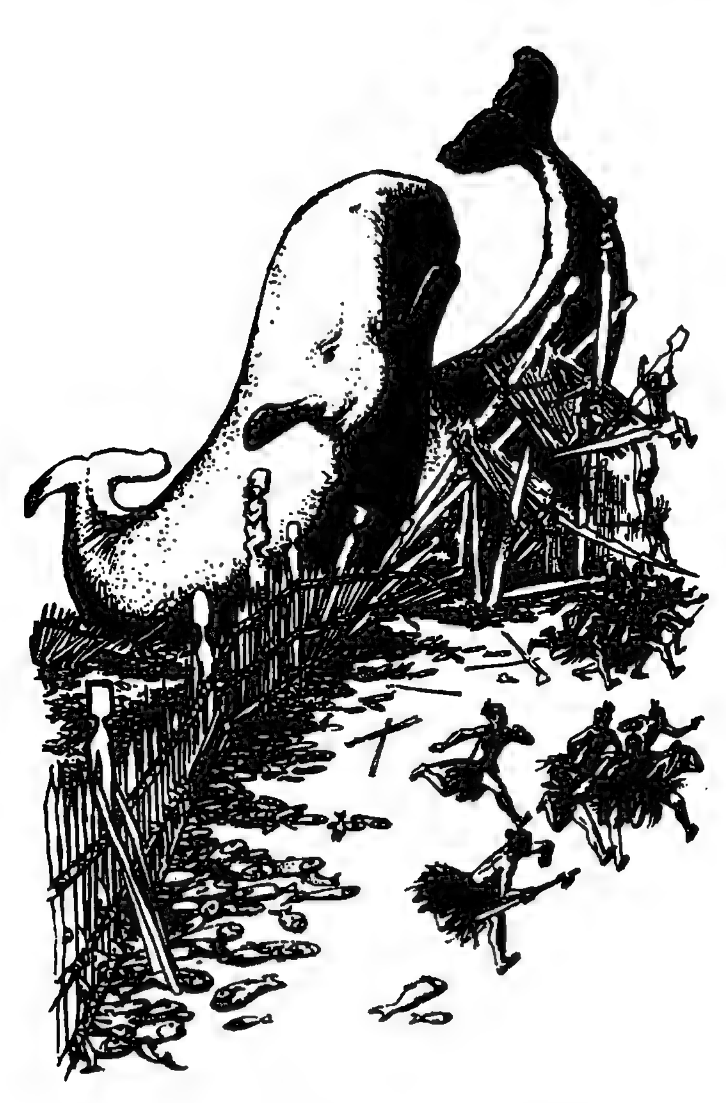
على ردِّ مظلمتها. تسللت بين الأشجار مثل مخلوق متوحش من مخلوقات الغابات إلى أن بلغت الرمال الشاحبة. رفعت وجهها نحو النجوم ويداها ممدوتان، وصاحت بصوت عال:

«استمع لدعائي، يا إله البحر. لقد تعرضت لظلمٍ عظيمٍ من قبل زوجي ورجالٍ أخفَوْهُ عني. ففرِّج عني بتدمير هؤلاءِ الأشرار».

لم يكن تانغا رُوا بحاجة إلى تحريضٍ كبيرٍ ليشن حرب على رعايا أخيه سلطان البر. فَبِصَوتٍ كهزيم الرعد نادى على قومه الأسماك، فلبَّت نداءه على الفور. جاؤوا صغارًا وكبارًا، ولم يتخلف منهم أحد، وكانوا جميعًا متشابهين حيث كانوا يرتدون كِسْوَة أبناء إيكاتيري الرمادية، وكانوا جميعًا متماثلين في الهيئة. لم يختلفوا إلا في الحجم، من الحوت تُوهُورا إلى سمك البَلَم الصغير إنانْغا. راحوا يعومون باتجاه الشاطئ مثل جيش جرار يقصدون القرية التي كان يعيش فيها الزوج الضال.

كان في طليعة هذا الجيش قبيلةُ الغُرنار ذات الرؤوس الشائكة، أما الحيتان فكانت في المؤخرة لتكون سورًا يصد فِرارَ الأسماك الصغيرة حين يهجم الماوري. بلغوا الشاطئ وتسلقوا زاحفين على الرمال. كانت أجسادهم المبتلة اللامعة متثاقلة، وفي الحال سمعوا صيحةَ إنذارٍ وحشيةً حين شوهدت أشكالهم الرمادية الكابية اللون تحت الأشجار.

ظلت الحرب ناشبةً طوال ذلك اليوم الرهيب. اقتحم الغُرنار أسيجة القرية المحصنة، فقُتِل منهم الكثير، واصطبغوا بدمهم



وتصدَّع سياج القرية المحصَّنة وتكسَّر من هجوم الحيتان.

الأحمر، تمامًا كما هم عليه إلى يومنا هذا. كان پاروري سمك الفرخ الأسود ملازمًا للغُرنار يسانده، حتى تجلل محاربوه بالدماء الجافة لطلائع القوات.

انخرطت القبائل في المعمعة، الواحدة تلو الأخرى. وحين تهادت الشمس الغاربة نحو السماء الغربية، رأت القبائل جثث رفاقها تحيط بها من كل جانب، فارتعبت الأسماك الصغيرة، وولَّت على أعقابها هاربةً إلى الظلال الباردة للأجمة حيث يحتمي توهورا متأهِّبًا مع محاربيه العظماء من قوات الاحتياط.

وحين رأى الأسماكَ الصغيرة تتقهقر مذعورةً، أعطى أوامره بصوتٍ يجلجل جلجلةً. اندفعت الحيتان نحو الأمام، فتمايلت الأشجارُ كأنها أوراقُ روپو في مهب الريح بينما كانت الحيتان تشق طريقها بينها. تقصَّفت أسيجةُ القرية المحصنة وتكسرت نتيجةَ هجوم الحيتان، وتهاوت على نحوٍ يهزُّ الأرضَ هزًّا.

تملَّك قلوبَ المدافعين عن القرية المحصنة رعبٌ مفاجئ، وأُحْرِز النصر. لقد هُزِم تانغاتا ونُوا، أهلُ البر، هزمهم أهل البحرِ.

في اليوم التالي، وقف تانغا رُوا في موطنه المحيط، وكان جيشُه المظفَّر يسبح من حوله في دائرة عظيمة، وكلما مرت قبيلةٌ بالإله العظيم، أعطاها سُؤْلَها.

لبست أسماك الغُرنار وسام الشرف لإخلاصها، وهو الدم الأحمر الباهي للأسماك التي قادت جموع الحرب.

رأى پاتيكي، السمك المفلطح، لعبة صبي فتمنى أن يكون له

شكل الحدأة.

كان تاكيكي سمك الخرمان يحمل رمحًا تحت زعنفته بكل اعتداد فطلب أن يحمله في رأسه.

وكان لدى واي، السمك اللسّاع، رمح أيضًا وله صفّان من الأشواك عند رأسه المدبب، فأراد أن يكون هذا في نهاية ذيله.

وأخيرًا جاء أرارا، سمك الكَنْعَد، يحمل رداءً أبيضَ أخذه من الرجل الذي هجر امرأته. كان الرداء ملطخًا ببقع من الدم الأحمر القاني، فصارت هذه كسوة أسماك الربيب.

هكذا ردَّ تانغا رُوا المظلمة، وأعطى الأسماك أشكالها وألوانها. ولا يزال أبناء إيكاتيري يحملون بافتخارٍ جراحَ الحرب وشاراتها التي نالوها يومَ هزموا الإنسان.

4

مَتــاوُرا وَنِيــواريكــا في العالم السفلي

في سالف العصور السحيقة، راح مَتاوْرا، كبيرُ المحاربين، يتقلَّب في نومه تَقَلُّبًا. رأى في المنام أن رمحه الخشبي الطويل كان في يده، وأنه كان يخوض معركةً مميتةً. وكان يحيط به رجالٌ ونساءٌ يجلسون على الأرض ويصيحون ابتهاجًا لكل طعنةٍ وضربةٍ. ثم تحول صياح الناس في المنام إلى ضحكٍ. فتلفَّت حوله بذهول. انزاحت غشاوة النوم عن عينيه وهبَّ واقفًا على قدميه. رأى وجوهًا بيضاء تحملق فيه من الباب والنافذة. تلفَّت حوله فرأى شُعلةَ شعرِهم تؤطرها الفتحةُ كأنها ريش نبتة التوتو في شمس الصباح.

صاح بهم، «من أنتم؟»

جاءه الرد، «نحن التُّورِيْهُو».

«من أين أنتم؟»

قالت له إحداهن، «نحن من العالم الأسفل. من أنت؟ هل أنت إله؟» ثم قالت أخرى، «هل أنت رجل؟» فضحكن لسؤالها لأن التوريهو جميعًا نساء.

فأجابهن غاضبًا، «لماذا تسألن؟ ألا تريْنَ أنني رجل؟»

ضحكن ثانيةً. «لم نكن نعرف لأنك لست موشومًا، ولا يوجد على وجهك إلا خطوطٌ مرسومةٌ من الطلاء».

حدَّق فيهن مستعجبًا، ثم سألهن، «وهل من طريقةٍ أخرى لرسمها؟»

مرت لحظةٌ لم تجبه أيٌّ منهن، وفجأةً قالت له فتاةٌ طويلةٌ، «قد يأتيك يومٌ تعلم فيه».

نسي مَتاورا جوابها من لحظته. سيطر عليه الفضول، إذ لم تُرَ التوريهو من قبل في ذلك المكان. فدعاهن قائلًا، «تفضلن بالدخول، وسأعطيكن شيئًا تأكلنه».

فقلن، «نعم، سنأكل، ولكننا سننتظر في الخارج».

هُرع مَتاوُرا إلى مخزنه وجلب طعامًا مطبوخًا. كانت التوريهو غريبات الطباع، فسألت إحداهن، «هل هو طيب؟» فأجابتها التي نظرت إليه، «لا، إنه رديء».

غضب متاورا عندما سمع ردَّها، فصاح قائلًا، «انظرْنَ، سأريكُنَّ». ثم أكل شيئًا من الطعام. تزاحمت التوريهو حوله ليشاهدنه، وهن يبتسمن ويومئن برؤوسهن لبعضهن بعضًا. فتحت إحداهن فمه ونظرت داخله وصاحت، «لقد أكل بَلَحَ البحر!»[6] فصاح عددٌ منهن، «إنه طعام رديء!»

حين قُلن هذا، تذكر متاورا أنه سمع أن التوريهو يأكلن طعامهن نيئًا، فتوجَّه إلى البركة واصطاد لهن بعض السمك، ووضعه أمام النساء ذوات البشرة البيضاء.

تضاحكت التوريهو مرة أخرى مَرَحًا وأتين على طعامهن سريعًا. كان متاورا يراقبهن من كثبٍ وهن يأكلن. كانت بشرتهن بيضاء وشعورهن شقراء تتدلى حتى خواصرهن. كن يمشين منتصباتِ القامة وكانت أنوفهن رفيعة. وكن يأتَزِرْنَ بمآزرَ من الأعشاب البحرية المجففة.

وحين انتهين من طعامهن، هبَّ مَتاورا واقفًا على قدميه وراح يرقص أمامهن. وبينما كان يفتل لاحظ امرأةً شابةً تراقبه مراقبةً دقيقةً. كانت أطول من الأخريات، وكان بإمكان مَتاورا أن يميزها من بين رفيقاتها. وكلما التقت أعينهما شعر بمحبته لها تزداد في قلبه.

جلس وراحت التوريهو يرقصن رقصًا مهيبًا. وكان رقصهن يختلف عن رقص البوي أو الهاكا الذي كان قد رآه من قبل. جاءت الفتاة الطويلة التي كانت تراقبه مراقبةً دقيقةً إلى المقدمة وخطَّت رسمًا بقدميها. تشابكت الأخريات بالأيدي وتبعنها، وكن ينحنين تحت أذرعة رفيقاتهن ويقمن بحركات انسيابية أذهلت مَتاورا وهو يراقبهن. كن يغنين ويرقصن، لكنه لم يسمع من الكلمات سوى هذه:

ها هي نِيْواريكا
نيواريكا، نيواريكا

ولما توقف الرقص، سأل مَتاورا إن كان بإمكانه أن يختار من بينهن زوجةً له.

«ومن منا تريد؟» سألنه وهُنَّ يتزاحمن بشوقٍ نحوه.

أشار إلى الفتاة الطويلة التي كانت خلف رفيقاتها. تعالى الضحك واشتد التزاحم حتى تقدمت الفتاة على استحياء ولامست أنف مَتاورا بأنفها. ولما أمسك بيدها أحس بالرضا في قلبه. وفي الحال غادرت التوريهو، ووقف متاورا وزوجته عند الباب يراقبانهن.

«إلى أين يذهبن؟» سأل متاورا، فأجابته نيواريكا بشيءٍ من الحزن، «إلى العالم السفلي، حيث كل شيء جميل ومليءٌ بالضياء».

طوَّقها مَتاورا بذراعه. «آه، لا، لن تَجِدي النور إلا حيث تسطع تي را، الشمس الحارقة. قولي لي، يا زوجتي، مَن أبوكِ؟»

التفتت إليه وقالت، «أنا اسمي نيواريكا. أنا ابنة صاحب الحسب والنسب أوي تونغا، سيد راروهِنغا، العالم السفلي، ولكنني الآن مُلْكُ متاورا، سيد العالم العلوي الجبار».

أحب متاورا زوجته حبًّا لم تزده الأيام إلا حبًّا على حبٍّ. ولم يكدر سماءهما إلا شيء واحد. كان متاورا تنتابه في بعض الأحيان نوباتٌ من الغضب العارم، وفي إحدى المرات ضرب زوجته. نظرت إليه نظرةَ أسى، لأن التوريهو قوم لُطفاء لا يعرفون العنف.

وفي تلك الليلة هربت نيواريكا من البيت، ومع أن مَتاورا بحث عنها في كل مكان إلا أنه لم يجدها. لقد افتقدها وحزن عليها، بعد أن انطفأ النور من حياته. وبعد أن مضت عدة أيام ولم تعد، أيقن أنها عادت إلى موطنها في راروهِنغا، العالم السفلي. فعزم على اللحاق بها على الرغم من المخاطر التي تحف رحلته.

وفي الحال جاء إلى بيت الرياح الأربع حيث تعود أرواح الموتى إلى راروهِنغا، فسأل حارس البيت، «هل رأيت امرأةً تمر من هنا؟»

«ما هو شكلها؟» جاءه الجواب.

«إنها جميلة وشاحبة، وذاتُ شعرٍ أشقر طويل وبشرة بيضاء وأنف مستقيم».

فقال الحارس، «أجل، لقد رأيتها تمر من هنا منذ عدة أيام وهي تبكي».

«هل لي أن ألحق بها؟»

فقال الحارس، «أجل، يمكنك اللحاق بها إن امتلكت الشجاعة. هذه هي الطريق».

ثم فتح بابًا رأى متاورا من خلاله نفقًا يؤدي إلى الأسفل. نزل فيه وانغلق البابُ خلفه. لم يكن هناك بصيصُ ضوءٍ في أي مكان وكان المكان معدوم الهواء وباردًا. ظل يتلمس طريقه عبر الظلام الكثيف إلى أن رأى، بعد ساعاتٍ من التخبط والصمت، ضوءًا يومض من بعيد. راح يحث مسيره وسرعان ما رأى في الضوء الخافت تِيْوَايْ وَكا، الحمامة ذات الذيل المروحي ترفرف هنا وهناك.

«هل رأيتِ امرأةً تمر من هذه الطريق؟» سأل متاورا.

فأجابت تِيْوَاي وَكا، «أجل، لقد رأيتُها، وقد احمرَّت عيناها من البكاء».

راح متاورا يحث خُطاه حتى بلغ نهاية النفق. وخرج إلى عالم جديد. لم تكن هناك شمس ولا زُرقةٌ في السماء التي فوقه. لا شيء

سوى الصخور يسقف العالم المترامي الذي ولجه، ولكن النور بدا وكأنه يملأ كل ناحية فيه؛ كانت الطيور تغني والقصب والعشب يتهاوجان في النسيم، ومن مكان ما كان يسمع الماء يجري فوق الأحجار. تابع مسيره إلى أن بلغ القرية التي يعيش فيها أُوِي تونغا، والد نِيواريكا.

كان أُوِي تونغا يفترش الأرض وتوقف مَتاورا ليراقبه. كان شابٌّ يتمدد بطوله على الأرض بينما كان أُوي تونغا يحفر خطوطًا في وجهه بإزميل من العَظْم ومطرقة، ويمسح الجروح بخضابٍ. كان مَتاورا ينظر مشدوهًا وهو يرى الدم يسيل من طرف الإزميل الحاد.

فصاح، «ما هكذا تُصنَعُ الأوشمة! في عالمنا العُلوي نخضب الرسوم بالأحمر والأبيض والأزرق».

تطلَّع إليه أُوِي تونغا، وأمره قائلًا، «احْنِ رأسَك».

حنى متاورا رأسه ففرك أوي تونغا يده بسرعةٍ على وجهه. مُسِح الرسم المخضوب، فسمع ضحكات الأناس البيض التي كانت قد أيقضته من حلمه حين قابل نيواريكا لأول مرة. تلفت حوله ليرى إن كانت هناك امرأةٌ أطول من البقية، لكنه لم يميز أي امرأة يعرفها.

قال له أوي تونغا، «إنك ترى عدم نفع وشمك المخضوب. إنك لم تتعلم فن الوشم بعد. هنا في راروهِنغا نحن نحفر الوشم في اللحم حتى لا يزول أبدًا».

دقق متاورا في وجه أوي تونغا جيدًا، فرأى نتوءاتٍ وأخاديد مصبوغةً بالخضاب الذي يبقى ثابتًا على مر السنين. وحين رأى

التلافيف التي رسمتها يد الصانع الماهر، خجل من الرسم البسيط الذي يُخضِّب وجهه.

«لقد أفسدت عليَّ وشمي، وعليك الآن أن تحفره في وجهي»، قال لأوي تونغا.

فقال له أوي تونغا ببساطة، «لا بأس. استلقِ».

استلقى متاورا على ظهره بينما راح أوي تونغا يرسم الوشم على وجهه بالفحم. انحنى أوي تونغا فوقه وراح ينقر الإزميل العظمي في لحمه. ارتعد مَتاورا حين أحس بحرف الإزميل القاطع، وانقلعت كمشةُ العشب التي كان يمسك بها في يده من جذورها. ظل الإزميل النقَّار يزحف ببطء على وجهه بينما اجتاحت جسدَه موجاتٌ من الالم المبرح. وعلى الفور راح يغني:

أين أنت، يا نيواريكا؟
هيا اظهري، يا نيواريكا
فحبُّك هو الذي جاء بي إلى هنا
يا نيواريكا، يا نيواريكا

كانت أخت نيواريكا الصغرى على مقربةٍ، فسمعت أغنيته فأسرعت إلى أختها. «هناك رجلٌ يوشَم وهو لا يكف عن قول اسمك، فمن يكون؟»

قالت صديقات نيواريكا، «هيا نذهبْ ونَرَ».

تزاحمن على مكان الوشم، وانزعج أوي تونغا لمقاطعتهن له، فصاح، «ماذا تُرِدْن؟»

ردت نيواريكا قائلة، «لقد أتينا لنأخذ الغريب إلى القرية لتسليته».

في هذه الأثناء، كان أوي تونغا قد انتهى، لأن العملية كانت مؤلمةً وكان واضحًا أن مَتاورا لم يعد يطيق صبرًا. نهض الرجل الأسمر متثاقلًا على قدميه. كان وجهه متورمًا ومشوَّهًا ويسيل دمًا، فلم يتعرف عليه أحد، ولكن كانت هناك الكثير من علامات التعجب حول منكبيه العريضين وقوامه الوسيم. أمعنت نيواريكا النظر فيه، فقالت، «هذا قوام متاورا، وهذه هي الثياب التي حِكتُها له».

وحين جلس، وقفت غير بعيدٍ منه وسألته، «هل أنت متاورا؟»

لم يكن باستطاعته أن يراها، لأن عينيه كانتا غائرتين في وجهه المتورم، ولكن متاورا عرف صوتها ما إن تكلمت. أومأ لها بيده، فعرفت أنه زوجها حقيقةً، فاقتربت وبكت فوقه من الفرح.

حين انتهى الوشم وشُفِيت الجروح، قال متاورا لنيواريكا، «هيّا نَعُد الآن إلى عالمنا القائم منذ الأزل فوق راروهِنغا».

نظرت إليه نيواريكا وقالت، «أعتقد أنه يجب علينا البقاء هنا. دعنا نسأل أبي».

فقال أوي تونغا من فوره، «لِتَعُد أنت وحدك يا مَتاورا. أما نيواريكا فستبقى هنا». ثم نظر إلى صهره وجهًا لوجه وقال، «لقد سمعت أن الرجال أحيانًا يضربون زوجاتهم في العالم العُلوي».

شعر متاورا بالخزي، فقال، «هذا كان في الماضي. أما في المستقبل



انحنى أوي تونغا فوق مَتاوْرا وهو ينقُر إزميل العظم في لحمه.

فلن أتَّبع إلا سبيل الخير الذي يُصنع في راروهِنغا».

تبسم أوي تونغا، «إن كانت كلماتك نابعةً من القلب، يا بُني، فبإمكانك أن تذهب وتأخذ نيواريكا معك. العالم العُلوي مكان مظلم، أما هنا في راروهِنغا فهو مليءٌ بالضياء. فَخُذْ ضياءنا إلى عالمكم المظلم».

قال مَتاوْرا، «انظر إلى وجهي. لقد وشمته الآن بوشم العالم السفلي وشمًا لن يزول أبدًا. وكذلك هي رغبتي في اتِّباع سبيل السلام والمحبة».

وهكذا انطلق الزوجان بعد أن التَأَمَ شملُهما. حين وصلا مدخل النفق الذي يؤدي إلى العالم العُلوي، قابلتهما تِيْوايْ وَكا.

قالت لهما، «أنتما بحاجةٍ إلى من يرشدكما. خُذا پوپويا وپيكا معكما».

«إن أخذناهما طاردتهما طيور الغاب التي تأتمر بأمر تاني».

قالت تِيْوايْ وَكا، «سيختبئان في ظلام الليل». وهكذا أخذا البومة والخفاش ليصبحا طائرين ليليين، وهذان دلاهما على الطريق عبر النفق.

وأخيرًا وصلا بيت الرياح الأربع، فقال الحارس لنيواريكا، «ماذا في الصُّرة التي تحملينها؟»

فأجابت، «لا شيء. ليس فيها إلا ملابسنا التي يجب أن نرتديها في العالم العُلوي».

عبس الحارس وقال، «الأمر أكثر من هذا. أنت تحاولين خداعي.

لن أسمح لأحدٍ بعد اليوم أن يأتي إلى راروهِنغا من العالم العُلوي. الطريق مسدودة. ولن تَمُرَّ إلا أرواح الموتى في طريقها إلى راروهنغا. أنت تحملين ثوب تي رانجي هاوْپاپا».

فاعترفت نيواريكا، «هذا صحيح». وكانت قد أحضرته إلى العالم العُلوي ليكون نمطًا للحواشي التي تلبسها النساء على أرديتهن عندما يتقدم بهن العمر.

مد الحارس يده فوضعت نيواريكا الصُّرَّة فيها. حلَّها الحارس، فأشرقت أنوارها في ذلك المكان المظلم حين علَّقها على أحد الجدران.

مرَّ متاورا ونيواريكا حين أدار الحارس ظهره. مضيا إلى موطنهما الذي عاشا فيه حتى آخر أيامهما.

وكان مَتاورا هو الذي نقل إلى الرجال سرَّ الوشم الذي لا يزول؛ وكانت نيواريكا هي التي علمت النساء كيف ينسجن الحواشي الملونة لأرديتهن. لقد وُلِدت هذه الأشياء من حبهما، حب متاورا ونيواريكا في بداية العالم.

5

ماوِي نصفُ الإله

بعيدًا في منتصف المحيط كانت صُرَّةٌ من أعشاب البحر تعلو وتهبط مع الأمواج. وكانت طيور البحر تُحَوِّم فوقها وتصرخ. كان طفلٌ رضيعٌ ملفوفًا لفًّا محكمًا بشعر أمه يتوسط الصرة التي حمته من الطيور ومخاطر البحر العميق. كان هذا الطفل هو ماوي، ماوي الصغير الملفوف بِقُنْزُعة أمِّه، تَرانغا. كان هذا هو ماوي، الطفل الخامس، غير المرغوب به، الذي أُلقي به في البحر وليس له ما يغطيه إلا شعرُ أمه.

قذف الموج الصرة إلى رمال الشاطئ في الحال، فازدادت جُرأة الطيور وتزاحمت عليها أسراب الذباب. بدأ الطفل يصرخ لأن أعشاب البحر راحت تذبل وتتساقط والذباب يحط على جسده الطري. من بيته القريب من الأجراف سمع تاما السماوي صرخة الاستغاثة الرفيعة. هُرِع إلى كومة الأعشاب، ورفع الشعر المتشابك، وحلَّ لُفافة الطفل. اتسعت عيناه لما رأى ماوي في الصرة وقد ازرقَّ من البرد. حمل الطفل بمنتهى العناية، وقفِل راجعًا إلى بيته ثم علَّقه بعوارض السقف وراح يتأرجح برفقٍ فوق دفء النار المنبعثة من الموقد، فما لبث أن راح يضحك ويلوح بيديه.

كانت تلك مغامرة ماوي الأولى التي لم ينقذه من الموت فيها إلا



اتسعت حدقتا تاما حين رأى ماوي الصغير مُزْرَقًّا من البرد.

أعشاب البحر الصديقة والشيخ الذي كان يعيش على تخوم السماء. وحين كبر تعلم أشياءً كثيرةً من الشيخ تاما الحكيم: عادات الطيور ولغتها، عادات الأسماك وحِيَلَها، الألعاب التي يلعبها الأطفال، وخواطر الكبار حين يتحلَّقون حول النار ليلًا. ازداد طولًا، فتعلم أمورًا عن مخلوقات الغابة، والسحر الذي جعلها صديقةً له. وأخيرًا علم أين تعيش أمه.

قال ذات يوم لِتاما، «إنني ذاهبٌ إلى قومي الآن».

فقال له تاما بحزن، «أجل ستذهب إلى قومك، وستترك الشيخ الذي علمك الكثير من الأمور. ستفعل الكثير من العجائب، يا ماوي، ولن يوقفك إلا واحد. ستخوض مغامراتٍ كثيرةً، ولكن الأخيرة هي أعظم مغامراتك، وستخسر فيها معركتك. لا يا بُني، لن أقول لك ما هي. فمن الخير أن تخوض تلك المعركة، ولا يهم أن تخسرها. فكلنا نخسر تلك المعركة، يا ماوي، لكنَّ ذِكْرَك لن يُنسى. والآن انطلق، يا بُني، فالعالم بانتظارك».

راح ماوي يعدو بجانب الكثبان الرملية، فتسلق هضابًا في الغرب، وهبط سهولًا. ثم رأى من بعيدٍ بيتًا ترتفع منه فتيلةُ دخانٍ رفيعةٌ. أحس في عظامه أن هذا هو بيت أمه. لم يصله إلا بحلول الظلام، ولكن ما أرشده عبر الغابة هو صوت الغناء. نظر من الباب ورأى نارًا تتقد على الأرض والدخان يتصاعد من خلال البيت. تسلل ماوي إلى الداخل مثل شبحٍ وجلس خلف أحد إخوته من غير أن يراه أحد. وما لبثت أن جاءت الأم إلى أولادها وقالت، «قفوا

حين أناديكم بأسمائكم كي نرقص. ماوي تاها».

فوقف الأخ الأكبر.

«واحد. ماوي روتو! اثنان. ماوي پاي! ثلاثة. ماوي واهو! أربعة. كل أبنائي جاهزون».

عندئذٍ نهض ماوي الصغير وخرج من الظلام وقال، «وأنا ماوي أيضًا».

فحدقت أمه فيه وقالت، «لا، أنت لست ماوي. كل أبنائي هنا، وقد عددتهم بنفسي!»

ألح الغلام قائلًا، «أنا ماوي. وهؤلاء إخوتي. انظري، أنا أعرف أسماءهم: أنتَ ماوي تاها، وأنتَ ماوي روتو، وأنت ماوي پاي، وأنت ماوي واهو. وها قد جئتكم الآن، وأنا ماوي الصغير».

«لم أرك من قبل»، قالت له أمه بينما كان ماوي تاها وماوي روتو وماوي پاي وماوي واهو يحدقون في أخيهم. «لا، لا يمكنك أن تكون ماوي، أيها الغريب الصغير. من أين أنت؟»

«أنا من البحر. كانت الأمواجُ مَهدي، وتصارعت الأسماك والطيور عليَّ، ولكنني كنت ملفوفًا بشعر أمي».

التقطت أمه مِشْعَلًا وقرَّبته إلى وجهه، ثم سألته فجأةً، «ما اسمي أنا؟»

«أنت أمي، تَرانْغا».

عندئذٍ مالت عليه، وضمته إليها، وقالت، «نعم، أنت فعلًا ابني الصغير ماوي. لقد وجدتُك ثانيةً. وستكون ماوي الخامس،

وسيكون اسمُك ماوي تيكي تيكي آتَرانْغا، ماوي الذي لُفَّ بِقُنْزُعة تَرانْغا. ستعيش هنا مع إخوتك، وستكون ابني الصغير مرةً أخرى».

كان ماوي تيكي تيكي آتَرانْغا ميالًا بطبعه للأذى العابث، والآن صار لديه أربعة إخوة يعذبهم. فإذا لعبوا بطائراتهم الورقية، كانت طائرة ماوي الصغير دائمًا هي الأعلى. وإذا لعبوا لعبة المطاردة، التي يسمونها وي، كان ماوي دائمًا هو الأسرع. وإذا لعبوا لعبة الرشق بالسهام أو ما شابهها، كان سهم ماوي المصنوع من ورق السرخس دائمًا هو الأبعد. وإذا لعبوا لعبة حبس النَّفَس، كان ماوي دائمًا أطولهم نَفَسًا. وفي السباحة والغوص، كان ماوي دائمًا هو الأكثر جرأةً. كان صديقًا لكل مخلوقات الغابة، وبفضل السحر الذي تعلمه من تاما، كان يستطيع أن يحول نفسه إلى طائرٍ ليهرب من إخوته حين يغضبون منه.

وبسبب مهارته في كل هذه الأمور، وسخريته من بلادة إخوته وغبائهم، صاروا يكرهونه. لكن ماوي لم يكن يعبأ بذلك، فكان يضحك منهم ويمضي للعب مع أصدقائه الطيور. ولم يكن ينغِّص سعادَته إلا أمرٌ واحد: فهو لم يرَ والده قط. فكلَّ ليلةٍ كان ينام إلى جانب أمه على الأرض، وحين يستيقظ في الصباح لا يجدها، ثم لا يراها ثانيةً إلا بحلول الليل.

فسأل إخوته، «أين تذهب أمي نهارًا؟»

«وكيف لنا أن نعرف؟»

«لأنكم عرفتموها أكثر مني».

فقالوا له، «لعلها تذهب شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا. وهذا لا يعنينا».

وحين أيقن أنهم لن يخبروه، عزم على أن يستطلع الأمر بنفسه.

وذات ليلة، بقي ساهرًا، وحين سمع أمه تتهادى أنفاسها وأيقن أنها نامت، تسلل نحوها وأخذ مِنْطَقتها ومئزرها الجميل، وخبأهما تحت مفرشه. ثم عمد إلى كل نافذة في المنزل وسدَّ الشقوق التي يتسلل منها الضياء في الصباح.

وعند الفجر استيقظت أم ماوي ورفعت رأسها لترى إن كان قد أصبح الصباح. كانت السحب في الخارج ملطخةً باللون القرمزي، ولكن البيت لم يكن فيه بصيصٌ من نور. فعادت إلى نومها. وحين استيقظت ثانيةً، كان داخلُ المنزل ما زال مظلمًا، ولكن الطيور كانت تصدح بالغناء. هبَّت تَرانغا واقفةً على قدميها وفتحت النوافذ ورأت أشعة الشمس الذهبية تملأ الأرجاء. بحثت عن مِنْطَقَتَها ومئزرها فلم تجدهما، لذلك لم تنتظر لتبحث عنهما، فألقت معطفًا قديمًا على كتفيها وخرجت راكضةً.

استيقظ ماوي حين اندفق النورُ فجأةً داخل المنزل، فانسل وراء أمه يتبعها. فما لبث أن رآها تنحني وتجتث كتلة من العشب. برزت مكانَ العشب حفرةٌ كبيرة انسلت من خلالها تَرانغا بخفةٍ، ساحبةً وراءها كتلة العشب.

لقد عرف ماوي الآن أن أمه تقضي أيامها في العالم السفلي، فقفل عائدًا إلى إخوته.

صاح قائلًا، «لقد وجدت أين تذهب أمنا خلال ساعات النهار. إنها تذهب إلى أبينا في أرض الظلال. فهيّا نلحقْ بها يا إخوتي!»

«وماذا يعنينا أين تذهب؟» قال له أحدهم ووافقه الآخرون. «نعم، ماذا يعنينا؟ إن رانجي، السماء العظيمة، هو أبونا، وپاپا، الأرض، هي أمنا».

فقال ماوي، «إذًا، سأجدها أنا. إنها أمي، وهي تأتي لنا بطعامنا وتقضي الليل معنا وتحبنا. أنا مَن سيجدها».

أخذ مِنْطَقتها ومعطفها ولبسهما. وأمام أنظار إخوته، تقلَّص إلى عُشر حجمه، ثم رأوا طائرَ حمامٍ جميلًا ينتصب مكانه. كانت المنطقة تتلألأ بيضاءَ ناصعةً على صدره، أما ألوانُ ريشِهِ المتألقةُ ألقًا خافتًا فقد أخذها من مئزر أمه. صرخ إخوته ابتهاجًا لما رأوه يصفق بجناحيه ويحلق فوق الأشجار قاصدًا المكان الذي اختفت فيه أمه. وما هي إلا هُنيهةٌ حتى رفع كتلة العشب وغاص في الحفرة تحتها.

ضمَّ جناحيه حين ضاق الكهف وتابع طيرانه عبر الممرات الملتفة المؤدية إلى العالم السفلي حتى وصل أخيرًا إلى أرض جميلة لا شمس فيها، وكان الهواء راكدًا. كانت تنمو في المكان أشجارٌ طويلةٌ مُوْرِقةٌ، لكن لا توجد نسمةُ هواءٍ لتحرك الأوراق. طار نحو غصنٍ منخفضٍ وحط عليه.

وما لبث أن مرَّ عددٌ من الرجال والنساء. توقف اثنان منهما وجلسا تحت الشجرة التي حطَّ عليها ماوي. كانت المرأة أمه وعرف ماوي أن الرجل لا بد أن يكون أباه. التقط حبة توتٍ بمنقاره وأسقطها على



رمى أبو ماوي الحمامةَ بحجرٍ فتهاوت عند قدميه.

رأس أبيه. قالت أمه، «لا بد أن طائرًا أسقط الحبة».

أما أبوه فقال، «لا، إنها ناضجة وقد حان أوانُ سقوطها».

عندئذٍ التقط ماوي حفنةً من التوت وضرب بها أمه وأباه في آنٍ معًا. قفزا واقفَيْن، وهبَّ إليهما أناسٌ آخرون كانوا قد رأوا طائر الحمام أيضًا. كانت طيور العالم السفلي سمراء فاتحة ورمادية. قذف الرجالُ الطائر الجميل بالحجارة لعلَّهم يزحزحونه عن مكانه. كان ماوي يميل من جانبٍ إلى آخر فيتفادى الحجارة.

وأخيرًا قذف أبو ماوي حجرةً أسقطت الطائر من مَجْثَمِه على الفور، فهبط مرفرفًا. راح يكبر ويفقد شكل الطائر، وصار طويلًا وممشوقًا، ووقف أمام والديه على هيئة شابٍّ على منكبيه معطفٌ جميلٌ ومنطقةٌ بيضاءُ تتلألأ على بشرته السمراء.

عرفت أم ماوي ابنها فقالت، «إنه ليس بِكْري ماوي تاها، ولا ماوي روتو مولودي الثاني، ولا ماوي پاي، مولودي الثالث، ولا ماوي واهو. إنه ماوي مولودي الأصغر، ماوي تيكي تيكي آترانغا». ثم ضمته إلى صدرها. «هذا هو الطفل الذي جاءت به الريح والموج. ستجلبُ الأفراح والأتراح للدنيا، وستقيدُ الشمس، يا ماوي، وربما ستتغلبُ على الموت نفسه».

ذهب ماوي مع أبيه ليُعَمِّدَهُ، والتعاويذ التي قيلت عليه ساعدت على جعله شجاعًا لا يُقهَر حتى النهاية.

وهكذا عاش ماوي الأصغر سعيدًا مع والديه، وفرحت طيور الحمام التي كانت تجوب بين الآجام لأنها صارت الآن ترتدي الألوان

الزاهية لمعطف أم ماوي.

ولكن ماكي تو تارا، أبا ماوي، وتَرانغا، أمَّ ماوي، حزنا لأنهما يعلمان أن جزءًا من التعويذة قد نُسي عند تعميده، ولذلك لا يمكن لماوي أن يرجو التغلب على إلهة الموَت في آخر صنائعه وأعظمها.

وحين ازدادت معرفته بالعالم السفلي، لاحظ ماوي أن الطعام كان يُعَدُّ بعنايةٍ كل يوم ويُؤخذ إلى شخصٍ لا يُذكَر اسمُه. كان ماوي يريد أن يعرف سبب كُل شيءٍ، فسأل، «لِمَن هذا الطعام؟»

«إنه لجدِّك، موري رانغا وِنْوا».

قال ماوي، «آه، لقد سمعت به. دعوني آخذ الطعام إليه».

أخذ القُفَّة وحملها إلى المنزل المظلم الذي يعيش فيه موري؛ لكن بدلًا من أن يأخذ الطعام إلى الشيخ، وضعه في مكانٍ مظلمٍ لا يراه فيه أحد. كان ماوي يأخذ الطعام يوميًّا ويخبئه حتى جاع موري جوعًا، فجلجل صوته عبر الكهوف المقوَّسة، «أين طعامي؟ من الذي يسرقني؟»

وقف ماوي بلا حراك بينما كان جده يشم الطعام. صاح الشيخ، «لو أمسكتُ به، لأكَلْتُه». ثم التفت وتشمَّم ريح الجنوب، فلم يشمَّ شيئًا. التفت نحو الشمال، ولكن لم تكن هناك رائحةُ إنسانٍ. التفت إلى الشرق، ولم تكن هناك أية رائحة. وأخيرًا التفت إلى الغرب.

صاح الشيخ، «آها، إني أشمُّ رائحته. لكن ما الذي يفعله شيء بشري صامت في العالم السفلي الوحيد؟» ثم تشمم ثانيةً، ونادى، «هل هذا حفيدي الأصغر ماوي؟»

«أجل، أنا هو ماوي تيكي تيكي آتَرانغا؟»

«لماذا تأخذ طعامي، يا ماوي الصغير؟ ما الذي تريده، يا ماوي الصغير؟»

فأجابه ماوي، «أريد عظم فَكِّك، يا جدي موري. أعطني عظم فَكِّك، أُعْطِك طعامَك وأتركك بسلام».

فكر موري لحظةً، ثم قال بصوته المجلجل العميق، «إليَّ بطعامي كله. أنا شيخ كبير ولست بحاجة إلى عظم الفك. إليكَ به، لأنك ستحتاجه قريبًا».

تقدم ماوي بلا خوف، وأخذ عظم الفك المقدس وقفل راجعًا إلى بيت أمه. خبأه تحت حصيرته وادخره إلى أن يحين موعد استعماله.

شبَّ ماوي وصار رجلًا، فتزوج امرأةً من العالم العُلوي وذهب ليعيش في القرية مع إخوته. كان إله الشمس ينهض كل يومٍ، وبقفزةٍ واحدةٍ يقطع السماء من أقصاها إلى أقصاها. وطالما بقي الضياءُ كانت وجبة الصباح تُعَدُّ وتؤكل على عجلٍ، وبعد ذلك بقليلٍ يحل الظلام مرةً أخرى. تذمَّر الناس بسبب قِصَر ساعات الضياء، لكن لم يفكر أحدٌ في محاولة تغيير الأمر. وحدَه ماوي راقب الشمس تعبر مسرعةً، وفكر في الأمر، وأخيرًا عرف ماذا بوسعه أن يفعل.

قال لإخوته، «إن الأيام قصيرة».

فقالوا، «أجل، إنها ليست طويلة بما يكفي لنقوم بأعمالنا. ولهذا السبب نلعب ألعابنا دائمًا في الظلام».

قال ماوي، «إذًا، علينا أن نجعلها أطول».

ضحك إخوته وسألوه، «وهل الشمس طائرٌ لنمسك به حين يحط على غصنٍ؟»

فأجابهم ماوي بِجِدٍّ، «أجل، سأصيدها مثل طائرٍ جاثمٍ».

ضحك إخوته بصوت أعلى من ذي قبل، «وهل أنتَ إلهٌ لتظن أنك قادرٌ على مواجهة إله الشمس بكل جبروته؟»

التمعت عينا ماوي وقال، «إنكم تنسون قوتي بسرعةٍ كبيرةٍ، يا إخوتي. أليس بوسعي أن أغير نفسي إلى طائر؟ ألستُ أنا أقوى الرجال جميعًا؟ من يمتلك عظم الفك السحري لجدنا موري؟ غدًا سنرحل إلى مطلع الشمس وهناك نصنع مصيدةً من حبلٍ متينٍ ونمسك بالشمس ونروضها».

فقالوا معترضين، «ولكن الحبال ستحترق. وستقطعها الشمس كأنها خيوط منفردة، وستُؤذينا من حرارة غضبها».

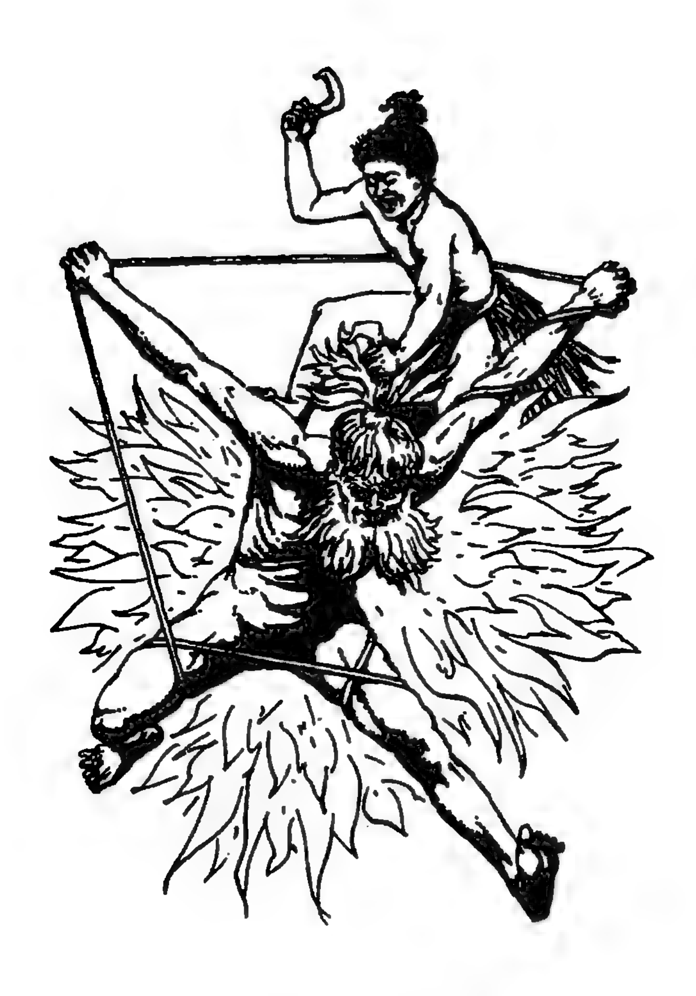
قال ماوي بحزمٍ، «مُرُوا زوجاتكم أن يأتين بالكتان وسنصنع الحبل في الحال». وبسبب الشرر في عينيه وخوفهم منه، جلس إخوته وجَدلوا حبلًا متينًا. عندئذ أخذ ماوي عظم الفك السحري وانطلق إلى مطلع الشمس، يتبعه إخوته حاملين الحبل المتين. كانوا يختبئون في النهار وفي الليل يسيرون سيرًا سريعًا إلى أن وصلوا حافة العالم. وهناك بنوا جدارًا طينيًّا طويلًا يستطيعون أن يختبئوا وراءه ويحتموا به من حرارة الشمس. ثم بنوا بيتين من الأغصان عند طرفي الجدار، واختبؤوا فيهما: ماوي في بيتٍ، وإخوته في بيتٍ. وفوق مطلع الشمس نصبوا أنشوطةً من الحبل العظيم وسَتَرُوها بالأغصان

والأوراق الخضراء.

وما لبثت أن طلعت الشمس بكل جبروتها. كان الإخوة يمسكون بطرف الحبل بأيديهم، فهمس لهم ماوي، «مهلًا. انتظروا حتى تدس رأسها ومنكبيها.آها، الآن!» شد الإخوة الحبل. آها، لقد شدوا الحبل الذي أحاط بجسد الشمس تاما، حتى اهتز الحبل وأزَّ أزيزَ الحبال المتينة التي تُشدُّ إلى حدِّ الانقطاع. أحست الشمس بالألم كأنه دائرة من النار تُطوِّق جسدها. رأت الجدار وكوخَي الأغصان والحبلَ الممتدَ من جسدها إلى باب الكوخ. كانت تتخبط يمينًا وشمالًا غاضبةً. أمسكت بحبل الكتان المجدول بيديها وحاولت أن تقطعه، ولكنه كان متين الحبك. غرزت قدميها في الأرض وتعالى أزيز الحبل مثل أزيز الحشرات في الغابة صيفًا. أفلت الحبل من بين أيدي الإخوة، وكان صوت تَنَفُّسِهم الثقيل أعلى من زئير الشمس.

خرج ماوي من كوخه حاملًا سلاحه، وراح يركض محتميًا بالجدار. ثم نهض بطول قامته وضرب هامة الشمس تاما بعظم موري بكل ما أوتي من قوة. توالت ضربات ماوي وضج الجو بصرخات إله الشمس. كبا رأسُها، فشدَّ إخوة ماوي ما تراخى من الحبل. وظلت ضربات ماوي تُصدر صوتًا يشبه تهاوي أشجارِ الغابات التي تلتهمها النيران. وأخيرًا جثا إله الشمس على ركبتيه وطلب الرأفة.

وعندئذ تركوه يمضي في سبيله بعد أن أُثْخِنت جِراحُه وخارت عزيمته. وبدلًا من أن تقفز الشمسُ بسرعةٍ على مسارها من الصباح



ضجَّ الجوُّ بصراخ إله الشمس.

إلى الليل، راحت تتهادى في مشيتها كما تفعل إلى يومنا هذا.

لم يرضَ قطُّ عقلُ ماوي القلقُ عن الأجوبة التي يتلقاها على أسئلته.

سأل مدفوعًا بحب الاطلاع، «من أين تأتي النار؟»

فأجابه الناس بنفاد صبرٍ، «إنها هنا. لماذا تريد أن تعرف من أين تأتي؟ إن كانت لنا، هل نحتاج لمعرفة من أين تأتينا؟»

«لكن ماذا يحصل لو انطفأت النيران؟»

«لا ندعها تنطفئ. وإن حدث هذا، فأمنا تعرف من أين تأتي بالنار، ولكنها لن تخبرنا».

في تلك الليلة، تسلل ماوي من بيته، والكل نيام، إلى نيران الطبخ التي كانت تَعُسُّ تحت الرماد في الظلام. صبَّ عليها الماء حتى انطفأت آخر جمرة.

وما إن أضاءت السماء بأشعة الفجر الأولى، حتى نادى ماوي على خدمه، «أنا جائع. هيِّئوا لي الطعام بسرعة». ركض الخدم إلى النيران فلم يجدوا إلا أكوامًا من الرماد. تعالى الصراخ في القرية حين تراكض الخدم يحملون هذه الأنباء. مكث ماوي في منزله وابتسم وهو يُصغي إلى الضجيج. ثم ما لبث أن سمع أصواتًا في المرايْ، مُلتقى القرية. كانت أمه تأمر العبيد للذهاب إلى العالم السفلي لجلب المزيد من النار.

لف ماوي نفسه بمعطفه المصنوع من ريش الكيوي، ثم اتجه إلى المراي يَخِبُّ خَبًّا. كان العبيد يتجمعون حول بعضهم مذعورين من الذهاب إلى العالم السفلي. «أنا سأذهب، يا أمي. أين أجد أرض

الظلام؟ من هو حارس النار؟»

نظرت تَرانغا إلى ابنها نظرةَ ارتيابٍ. «إن لم يذهب أحدٌ، فعلى ابني الأصغر أن يقوم بالرحلة. إن سِرْتَ على الدرب الذي سأريك إياه، فسيأخذك إلى منزل جدتك ماهْوِيْكا. إنها حارسة النار. وإن سألَتْك عن اسمك، فقل لها من أنت. ويجب أن تحذر: كن محترمًا، يا بني. فنحن نعلم عادات ماوي تيكي تيكي آترانغا، ولكن جدتك قوية، فإن حاولت خداعها، عاقبَتْكَ».

ابتسم ماوي ابتسامة خبيثة، وانطلق من فوره يذرع الأرض ذرعًا. وسرعان ما وصل إلى أرض الظلال التي تعيش فيها إلهة النار. ثم ما لبث أن جاء إلى منزل جميل بزخارف بهية وله عيونٌ من أصداف الپاوا التي تتألق كاللهب في الظلام. تناهى إلى سمعه صوتُ عجوزٍ متهدجٌ مثل طقطقة الأغصان في النار.

«من هذا الفاني الذي يَجرؤ على النظر إلى ماهويكا ربَّة النار؟»

«إنه ماوي».

«لدي خمسة أحفادٍ بهذا الاسم. هل هو ماوي تيكي تيكي آترانغا؟»

«أجل، هو أنا ذا».

قهقهت العجوز وقالت، «ماذا تريد من جدتك، يا ماوي الأخير؟»

«أريد نارًا آخذها إلى أمي وإخوتي».

«بإمكاني أن أعطيك نارًا، يا ماوي».



انتزعت ماهُوِيْكا أحد أظفارها فاشتعل نارًا.

انتزعت ماهْوِيكا أحد أظفارها، فاشتعل ملتهبًا. «احمِلْهُ بعناية، يا ماوي، وأشعلوا نيرانكم به».

حمله ماوي وابتعد، لكن ما إن سار مسافةً قصيرة حتى ألقى به على الأرض وداسه بقدميه وانطفأت النار. ثم عاد إلى منزل جدته.

صاحت العجوز، «آها، إنه ماوي مرةً أخرى. ماذا تريد هذه المرة، يا ماوي؟»

«نارًا. لقد أضعتُها. لقد انطفأت الشُّعلة».

عبست العجوز وقالت، «إذًا، كنت مهملًا، يا حفيدي. سأعطيك ظِفرًا آخر، لكن عليك أن تحمي الشعلة بيدك».

أخذ ماوي الظفر المشتعل. وما إن توارى عن الأنظار حتى أطفأ الشعلة وعاد إلى ماهْوِيكا. عبست ربة النار في وجهه، ثم أرعدت وهي تعطيه ظفرًا آخر.

خمس مراتٍ مضى ماوي بالشعلة، وخمس مراتٍ عاد خالي الوفاض. عشرَ مرات مضى ماوي بالشعلة، وعشر مراتٍ عاد خالي الوفاض. لقد أعطته ماهويكا جميع أظفارها، والآن أعطته واحدًا من أظفار قدميها على مضض. ولكن المحتال ماوي عاد يطلب غيره. خمس مراتٍ مضى ماوي بالشعلة، وخمس مراتٍ عاد خالي الوفاض. تسع مرات مضى ماوي بالشعلة، وتسع مراتٍ عاد خالي الوفاض.

وأخيرًا نفد صبر ماهْوِيكا، فزلزلت النيران من باطن الأرض أركان المنزل، فاضطُر ماوي أن يشق طريقه بين الحرارة والدخان المنسكبين من الباب والنافذة. أضاءت عينا ماهْوِيكا في الظلام

مثل وميض البرق. انتزعت ظفر قدمها وقذفت به ماوي. لكنه سقط دونه، وعندما لامس الأرض أحدث جلجلةً كهزيم الرعد، وانطلقت كتلةٌ من اللهب تسابق الريح نحو ماوي. راح يعدو بأقصى ما يستطيع، ولكن اللهب كان يلاحقه مثل وحش يزمجر. اتخذ هيئة صقرٍ وراح يحلق وهو يصفق بجناحيه تصفيقًا، ولكن اللهب كان يلاحقه. فأحس أن اللهب يَسْفَعُ ريشه، وإلى يومنا هذا يمكنك أن ترى أن ريش الصقر بني اللون حيث سفعته النار.

كانت أمامه بركة ماء، فأطبق جناحيه وغاص فيها. فما لبث الماء أن أصبح دافئًا. تململ ماوي بقلق في قعر البركة حين راح الماء يسخن. وبعد لحظات صارت البركة تغلي، فطار ماوي محلقًا في الأعالي. كان الجو مليئًا باللهب. اشتعلت الغابة وصار اللهب يطاول عنان السماء.

بدا وكأن العالم برمته يوشك على الهلاك بفعل الحريق. عندئذ تذكر ماوي الأربابَ الذين عرفهم في بيت تاما. فدعاهم ورأوا أن الأرض في خطر، فأرسلوا مطرًا مِدْرارًا انقض على اللهب وكسر ألسنته واخترق جدران النار. سُمِع صوتٌ أجش يصرخ مرعوبًا. كانت ماهْوِيكا في وسط النار، وحين استدارت لتهرب إلى بيتها، خارت عزائمها. تلاشت النار وصارت ألسنةً صغيرةً متقطعةً ما لبثت أن خمدت في زخةٍ من البخار. ألقت ماهْوِيكا ببقية النار في الأشجار التي آوتها وادَّخرتها لبني البشر. وهذه الأشجار هي كايْكوماكو، ماهو، وتوتارا.

وأخيرًا، أتى خيرٌ من خُبْثِ ماوي، حيث صار الناس يحُكُّون

أخشاب هذه الأشجار كي تخرج منها النار، وهكذا صار باستطاعتهم أن يُسَخِّروا أبناء النار لخدمتهم في أي وقت يشاؤون.

مسَّدَ ماوي صنارته بمحبة. وكانت قد صُنعت من عظم فكِّ جده موري رانغا وِنْوا، ومرصعةً بالصَّدَف ومزينةً بِخُصَلٍ من شعر الكلب، وكان السحر الماكر يكمن تحت سطحها الصقيل.

لم تكن الشمس قد ارتفعت فوق البحر حين تسلل ماوي من منزله واندسَّ في زورق إخوته. رفع الألواح السفلية واندسَّ تحتها في المكان الضيق. سحب الألواح فوقه، ثم استلقى.

لم يكن عليه أن ينتظر طويلًا. كانت السماء الشرقية لا تزال قرمزيةً حين كوَّم إخوة ماوي حبال صيدهم في الزورق وانطلقوا به داخل الأمواج المتكسرة. كان ماوي المختبئ تحت أقدامهم يسمعهم يتضاحكون. قال ماوي پاي، «لقد تخلصنا من ماوي الصغير. إنه ما زال نائمًا».

قال صوتٌ عميقٌ، «ماوي ليس نائمًا»، فالتفتوا مشدوهين. بدا الصوت وكأنه آتٍ من تحت الزورق.

«لعله نَوْرَس»، قال ماوي واهو، لكنهم لم يصدقوه.

رفعوا مجاديفهم مرة أخرى وسار الزورق بسرعة. ثم توقفوا. هذه المرة كان الصوت لا تخطئه أُذن. كان ماوي هو الذي يضحك منهم. رفعوا الألواح، فوجدوه تحتها مُكَشِّرًا مثل عفريت.

فصاحوا، «ماوي! لن نأخذك معنا. ستُفسد علينا صيدنا».

اتسعت تكشيرة ماوي، وقال، «بل ستأخذونني».

«لا. سنعود الآن. إن زورقنا لا يتسع إلا لماوي پاي وماوي روتو وماوي واهو وماوي تاها؛ إنه لا يتسع لماوي تيكي تيكي آترانغا».

كرر ماوي قوله، «بل ستأخذونني». مد يده وأشار باتجاه اليابسة. نظر إخوته وراءهم، لكنهم لم يروا إلا محيط كِيْوَا الأزرق، إذ كان ماوي بسحره الماكر قد نشر البحر وغابت اليابسة وراء الأمواج المرتفعة.

قال لهم آمرًا، «تابعوا التجديف».

قال إخوته وقد ألقوا مجاديفهم، «لا».

صاح ماوي، «تابعوا التجديف»، وقد تلاشى الضحك من وجهه، وكانت عيناه باردتين وقاسيتين كأنهما قطعتان من الحجر الأخضر. رفع الإخوة الأربعة مجاديفهم وقوَّسوا ظهورهم.

كانوا مرهقين حين أعطى أمر التوقف وقال، «ألقوا حبالكم وسنرى بم ستجود علينا بقعة الصيد التي اخترتُها».

وضعوا الطُّعوم في الصنارات بصمت ودلَّوْها في الماء. وسرعان ما اهتزت الخيوط في أيديهم، وسرعان ما غطى السمك الألواح السفلية.

قال الأخ الأكبر، «هذا يكفي. كان هذا صيدًا رائعًا. والآن انتهى الأمر».

نفخ ماوي على صنارته وأعجبته لما انعكس النور عليها. وقال لإخوته بصوت خافت، «لقد أنجزتم عملكم، يا إخوتي. أما عملي فلم يبدأ بعد».

صاحوا من فورهم، «لا، لا. لدينا ما يكفيك ويكفينا، يا ماوي. هيا نَعُد إلى زوجاتنا وأطفالنا الآن».

«آه، يا إخوتي، لم تروا صيد ماوي بعد. لن ألقي بحبلي إلا مرةً واحدةً. أعطوني طُعْمًا».

لكنهم ما كانوا ليعطوه من خوفهم مما قد يفعله أخوهم. عندئذٍ ضمَّ ماوي قبضته وضرب بها أنفه بعنفٍ، فسال الدم. ثم خضَّب الصنارة بالدم ودلاها من جانب الزورق.

مرت من بين أصابع ماوي أطوالٌ وأطوالٌ من الحبل. وامتد حبل الكتّان في أعماق البحر البعيدة. وما لبث أن شعر ماوي بالصنارة تلامس شيئًا. أخذ نَفَسًا خافتًا بينما كان إخوته يتطلعون بصمت. شد الحبل شدًّا رفيقًا، فعلقت الصنارة في العمق البعيد.

في بيت تانغا رُوا الصامت، علقت صنارة ماوي في مدخل منزل تونغانْوي، ابنِ إله البحر. راح ماوي يشد الحبل. ركَزَ قدميه في جانب الزورق، واستجمع قواه، وراح يسحب الحبل. تأوَّه منزل تونغانْوي. ارتفع قليلًا، ثم استقر في مكانه، وبعد أن صار شد الحبل المرتعش باتجاه الأعلى، انقلع البيت من قعر البحر، وقد جاءت معه قطعة كبيرة من الأرض.

راح ماوي يترنم بالأغنية التي تجعل الأثقالَ خفيفةً، وإخوته يغمسون مجاديفهم بعمقٍ في المياه. راح صوت ماوي يتعالى، وبرزت عضلات ذراعيه كأنها جذور شجرة. أزَّ الحبل أزيزًا عاليًا يخرق الرؤوس.

صاح إخوته صيحةً عميقةً حين برز تِيْكوتِيْكو، ذلك الشكل البشري المحفور على سطح منزل تونْغانْوِي، فوق البحر ببطءٍ، تتبعه الجوانب والمدخل الذي علقت به الصنارة السحرية. وبعدئذٍ برزت الأرض التي تحته كأنها سمكةٌ لامعةٌ يمتد ذيلُها بعيدًا حتى يتوارى عن الأنظار. رفع المنزلُ الزورقَ عاليًا فوق الماء حين نفض البحر عن جانبيه.

لقد كانت تلك سمكة ماوي ... تي إيكا آماوي.

قال ماوي لإخوته، «ابقوا هنا. لا تُحْدِثوا صوتًا. إن إله البحر غاضبٌ، وعليَّ أن أتصالح معه. عندئذٍ سنقسم الأرض بيننا».

توارى عن الأنظار بخطواتٍ طويلةٍ وهو يؤرجح يديه. كان العالم الذي استخرجه ماوي من تحت البحر صقيلًا وبرّاقًا ولامعًا. كانت هناك بيوتٌ على سطحه العريض. وكانت النيران ترسل أعمدة الدخان في الهواء الراكد. وكانت الطيور تشدو، والجداول تُخَرخِر على جوانبه.

صاح ماوي تاها، «هذه القطعة لي».

قال ماوي واهو، «لا، إنها لي».

قال ماوي پاي، «حسنٌ إذًا، أنا سآخذ هذه». قفزوا من الزورق وراحوا يتراكضون هنا وهناك في أرجاء الأرض، وهم يشرُطونها بأسلحتهم قطعةً قطعةً ويدَّعون ملكيتها.

أحست السمكة بِعَدْوِ أقدامهم وضربات أسلحتهم. وما كانت إلا نائمةً على سطح المحيط. كانت تتقلب في الماء، فيتموَّج سطحه



فإذا بها سمكة ماوي – تي إيكا أماوي.

الصقيل.

لهذا السبب قُسِّمت سمكة ماوي العظيمة فصارت جبلًا وواديًا وشواطئ صخريةً وَعِرةً. ولو أنهم تركوها بحالها، لَظلَّت صقيلةً إلى يومنا هذا.

صيدُ ماوي هذا حدث منذ زمن سحيق. سمَّوه تي إيكا آماوي، أي سمكة ماوي العظيمة، وهي جزيرة آوْتِيارْوا الشمالية.[7] حتى الصنارة موجودة هنا. فهي تمتد على طول الساحل المنحني لخليج هوك حتى النقطة التي يعرفها الماوري باسم تي ماتاوْ آماوي، أي صنارة ماوي.

كان تُوْنا رُوا والد جميع أسماك الأنقليس. كان يعيش في مستنقعٍ على ظهر السمكة التي استخرجها ماوي من البحر. عاش ماوي مدةً من الزمن على هذه الجزيرة العظيمة مع زوجته هينا. كانت هينا تذهب كل يوم إلى المستنقع لتملأ حَوْجَلة اليقطين بالماء.

وذات صباحٍ، حين انحنت لتغرف من الماء، رأت دَوّامةً في البِركَة، ثم انطلقَ جسم طويل يتلوّى فوق سطح الماء. ولم يكن هذا سوى تونا روا. كان الماء يقطر منه حين رفع رأسه عاليًا في الهواء. تراجعت هينا وأرادت أن تركض. لكن فات الأوان. انطلق رأس تونا كالسهم وضربها بين منكبيها، فسقطت على وجهها. خرج تونا من الماء، ثم طوَّقها بلفائفه الدبقة. ثم عاد مُنْسلًا إلى الماء ثانيةً.

لم تخبر هينا زوجها بما جرى. في اليوم التالي راحت تراقب بعنايةٍ وهي تغرف الماء بحوجلتها. وكما في المرة السابقة رأت شيئًا يسبح

في الماء الراكد المظلم. رمت الحَوْجَلة وراحت تركض، إلا أن قدمها تعثرت بحجر فسقطت. وما هي إلا لحظةٌ حتى كان تونا يتمرَّغ فوقها بجسده الدبق.

هذه المرة أخبرت هينا زوجها، فغضب غضبًا شديدًا. ذهب إلى الغابة ثم ألقى على الأشجار تعاويذه ليُسَخِّرَها لإرادته. ثم قطعها وصنع منها أدواتٍ: مَعاوِل تحفر بعمقٍ وسرعةٍ من غير أن تلمسها قدم، ورماحًا تخرق الأجساد خرقًا، وسكاكين تقطع قطعًا. أخذ هذه إلى المستنقع وتركها تعمل عملها. حفرت المعاول خندقًا واسعًا من المستنقع إلى البحر. ألقى ماوي بشبكةٍ فوق الخندق وجلس ينتظر. ثم ما لبث أن هطل المطر. صبَّت الجداول الصغيرة مياهها في المستنقع. ارتفع الماء حتى بلغ الخندق، ثم كسر الحاجز الترابي الضيق الذي تركته المعاول، وزمجر هادرًا في الخندق. حمل الماء كتلًا كبيرة من التراب معه، كما حمل جذوع الأشجار والنباتات، وفي وسط السيل حمل تونا روا الذي كان يكافح.

كانت المياه المضطربة تتقاذفه وهو بلا حولٍ ولا قوةٍ، وظل هذا دأبه إلى أن علق في الشبكة. عندئذ رفع ماوي مِدْيَتَه ونحر بها رقبة تونا. سقط الرأس وتدحرج في البحر. ثم قطع ماوي ذيله، ومن شدة غضبه قطَّعه قطعًا صغيرة.

لم تكن تلك نهاية تونا. فقد تحول رأسُه إلى سمكة، وصار ذيلُه سمك السلور، والقطع الصغيرة تحولت إلى أنقليس الماء العذب. وهكذا أصبح تونا رُوا والد الأنقليس.

مرت السنون وشاخ ماوي. ظل مرحًا كعادته، ولكن خطَّ الشيبُ في رأسه، وصار ابناه شابَّيْن. كانا مثل والدهما. لم يكونا جادَّين قط، فغار منهما ماوي، وناداهما ذاتَ يومٍ عند المغيب وقال لهما، «لقد سئمت من سماع الأخبار عن سوء صَنيعكما، يا ولديَّ. وأنتما لا تجلبان سوى العار عليَّ. لقد آن الأوان لتغادرا هذا العالم».

ثم قال لهما وهو يضع يده على كتف كلٍّ منهما، «لكن الناس لن تنساكما. سأحوِّلُكما إلى نجمين. فمن يترقب قدومَ الليل سيراكما، ومن يترقب بزوغَ الفجرِ سيرحب بكما. وداعًا يا ولديَّ».

لامسهما بيده، وتغيرت هيئتهما، وتألَّقَا نورًا. أخذ عَظْمَيْ فَكَّيْهِما ليضيفهما إلى مخزن صِنّاراته. رفع ماوي ابنيه بيديه وقذفهما في الفضاء البعيد، واتخذا مكانهما في السماء المترامية. وهاهُما في عباءة رانجي، والد السماء، المنشورة طولًا وعرضًا. واحدٌ نجمة الصباح، والآخر نجمة المساء.

كان تاكي من بين من شهدوا مصير الشابين، وكان هذا أحد إخوة ماوي الكبار. كان تاكي شيخًا هدَّته السنون. وحين رأى النجمين يتلألآن بسلامٍ في السماء، تاقت نفسه لمثل هذه الراحة، وتوسل إلى أخيه، «اقذفني في السماء كما قذفت ابْنَيْ أخي. حينها سأعيش إلى أبد الآبدين في عين البشر».

نظر ماوي إلى أخيه مَلِيًّا. كانت أسنان تاكي بيضاءَ ومتينةً رغم شيخوخته. لا شك أن فكَّ تاكي سيصير صنارة ممتازة. لكن تاكي صار سمينًا وثقيلًا.



وفي مكان إيراوارو وجدتْ كلبًا ذا فَرْوٍ، وهو أول كلبٍ عرفه الماوري.

فقال له ماوي، «لا أستطيع أن أقذفك في السماء. لكن أعطني عظم فكِّكَ وسأُريكَ كيف تتسلق خيوط العنكبوت التي تمتد من الأرض إلى السماء».

وافق تاكي، وتسلق المرتفعات المدَوِّخة بمساعدة ماوي. ازداد بريقُ عينيه وهو يمضي إلى مكانه في السماء، وهو يتلألأ مُنشرحَ الخاطر إلى الأبد. إنه تاكْيارا، النجمُ الهادي.[8]

ذهب ماوي يصطاد السمكَ مع عديله إِيْراوارو. أخذ معه صنارته الشهيرة المصنوعة من فك موري. ولكنها لم تصطد شيئًا على الرغم من جمالها الصقيل وسحرها، بينما كانت صنارة إِيْراوارو تأتي بالأسماك وتُكوِّمها على الرُّكام الفضي على الألواح السفلية. راح مزاج ماوي يغلي.

وما لبث أن أحسَّ بشدٍّ على خيط صنارته، فسحبه بسرعة. كان الخيطان قد تشابكا، فصاح ماوي. «أبْعِد صنارتك عن خيطي. هذه سمكتي». أرخى إِيْراوارو حبله ليحرر صنارته، ثم سحب كل منهما خيطه. وحين طُرحت السمكة وهي تلهث في قعر الزورق، تبين أن صنارة إِيْراوارو هي التي اصطادتها.

كتم ماوي غيظه. راحا يجدفان نحو اليابسة، وحين بلغ الزورق الشاطئ، قال ماوي لإِيْراوارو أن يقفز ويرفع مَدّاد الزورق. ولما انحنى إِيْراوارو وحمل المدّاد على ظهره، ألقى ماوي بمجدافه وقفز على المدّاد المصنوع من الخشب الثقيل. ناء إِيْراوارو بالحمل فسقط تحت وطأته وتَمَدَّد عاجزًا والمدّادُ يكبسه على الأحجار. راح

ماوي يضرب ظهره بقدميه حتى استطال. ثم نبت فروٌ على جلده، وتقاصرت يداه ورجلاه، وظهر له ذيلٌ، وتبدلت هيئة رأسه. وحل محل إِيْراوارو كلبٌ ذو فروٍ، وهو أول كلب عرفه الماوري.

التقت زوجة إِيْراوارو بماوي وهو عائدٌ من الشاطئ، وسألته، «أين إِيْراوارو؟»

قال ماوي ضاحكًا، «لقد تركتُه عند الزورق»، مع أن عينيه لم تبتسما. اذهبي وساعديه، يا أخت زوجتي. وإن لم تجديه، نادي عليه. ناديه 'مو آي، مو آي، مو آي،' وسيُجيبك».

أسرعت المرأة إلى الشاطئ ولكنها لم تجد زوجها. نادته، وما من مُجيب. عندئذ تذكرت كلمات ماوي، فصاحت، «مو آي، مو آي»، وفي الحال سمعت خشخشةً بين الشجيرات وخرج منها حيوانٌ غريبٌ وراح يتراقص حولها. وحين رأته، قفلت هيناوْري، زوجةُ إِيْراوارو، راجعةً إلى القرية، بعد أن أيقنت أن ماوي انتقم من زوجها، وامتلأ قلبها حُزنًا.

شاخ ماوي، وكان ابناه من بين النجوم التي تتلألأ ليلًا. كانت الشمس، التي تعبر السماء ببطء، تُذَكِّرُه بشُقرته وهو شابٌ. كان يعيش على الأرض التي استجرَّها من سرير المحيط. وكان عشاؤه تطبخه النار التي سرقها من ماهْوِيكا.

تذكرَّ قومه هذه الأفعال. فعلى الرغم من مزاجه الشرير، تذكروا كم كان لقلة صبره من فضلٍ عليهم، وتطلعوا إليه ليريهم أشياءً أعجب من هذا. وهكذا عزم ماوي في شيخوخته على القيام بأعظم



تحت أنظار أصدقائه، فشل ماوي في مغامرته الأخيرة – لقهر ربَّة الموت.

أفعاله. لقد قرر أن ينتصر على ربة الموت، هينا نُوي تي پو.

لقد رآها من بعيد. كانت عيناها تتلألآن، وأسنانها تُبرق، وخصل الشعر الطويلة تتناثر حولها كأنها أعشاب بحرية ألقى بها الموج، وحين تتكلم كان صوتها يُجلجل كهزيم الرعد.

نادى ماوي على أصدقائه الطيور، فطارت إليهِ. جاءته من البحر والمستنقع والشاطئ لتلَبِّي له مشيئته. طلب ماءً، فهبَّ پوكيكو لجلبها.[9] سُرَّ ماوي بذلك، ثم أمسك بپوكيكو ومطَّ ساقيه حتى صارتا طويلتين ورفيعتين لكي يستطيع أن يتبختر بسهولةٍ في مياه موطنه المستنقعات الضحلة. لم يكن له من صديق سوى الطيور حين اقترب من ربة الموت.

كانت هينا نائمةً، فاغرة الفم على اتساعه، فخلع ماوي عنه معطفه، واستعد ليزحف داخل فمها.

ثم همس للطيور قائلًا، «حين تروني أزحف داخل فمها، إيّاكم أن تضحكوا مهما يكن المشهد غريبًا. لكن إن عدتُ من حيث دخلتُ، فاضحكوا وغنُّوا، لأنني حينها أكون قد قتلتُ ربة الموت، وحينها لن يموت طيرٌ أو بشر».

في السكون قفز ماوي مُدْخِلًا رأسه أولًا في جسد هينا، مُرورًا بالمدخل الذي يولَد فيه البشر، ولم تُحدِث الطيور الخائفة أي صوتٍ. تسلل ماوي داخلًا أكثر حتى لم يبق من جسده إلا ساقاه الموشومتان. وبينما كان ينحرف ويتلوَّى، كانت ساقاه تتأرجحان يمينًا وشمالًا. كانت تِيْوايْ وَكا الحمامة الصغيرة ذات الذيل المروحي تراقب،

وفجأةً دوَّى صوتها الحاد بالضحك الذي لم تعد قادرةً على كبته. فاستيقظت هينا. أبرق برقٌ من عينيها الحمراوَيْنِ وأطبقت أسنانها إطباقًا مُدَوِّيًا.

لم يمنع ماوي من قهر الموت إلا ضحك تِيْوايْ وَكا الحمامة الصغيرة ذات الذيل المروحي التي لم تعد تضحك. نعم، لم يمنعه من قهره إلا هذا وترتيلةٌ نسيها أبوه.

صمتت الطيور حُزنًا على صديقها ماوي مدةَ يومٍ وليلةٍ. وبعد ذلك نسيت، فالحياة أقصر من أن تُقضى في الحزن، والموتُ في النهاية مثل نومٍ يأتي للمُرهَقين.

6

تُوهاكي الجسور

على سلسلةٍ منبسطةٍ من الصخور البارزة فوق الأمواج وأعشاب البحر الطافية، كان تُوْهاكي يصطاد السمك مع أربعة من أصهاره. ولما سحبوا حبال الكتان المربوطة بصنارات عَظْمِية، تراكمت خلفهم أكوامٌ من السمك الفضي اللامع. لكن حين أخذت الشمس تنحدر نحو المغيب، كانت كومة توهاكي كبيرة بحجم أكوام الإخوة الأربعة مجتمعين.

ضحك توهاكي وهو يجمع أسماكه في سلته، وراح يستهزئ بأصهاره. لم يكن لديهم ما يجيبونه به، ولكنهم كانوا أكثر تصميماً على تنفيذ الخطة التي أضمروها حين دعَوْهُ لمرافقتهم. كانت المشكلة الحقيقية هي الغيرة. إذ كان توهاكي أمهر بني قبيلته في فنون الحرب والسلم، في الجري والسباحة، في القتال وممارسة الحب. وضع سلته على كتفه، وراح يغني لأنه لم يكن يعلم ما يدور في خَلَدِ أصهاره.

وصل اثنان منهما القرية حين غابت الشمس وراء البحر. قابلتهما أُختُهما وهما يضعان أحمالهما من السمك، فسألتهما، «أين زوجي؟»

قالا لها بسرعةِ مَن كان يتوقع مثل هذا السؤال وأعدَّ له جوابًا منذ مدة، «لقد تركناه مع أخوَيْنا». رمقتهما أُختُهما وعبست. أحست بشيءٍ غريبٍ في طريقة كلامهما. لقد مرت أسابيع متوالية وهم بالكاد



منح الآلهة قوةً لزوجة توهاكي.

يُجاملونه ولو بكلمةٍ طيبةٍ، أما في ذلك الصباح فقد جاؤوا باكرًا وبكلماتٍ عذبةٍ أقنعوا توهاكي ليرافقهم لصيد السمك. نظرت إلى سلالهما وكانت طافحةً بالسمك. كان الكل يعلم أن إخوتها صيادون بؤساء.

هُرعت إلى الشاطئ والتقت بأخويها الآخرين فسألتهما، «أين زوجي؟»

كان صوتها حادًّا، وبانت نبرة الكذب في ضحكة أخويها (حتى في آذانهما هما) وهما يقولان لها، «ولماذا تسألييننا نحن؟ لقد ذهب إلى بيته مع أخوينا. نحن لسنا حُرّاسًا عليه».

لم تُجِبهما، بل راحت تعدو وهي تقتفي آثار الأقدام في الرمال. بدأ الظلام يحل، ولكن آثار الأقدام كانت لا تزال واضحةً فُوَيَق خط الأمواج الأبيض. كان الخوف يأكل قلبها وهي تجري. كان الرأس الصخري يُلقي بظلاله القاتمة على الرمال التي كانت تستلقي عليها هيئةٌ أشدُّ قتامةً. جثت على ركبتيها إلى جانب هذه الهيئة. إنه توهاكي. ألصقت وجهها بوجهه وشعرت بنَفَسِه الخافت الرفيق الذي كاد يضيع بين همسِ الأمواج الصغيرة وهي تلعق يده الممدودة. رفعت رأسه، فتحرك وفتح عينيه. ارتسمت ابتسامةٌ على شفتيه.

قال لها بصوتٍ خافتٍ، «إخوتك ... يفتقرون لمهارات القتال والتسلية. لقد ظنوا أنهم قتلوني».

تهاوى رأسه إلى الأرض مرةً أخرى. منحت الآلهة زوجةَ توهاكي قوةً، فحملت زوجها بين ذراعيها، ثم تحايلت للأمر حتى جعلت

جسده على ظهرها. كان وزنه ثقيلًا، ولكنها حنت ظهرها حتى أخرجت قدميه من الرمال. وهكذا كانت تغرس قدمًا ثقيلةً بعد الأخرى، لتعود أدراجَها مقتفيةً الآثارَ الباهتةَ المعالم التي كانت قد خلَّفتها في الرمال قدماها الطائرتان.

لم يفتح توهاكي عينيه حتى الصباح. ثم سأل فجأةً، «هل هناك شجرة طويلة بجانب المنزل؟ إليَّ بها هنا وضعيها على النار». جرَّت زوجتُه زندًا خشبيًا ضخمًا من الأجمة.

قال لها توهاكي، «لا تُقَطِّعيه. ضعيه على النار كما هو».

بينما كانت النار تأكل اللحاء، مد يديه نحو اللهب. «كما تأكل النارُ الخشب، كذلك سيأكل أبنائي أبناء إخوتك»، قال لزوجته وعيناه تقدحان قدحًا يماثل وهج النار الحامية. «عندما يولَد ابنُنا سأسمّيه واهي إيرُوا لكي يتذكر إرادة أبيه. أجل، سيكون اسمه زندَ الخشب الطويل أبا النار».

مرت شهورٌ وَوُلِدَ لتوهاكي ابنٌ، وسماه واهي إيرُوا.

جمع توهاكي أقرباءه ومحاربيه، وقال لهم، «إن أهل هذه القرية خَوَنة. سنأخذ عائلاتنا معنا ونبني لأنفسنا قريةً خاصةً بنا. دعونا نذهبْ إلى القمة التي يتباطأ عندها آخرُ بريقٍ لأشعة الشمس. دعونا نذهب الآنَ بينما يتوارى الخَوَنة في بيوتهم. لن يجرؤ أحدٌ على منعنا من الذهاب، ولن نُكِنَّ لهم أي رحمة».

وعلى قمة الجبل بَنَوْا قريتهم. وصار بالإمكان رؤية خط الأسْيِجة الوتدية الثلاثي حين تُطل شمس الصباح بينما يقف الحراس في

أبراجهم. كانت صيحات الرُّقَباء في الليل تعبر الوديان المغطاة بالأشجار حتى تصل القرية الساحلية التي كان يعيش فيها أصهار توهاكي عيشةً متراخيةً لا مبالية. أما وقد غادرهم توهاكي، فقد صاروا أسعد من ذي قبل، ولم تفلح حتى الظلال الحادة لأسيجة الأوتاد أن تحرك ما عَشْعَشَ في عقولهم من خُمول.

ولكن توهاكي لم ينس. كانت رؤية واهي إِيرُوا الصغير، وهو بين ذراعَيْ أُمِّه، تذكره بما كان قد وعَد. فقال متفكرًا، «يجب ألا أترك الانتقام لولدي. فالجرح جُرحي، والثأر ثأري».

ثم صعد إلى أعلى قمة في الجبل حيث بدت السحب تسبح غيرَ بعيدٍ كأنها في متناوَل اليد. رفع يديه ودعا أسلافه الآلهة لتفجِّر أنهار السماء. هبطت السحب مقتربةً من الأرض، سوداءَ مُدْلَهِمّةً. خبتِ الريحُ وساد الأرضَ سكونٌ. عندئذٍ انهمرت مياه السماء. أصبحت الجداول الصغيرة سيولًا عارمةً، ولكن صوت المياه الهادرة أخمده قَرْعُ المطر. أما ماء البحر الهادئ فقد تحول إلى كتلةٍ من الزَّبَد الأبيض، ولما أفرغت الأنهار الجائعة أنفسَها في البحر، زحفت الأمواج، التي صارت أسرع من أي مَدٍّ، على الرمال نحو القرية حيث كان القتلة يربضون في بيوتهم الآمنة. راقبوا الماء وهو يزحف ويتخطى حافة الرمل المحاط بالعشب. عصفت دوامة الماء بملتقى القرية وبقبقت حول أقدامهم. عندئذ وثبت الدوامةُ وثبةً بطيئةً طويلةً منحنيةً وقبل أن يتمكنوا من مغادرة بيوتهم، ارتفعت المياه بصمتٍ حتى بلغت التيكوتيكو على شجرة السقف وأخمدت صيحاتهم.[10]



ارتفع الماء بصمتٍ حتى بلغ التيكوتيكو على جَمَلون المنزل.

سقطت آخر قطرة مطرٍ من السحاب وأشرقت الشمس ثانيةً على عالم سريعِ العطب بين غابةٍ خاويةٍ على عروشها وبحرٍ هائجٍ. حين نظر توهاكي عبر البخار المتصاعد من كل شجرةٍ وهضبةٍ مشبعةٍ بالماء، رأى أن الماء ينحسر ببطء عن القرية الكائنة عند سفح الجبل. ظهرت زخارف التيكوتيكو برؤوسها المكشرة من تحت الموج، ولكن الماء الصامت حمل معه قَشَّ الأسْقُف، كما حمل معه أجساد أصهاره. لم يبق إلا إطارات البيوت الهزيلة التي عاش فيها الخَوَنة.

وبعد الطوفان العظيم بمدةٍ، فكر توهاكي بأبويه اللذيْن اختطفهما قبل سنين عديدة البوناتوري،[11] وهم أناسٌ غريبون يبيتون على اليابسة ليلًا ولكنهم يندسّون تحت البحر قبل طلوع النهار خوفًا من الشمس. شعر بأن عليه أن يغادر موطنه ويبحث عنهم.

أخذ أخاه الأصغر كاريهي معه، وغادر منزله في قمة الجبل وبدأ بحثه. لم يكن أحدٌ يعرف أين يعيش البوناتوري. قال توهاكي لأخيه، «لا بد أن مبيتهم قريبٌ من شاطئ البحر، لأنهم لا يجرؤون على الابتعاد عن البحر. علينا أن نبحث عنهم بمحاذاة الشط».

سارا طريقًا طويلةً وناما عدة مراتٍ. وذاتَ يومٍ عبرا قمة جبلٍ فأشرفا على شطٍّ منحنٍ. كان منزلٌ هائلٌ ينتصب وحيدًا غيرَ بعيدٍ من الساحل. لم تكن هناك مبانٍ أخرى تحيط بهذا البيت المنعزل الذي كانت ساريته تنتصب فوق أشجار الغابة التي بجانبه.

هتف توهاكي، «إنه بيت البوناتوري! إني أعلم ذلك يقينًا لأننا حتى الآن لم نرَ بيتًا واحدًا يتسع للآلاف من مخلوقات البحر».

سار الأخوان بجرأةٍ بمحاذاة العشب الذي يحيط بالرمال، إذ كان الوقت منتصف النهار وكان اليوناتوري يختبئون في وديان الظلام تحت البحر. راح توهاكي يُنشد أنشودةً قديمةً وهما يقتربان من المنزل. ثم توقفا ليصغيا. وقريبًا من قمة المنزل سمعا خشخشةَ عظامٍ خافتةً. انتصب شعر توهاكي كأنه شعرُ كلبٍ، فقال لأخيه كاريهي، «إنها عظام أبينا. إنها تُخَشخِشُ فرحًا لمجيئنا. إن أبانا يعرف أن الثأرَ قريبٌ».

ردَّ كاريهي، «إنه بالفعل منزل مَناوا تاني. وها هي أمنا تقف عند الباب».

بكت العجوز لما عرفت ابنيها. عانقتهما، وحين فرغت من البكاء، قالت لهما، «يجب أن تعودا إلى موطنكما فورًا. لقد قتل أهلُ البحر أباكم؛ ولا أريد أن أضيِّع ولدَيَّ».

قال لها توهاكي بحزمٍ، «لن نعود ما لم نأخذ بثأر أبينا. لقد سمعنا عظامه تُخشخش فرحًا. ولن يثنينا عن مَأرَبِنا شيءٌ».

قالت له أمه بحزن، «لا طاقةَ لكما بهم، يا ولدَيَّ. اذهبا الآن قبل فوات الأوان».

نطق كاريهي قائلًا، «إننا عازمان على هذا الأمر، وعليك أن تُخبِّئينا في المنزل».

«لن ينفعكما هذا، يا ولدَيَّ، لأنهم سيرونكما حتى في الظلام».

قال كاريهي، «سنجعل أنفسنا غير مرئيَّيْنِ».

«إنهم يشتمّون رائحة البشر».

«هذا ما سنراه»، قال توهاكي فجأةً. «هذا ما عليكِ أن تفعليه، يا أمي».

حنت أمه رأسها موافقةً. ساعدت ابنيها على سد الثقوب والشقوق في جدران المنزل، وراقبتهما وهما يتسلقان ليختبئا في القش الذي يغطي السطح.

كانا قد اختبآ حين حلَّ الظلام ودسَّ أول الپونتاري رأسه في الباب، ونادى، «تاتاو، إني أشُّم رائحة البشر».

فقالت له، «هذا هراء. إذ لا يوجد أحدٌ هنا سوى تاتاو العجوز».

لم يقتنع الكشّاف، ولكن بينما كان يتشمم الجدران بدأ الپونتاري يتزاحمون على الشاطئ، وينفضون الماء عن أنفسهم، وينحشرون في المنزل. استلقوا على الأرض، واستلقى الكشاف معهم حين ضاعت رائحة البشر في الزحام.

مرت ساعاتُ الليلِ بطيئةً بينما كانت تاتاو تجلس في الظلام خارج الباب. وبين الحين والآخر، كان شيخٌ يتحرك في فراشه وينادي عليها، «تاتاو، تاتاو، يا أنتِ، هل بزغ الفجر؟»

ثم تقول له، «لا، لا، ما زال الظلام حالكًا؛ إنها ليلةٌ لا تتزحزح؛ لم يصبح الصباح بعد، فَعُد إلى نومك ونَم».

وما لبثت أصابع الفجر المتألقة أن راحت تنتشر على السماء الشرقية، والنجوم تَبْهتُ أمامها. كان توهاكي وكاريهي يقفان بجانب أمهما ويُصيخان السمع. نادى صوتٌ، «أنت يا تاتاو، ألم يبزغ الفجر بعد؟»



جمع الأخوان عظام أبيهما وأضرما النار في منزل اليوناتوري.

فأجابته العجوز، «لا، لا، ما زال الظلام حالكًا؛ إنها ليلةٌ لا تتزحزح؛ لم يصبح الصباح بعد، فَعُد إلى نومك ونَم».

انتشرت عباءة رانجي المضيئة من المشرق إلى المغرب وسطعت الشمس على مَناوا تاني. صاحت عدةُ أصواتٍ بنفادِ صبرٍ، «تاتاو، تاتاو، لا بد أن الفجر اقترب. ألم يطلع الضوء بعد؟»

وبإشارة من ابنيها، صاحت تاتاو، «أجل، لقد طلع الضوء!»

ثم فتحت الباب بينما وثب توهاكي وكاريهي إلى النافذة واخترقا جدران القصب فغمرت الشمسُ البيتَ بنورها. هب الپونتاري واقفين، ولكن أشعة الشمس صعقتهم من قبل أن يتزحزحوا من أماكنهم، فذابوا كما يذوب الضباب. لم يبق منهم أحد. لم ينجُ إلا كَناي، سمك السلمون، الذي راح يتقافز عبر الجدران المتكسرة وعَبَر الرمال إلى الماء، تمامًا كما يفعل إلى يومنا هذا حين يتسلق شلالات الأنهار.

جمع الأخوان عظام أبيهما بكل تبجيلٍ من شجرة السقف ولفّاها. أضرما النار في منزل الپونتاري الطويل وأخذا أمهما. وحين عبروا قمة الجبل التفتوا وراءهم ورأوا آخر الجمرات المحترقة تستقر بين أكوام الرماد. كان عمود الدخان الرفيع المتصاعد في الجو هو الشيء الوحيد المتبقي ليصنع قبر آلاف الپونتاري، البشر-الأسماك لِمَناوا تاني.

مرت السنون وصار توهاكي وحيدًا. كانت أمه وزوجته قد ذهبتا إلى رايْنْغا،[12] واتَّخذ ابنُه زوجةً. ولكن صيت توهاكي انتشر في الآفاق،

بل بلغ الأماكن السماوية. نظرت إحدى بنات الأرباب من موطنها في السماء، وكانت قد سمعت بأفعاله الجبارة، فرأت قوة أطرافه، والعضلاتِ التي تتماوج تحت جِلده، والوشمَ العميقَ، والنارَ التي تقدح في عينيه، وملامحه البارزة، ومِشْيَتَه، وطريقةَ حديثه التي لا تعرف الخوف.

هبطت من السماء السابعة وعاشت مع توهاكي. وبعد مدة، أنجبا بنتًا، بنتًا أمُّها خالدة، وأبوها فانٍ. عاشوا عيشةً هانئةً إلى أن جاء يومٌ قال فيه توهاكي، في لحظة طيشٍ، قولًا عن ابنته جرح زوجته السماوية. لم تكن مثل نساء الأرض. حضنت ابنتها وصعدت نحو السماء. أدرك توهاكي عواقب كلامه. كانت زوجته، هاپاي، قد صعدت ولم تعد في متناوله. استراحت لحظةً عند التيكوتيكو على جَمَلون السطح، ونظرت إلى زوجها نظرةَ أسىً وقالت، «لن أعودَ أبدًا».

صرخ توهاكي، «قولي لي قولًا أتذكرك به».

ظلت هاپاي صامتةً للحظةٍ، ثم قالت، «ستتبعني، يا توهاكي، وأنا أعلم ذلك. وهذه رسالتي إليك: حين تصعد مرتفعات السماء، حَذارِ من الشجرة المتسلقة التي تتمايل في الريح. اختر شجرةً جذرُها راسخٌ في الأرض. وداعًا».

كبر القمرُ ليلةً بعد ليلة، وتضاءل ليلةً بعد ليلة إلى أن صار خيطًا فضيًّا في السماء.

قال توهاكي لأخيه، «هيا يا كاريهي. هيّا نخرج معًا مرةً أخرى».

سأله كاريهي، «إلى أين سنذهب؟»

«في طريقٍ طويلةٍ، يا أخي. أنا ذاهبٌ لأبحث عن زوجتي وابنتي».

ضرب الأخوان في الأرض حتى شاهدا الأشجار المتسلقة تمتد مثل خيوطِ عنكبوتٍ هائلٍ بين السماء والأرض. أسرعا نحوها، وهناك كانت جدتُهما العجوز العمياء ماتاكِريپو تُمسك بالعرائش بيدها. تسلل توهاكي وكاريهي بهدوءٍ إلى مكان العجوز وراحا يراقبانها. كانت تتلمس الجذور بيدها الخالية وتعدها ببطء. «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، --» كان توهاكي قد أبعد الجذر العاشر وفي عينيه وميضٌ. غضَّنت تقطيبةٌ حيرى جبينَ العجوز. ظنت أنها أخطأت العَدَّ، فبدأت من جديدٍ، «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، --» هذه المرة كان كاريهي هو مَن أخذ الجذر.

دمدمت ماتاكِريپو شيئًا في نفسها وتحسست الجذور مرةً أخرى. «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، --» ظلت صامتةً للحظةٍ متفكرةً. لا بد أن شخصًا يسرق الجذور. بحركةٍ خاطفةٍ التقطت رُمحًا وهجمت هجمةً دائريةً واسعةً خليقةً بأن تفلق هامةَ رجلٍ لو أصابته. كان توهاكي وكاريهي يراقبانها مثل صقرين، وحين أزَّ الرمح من فوقهما انبطحا لكي تمر الضربة بسلام.

وضعت الجدة سلاحها وجلست متفكرةً. زحف توهاكي نحوها وصفعها مُداعبًا على وجهها. ارتعبت العجوز. أفلتتْ المتسلقةَ من يدها، ووضعت كلتا يديها، وراحت تبكي بصوت يثير الشفقة، «مَن



راحت مَتاكِريبو تَهُشُّ بعصاها بينما كان توهاكي وكاريهي ينبطحان.

هذا؟ مَن هناك؟»

صفعها توهاكي على عينيها هذه المرة، فاستردت بصرها من فورها. رمشت عيناها من الضوء الذي لم تألفاه، وراحت العجوز تُنعِم النظرَ في وجهي الرجلين أمامها. ثم أطلقتْ صرخةَ ترحيبٍ مُدويةً.

«هذا أنت حفيدي توهاكي، وأنت كاريهي».

عانقتهما كليهما. ولما فرغت من الترحيب بهما، سألتهما عن وجهتهما.

قال لها توهاكي، «إني أبحث عن زوجتي وابنتي».

«وأين هما؟»

«إنهما فوق، في مكانٍ ما في أرضِ السماء».

رمشت العجوز وسألت، «ما الذي جعلهما تذهبان إلى السماء، يا توهاكي؟»

«إن هاپاي كانت إلهةً، يا جدتي، وقد هبطت إلى الأرض وعاشت معي فترةً والآن قد رجعت. إن أيامي خاويةٌ من دون زوجتي وابنتي، وها قد جئت لأبحث عنهما».

«هناك سُلَّمُك إلى السماء»، قالت له جدَّتُه، وهي تُمسك بالمتسلقات ثانيةً. «هذه هي الطريق التي عليك أن تسلكها. لكن حَذارِ المعرِّشات التي تتمايل في الريح، وحين تتوسط بين السماء والأرض، يا حفيدي، إيّاك أن تنظر إلى الأسفل مخافةَ أن تَدوخ. دائمًا انظر نحو الأعلى».

كان كاريهي يتطلع إلى المتعرشات، ومن غير أن ينتظر ليسمع كلمات جدته، قفز وتمسك بإحداها؛ لكنها كانت مما تُطوِّح به الريح فوق الأرض. فما إن أطبق أصابعه على الساق الشبيهة بالحبل حتى طوَّح بها عاصفٌ من ريحٍ فقذف كاريهي قذفةً وارَتْه عن الأنظار. ضاق نَفَسُه حدَّ الاختناقِ وهو يرى الغاباتِ والبحارَ تعدو تحته على هيئة وميض يتناوب بين الأخضر والأزرق. وبعد هنيهةٍ هبَّت عاصفةٌ شديدةٌ أخرى وِجْهَتُها السماء. فسقط سقوطًا مفاجئًا مُغْثِيًا كاد يخلع يديه من جسده. انقذف نحو الأفق مرةً أخرى، ثم انقذف عائدًا مرة أخرى. وكان بإمكانه أن يرى توهاكي وماتاكِريپو من بعيدٍ. فجأةً كبر حجمهما وصاح به توهاكي، «اترك الآن». تابعت المتسلقة اندفاعها، فارتمى كاريهي وسقط عند قدمي أخيه.

كان توهاكي خائفًا على سلامة أخيه. ليس من السهل اقتحامُ حصنِ الآلهة. كان توهاكي يعلم في قلبه أن كاريهي ليس مؤهلًا لمواجهة مخاطر الرحلة الطويلة إلى السماوات.

فقال له بلطف، «عُدْ إلى أهلنا، يا كاريهي. عائلاتنا بحاجة إلى حماية. عُد إلى القرية قبل فوات الأوان، لعلّي لا أعود، ومن الأفضل أن يضيع زعيمٌ واحد بدلًا من اثنين».

أدرك كاريهي أن أخاه على حق. كانت نفسه تتوق لمغازلة تلك المغامرة المذهلة، ولكن توهاكي أدرى بما هو أصلح، فعاد حزينًا إلى القرية على قمة الرابية.

بعنايةٍ اختار توهاكي المتسلقةَ الراسخَ جذرُها في الأرض وأمسك

بساقها بيديه القويتين. ثم راح يصعد بثبات، وهو يتشبَّث بأصابع قدميه ويديه. ركَّز عينيه على المتسلقة التي صارت مثل خيطٍ رفيعٍ في السماء الساطعة يتوارى عن الأنظار. كان صوت جدته يأتيه، ثم راح يخفت أكثر فأكثر كلما صعد، لكنه كان يمدُّه بقوة جديدة. «تشبَّثْ، يا توهاكي، تشبَّثْ. دعْ يديْكَ تتشبَّثا». ثم ما لبث الصوت أن تلاشى، ولم يعد يُسمَع إلا أزيز المتسلقة في الهواء، وهمسٌ لا ينقطع للرياحِ، بناتِ تاوْهيري ماتيا. تاق لرؤية الأرض ليتأسّى بها، وربما لجدته مَتاكِريپو التي بدت مثل ذَرَّةٍ بعيدةٍ، لكنه واظب على النظر إلى الأعلى. كان الجو باردًا في الفضاء الخالي، لكنه أنشد الأنشوة التي تُمِدُّ يديه قوةً وجَسَدَه دفئًا.

ثم ما لبث أن وجد توهاكي نفسه في أرض السماء، ملقىً بين السرخس، متثاقل الأنفاس. ثم ما لبث أن وقف وتلفت حوله. كانت الأشجار متراصَّةً فلم يَرَ أحدًا، ولكنه كان يسمع وقعَ فأسٍ وبعض الأصوات. عندئذٍ تغير إلى هيئة شيخٍ نحيلٍ مُقوَّسِ الظهرِ ذي شعرٍ أشيبَ، ثم شق طريقه في الغابة.

جاء إلى حافة بقعةٍ مقطوعةِ الأشجار ووقف يراقب المشهد. كانت هناك مجموعة من البشر الآلهة تحيط بزورقٍ غيرِ مُنْتَهٍ. كانوا مشغولين بقطع بطن الزورق الطويل وصقله. كان هؤلاء إخوة زوجته السماوية هاپاي، فعرف توهاكي أنه بلغَ مُبتغى رحلته.

توقفوا عن العمل لينظروا إليه وهو مُقبلٌ عليهم. وصاح أحدهم، «انظروا إلى ذلك الشيخ. هيا بنا، ها قد حلَّ الليل أو يكاد. دعونا ننتهِ

الآن. سيحمل الشيخ أدواتنا».

ألقَوا بَلْطاتِهم وخاطبه أحدهم توهاكي قائلًا، «هيّا، أيها العبدُ، احْمِل بَلْطاتِنا والحقنا بأسرع ما تستطيع».

حمل توهاكي المعاول وتَبِعَ البشر الآلهة الثرثارين. راح يَعْرُجُ بين الظلال وسرعان ما تواروا عن الأنظار. عندئذ استدار وقفل راجعًا إلى الزورق. خلع معطفه، ثم أخذ مِنْحَتًا وراح يَنْحِتُ جوانبَ الخشبِ الخشنِ بطرفه الحاد. كان الخشب ينقشر على شكل رُقاقات ملتفة متغضنة بفعل الشفرة المصنوعة من الحجر الأخضر التي حوَّلت الخشب غير المستوي إلى سطحٍ صقيلٍ. مرَّر توهاكي شفرة المنْحَت عدةَ مراتٍ على الزند الخشبي الهائل، فتحول في دقائقَ معدودةٍ إلى هيكلٍ مكتملٍ بفضل أنامله البارعة.

وحين اقترب الشيخُ العاجزُ المقوَّسُ الظهرِ من وطأةِ بلطاته من القرية التي يعيش فيها إخوةُ هاپاي، التقى بامرأتين كانتا تجمعان الحطبَ للنار. ضحكت إحداهما وقالت، «هذا هو العبد الجديد الذي حدثونا عنه. فَلِم نحمل الحطب وعندنا عبدٌ يحمله عنا؟ هيا، أيها الشيخ، تعال إلى هنا».

ذهب إليهما توهاكي وانحنى لكي تضعا حزمةً من العيدان على ظهره. وهكذا جاء توهاكي، سيدُ المحاربين الذي لا مثيلَ له في أرض الأرض، إلى بيت زوجته، شيخًا محنيًّا وعبدًا بلا كرامة. سخرتا منه وهو يَعبُر ملتقى القرية. رأى زوجته وابنته لكنه لم تصدر منه أية إشارة. مشى نحوهما ثابتَ الخطوِ، وهو يَنوءُ بحمله.



كان على الأرض زورقٌ غيرُ مُنتهٍ وحوله تتحلّق ثلةٌ من الرجال–الآلهة.

صاح به أحدهم، «ضعِ الحطبَ هناك، أيها الوضيع»، لكن توهاكي لم يكترث له. ظل سائرًا نحو هاپاي التي كانت تتدفأ بقرب النار، ثم ألقى بالحطب قريبًا منها. ثم تَدارَكَ الأرضَ، ببطءٍ وحذرٍ كما يفعل شيخٌ كبير، ومدَّ يديه نحو اللهب.

صاح به شابٌّ، «أيها الأحمق، لقد جعلتَ نفسك مقدسًا بمجالسةِ هاپاي ذات الحسب والنسب».

لم يجبه توهاكي ولكن حدق في زوجته وطفلته من خلال ألسنة اللهب المتقافزة؛ لكنهما لم تنتبها للشيخ الجالس في ظُلمةِ بيتهما.

في اليوم التالي استيقظ توهاكي على صراخٍ يأمره، «انهض، أيها العبد، واحمِل الأدواتِ إلى الزورق».

اعتدل مثل شيخٍ ببطء ثم نهض. حمل المناحت وتَبِعَ البشر-الآلهة عبر الغابة إلى الزورق. وحين وصلوا الفسحةَ المقطوعةَ الأشجار، سمع توهاكي صرخةَ دهشتِهم، فتبسم في سره. لم ينتبهوا إليه حين ألقى بالأدوات على الأرض واستمع لهتافاتهم المتعجبة وهم يدورون حول الزورق شبه المكتمل، وينظرون إلى العمل الذي أُنجِز منذ مغادرتهم في الليلة السابقة.

وحين زحف الغسق نحو الفُسحة، غادر البشر-الآلهة عملهم ولم يُنجِزوا شيئًا يُذكَر يتناسبُ مع كدِّهم، فتبعهم توهاكي بالمناحِت. وحين تواروا عن الأنظار عاد مرةً أخرى بخطًى سريعةٍ، وراح ينحت ويصقل حتى كاد الزورق أن يكتمل.

في الصباح التالي زاد حديثهم ودهشتهم. وعند حلول الليل عاد

توهاكي إلى الفسحة ووضع اللمسات الأخيرة على مقدمة الزورق ومؤخرته. كان قد نزع قناعه، وحين بلغ العمود السامق للزخرفة الخشبية في مؤخرة الزورق، بدا كأنه إله. كانت عيونٌ حادةٌ تراقبه من بين الغياضِ، وهذه المرة كان أصهارُه قد اختبؤوا خلف الأشجار يرقبون مجيء العامل البارع الذي يُكمل عملهم. عادوا إلى القرية من غير أن ينطقوا بكلمةٍ واحدةٍ، وبحثوا عن أختهم هاپاي.

فقالوا لها، «أخبرينا، ما شكل زوجك؟ هل هو رجلٌ بكامل قُوَّته؟»

«نعم».

«طويلٌ ومعتدل مثل الكاوْري؟»

«نعم».

«وشعره أسود وعيناه مثل نجمتين؟»

«نعم».

«إذًا، توهاكي هو مَن أكمل زورقنا. تَرَقَّبي مَقْدَمه».

ثم ما لبث أن جاء الشيخُ إلى ملتقى القرية وأنزل المناحت من فوق ظهره. سار نحو هاپاي. نظرت إليه نظرةً متمعنةً. كان ظهر هذا الرجل مُقوَّسًا، ووجهه متغضِّنًا، وجسده مترهلًا.

سألته هاپاي، «من أنت؟»

تابع الشيخ مسيره من غير أن ينطق بكلمة.

ظل ماشيًا حتى وصل إلى ابنة هاپاي، ثم رفعها وضمها بقوة بين ذراعيه. وحين اعتدل ظهره، امتلأت أطرافه وتموجت العضلات

مرةً أخرى على ظهره. وحين التفت نحو هاپاي، صار وجهه شابًّا ووسيمًا، واتقَّدت جذوةُ الفرح في عينيه.

صاح البشر-الآلهة، «إنه توهاكي»، ولكن هاپاي طأطأت رأسها وبكت من فرطِ السعادة.

اتخذ توهاكي مكانه في المنزل مع زوجته في تلك الليلة. وحين نهضت الشمس، حطَّما جدار منزلهما وحملا طفلتهما الصغيرة عبر أرضٍ لم تطأْها قدمٌ من قبل، وعمَّداها. كان والدها، توهاكي الجسور، حاضرًا بين البشر-الآلهة. كان البرق والرعد ينفجران من الأرض تحت قدميه حين يسير.

وحين يومضُ البرقُ ويزأرُ الرعدُ في السماوات، يُصغي البشر ويتطلعون إلى السماء السامقة ويقول بعضهم لبعض، «هذا هو توهاكي يسير في السماوات».

7

رُوپِيه، الأخُ الحنون

ألقت هِيْنا أوري نفسَها في البحر حُزْنًا على زوجها الذي مَسَخَه المتهوِّرُ ماوي كلبًا. ظل المدُّ يتقاذف جثتها جيئةً وذهوبًا إلى أن لفظها أخيرًا على شاطئ رملي. وقد وجدها أخوان. من تحت أعشاب البحر المتشابكة النامية فوقها، كان بإمكانهما أن يريا أنها شابة وجميلة.

انتشلاها برفقٍ وحملاها إلى منزلهما. وضعاها بجانب النار ثم أزالا عنها الأعشاب التي التفَّت حولها. ثم ما لبثت أن دبَّت الحياةُ فيها نتيجة دفء النار، فاعتدلت ومدَّت يديها نحو اللهب. وبفعل النار اللطيفة اشتدَّ جِلدُها المتغضِّنُ وعاد اللونُ إلى وجهها ويديها. وحين انتعشت ذهب الشابان إلى زعيمهما تِينِيراو وقصَّا عليه خبرَ المرأةِ الشابةِ القادمةِ من البحرِ. جاء تِينِيراو على عَجَلٍ إلى بيتهما، وما إن رأى هِيْنا أوري حتى قال، «ستكون زوجتي». ثم أخذها لتعيشَ معه غيرَ آبهٍ باحتجاجاتها.

شَقِيَتْ هِيْنا أوري في منزلِ تِينِيراو. فهي ما زالت تحب زوجَها، وازداد أساها يومًا بعد يوم، إذ كان لدى تِينِيراو زوجتان أُخريان وكانتا تكرهانها. كانتا تُهينانها وتُعَيِّرانِها، بل تمادتا إلى حدٍّ ضربها وإضمار النية لقتلها. أَبَتْ هِيْنا أوري، التي كانت من نفس سُلالة ماوي، أن تُذعِن لهذه الإهانات، فنهضت ذاتَ يومٍ وراحت تَشْدو

بترتيلةٍ جبارةٍ تدعو بها الآلهة. وَجَمَت الطيورُ والحشراتُ حين تصاعدت أنشودتُها في جوِّ الصباحِ الباردِ. حتى أوراقُ الشجرِ كفَّت عن حفيفِها الأبدي، وشعرت زوجتا تِينِيراو بالدمِ يتجمد في عروقِهما. وحين انتهت الترنيمةُ تمايلتا وسقطتا هامِدتَيْن بلا حراكٍ على الأرض، وأقدامُهما شاخصةٌ نحو الأعلى.

لم ينتبه تِينِيراو لهما، بل عاد بِهِيْنا أوري إلى منزله وراح يحدق في جمالها، ولكن هِيْنا أوري قابلت تحديقَه بنظراتٍ لا تراه.

في مكانه البعيد، كان ماوي مُوا، أخو هِيْنا أوري، حزينًا. لقد بحث عنها في الأرض طولًا وعَرضًا، لكنه لم يجد من يَدُلُّه عليها. وبينما كان يأسى عليها، خطر له خاطرٌ، فقال متفكرًا، «إن الإله العظيم رِيْهوا الذي يعيش في السماء العاشرة هو جدِّي. عليَّ أن أقصده لعلَّه يُرشدني إلى مكانِ هِيْنا أوري».

كانت السماءُ العاشرةُ بعيدةً، وليس باستطاعةِ ماوي، بِكْرِ أبيه، أن يبلغها إلا إذا صار طائرًا يطير. وهكذا بقوة التعويذات السحرية والتراتيل تحوَّل إلى طائرِ حمامٍ، هو روپيه الرقيق، وجازَ طبقاتِ الجو الرقيقة بصدره. وبعد مدةٍ بلغ السماء الأولى وسأل أهلها إن كان بإمكانه أن يطير أعلى من ذلك. فصاحوا بغضبٍ لأن طيرًا تجرأ أن يفكر في اختراق السماوات التي خاطَ طِباقَها تاني، ولكن روپيه، بعد أن استراح من عناء طيرانه الطويل، طار نحو الأعلى ثانيةً، متخلصًا من الأيدي التي امتدت لتمسك به.

وأخيرًا بلغ السماء العليا التي يعيش فيها، رِيْهوا، ربُّ الخُلُق

الكريم. وما إن نظر روپيه إلى وجهه حتى أيقن أنه سيساعده. انحنى أمامه وقصَّ عليه خبرَ بحثه الطويل عن أخته. عانقه ريهوا، وأمر خَدَمَه أن يطهوا الطعام للمتجوِّل المُنْهَك. أحضر هؤلاء حوجلات فارغةً ووضعوها أمام ريهوا. وبينما كان روپيه ينظر مشدوهًا، حلَّ ريهوا شعرَه الطويلَ ونفضه فوق الحوجلات. وحين فعل ذلك تطايرت من شعره طيورٌ كثيرةٌ أمسك بها الخدم وطبخوها.

ولكن روپيه لم يكن راغبًا في أكل الطيور التي خرجت من شعر ريهوا المقدس، فرفض أن يأكل الطعامَ اللذيذَ، مع أن بعض الناس يزعمون أنه أكل من الطيور وأنه لهذا السبب بُحَّ صوتُه، وظل كذلك إلى يومنا هذا.

سأل روپيه ربَّ الخُلُقِ الكريم إن كان قد سمع ضوضاءَ العالم الأدنى، فأجاب ريهوا، «أجل، لقد سمعتُ ضجيجَ الأصواتِ المتواصلَ في الجزيرة المقدسة (موتو تاپو)، فلعلَّكَ مُلاقٍ أختَك هُنالِكَ».

لم يتوانَ روپيه لحظةً واحدةً، بل طار نازلًا السماواتِ العشرَ إلى موتو تاپو، وهناك حطَّ على حافةِ نافذةٍ وراقب الناسَ لعلَّه يجد أخته بينهم. وكانت هِيْنا أوري بالفعل في الجزيرة المقدسة. وكانت في ذلك اليوم قد وضعت مولودَها الصغيرَ وكانت تُرضعه في ظُلَّةِ بيتٍ قريبٍ. وما لبثت أن سمعت أُناسًا يتراكضون ويصرخون، «هِيْنا، هِيْنا! تعالي وانظري طائرَ الحمامِ الذي سحر محاربينا».

نظرت من خلال الباب ورأت طائرَ حمامٍ جاثمًا على حافةِ نافذةٍ

منزلٍ. كان الناس يقذفونه بالحجارة ويحاولون طعنَه بالحرابِ. وكاد شابٌّ يُعلِّق أُنشوطةً من الكتّان حول رقبته، ولكن الطائر كان يقفز من جانبٍ إلى جانبٍ محاذرًا، فلا حجرٌ ولا حربةٌ أصابته، ولا أُنشوطةٌ تمكَّنت منه. حملت هِيْنا أوري مولودَها وسارت لترى المشهدَ الغريبَ.

رأى روپيه أُختَه قادمةً فعرفها على الفور، وراح يرقص ويغني:

ها هي هِيْنا
ها هي هِيْنا
التي ضاعت
في موتو تاپو.
إنها حقًّا
ها هُنا.

عندئذٍ علمت هِينا أوري أن الطائرَ هو أخوها، ماوي مُوا. فأسرعت إليه وهي تغني:

ها هو روپيه
ها هو روپيه
أخي الأكبر.
إنه حقًّا
ها هُنا.

رأى روپيه أن أختَه شقيةٌ في الجزيرةِ المقدسةِ، فطار معها إلى السماءِ العاشرةِ، موطن رِيْهوا. وهناك عاشا بسعادةٍ أعوامًا طويلةً، وصانَ روپيه منزل ريهوا من الغبار والوسخ. هذه هي قصةُ روپيه طائرِ الحمام. قد لا نرى ريشَه الجميلَ في غالب الأحيان، لكن بِوُسْعِنا أن نتذكره حين نرى الغُروبَ، لأن روپيه، بوصفِه قَيِّمًا على بيتِ ريهوا، نصب عمودًا في السماء العاشرة سقط عليه آكِلُ الرجال كاي تانْغاتا. ودمُه هو الذي يتناثر في السماء ويصبغها بلونٍ أحمرَ زاهٍ عند غروبِ الشمسِ.

8

راتا المتَجوِّل

هذه قصةُ راتا، حفيدِ توهاكي وزوجتِه الأرضية. حين صار راتا رجلًا ذهب في رحلةٍ طويلةٍ إلى موطنِ ماتوكو الذي كان قد قتل أباه قبل سنينَ طويلةٍ. كان راتا يتدرب طيلةَ حياتِه على فنونِ الحربِ استعدادًا لليومِ الذي يثأر فيه لمقتلِ أبيه.

أخذ معه مجموعة من المحاربين الشباب، وحين وصلوا إلى بيت ماتوكو ردد راتا بعض التعويذات لتحميهم من السحر. لكن ماتوكو لم يكن في البيت، ولم تكن هناك إلا عجوزٌ ساعدتهم في تنفيذ خططهم.

قالت لهم، «أضرِموا نارًا وسيعود ماتوكو على عجلٍ ليرى ما الذي احترق. والآن علِّقوا أُنشوطةً فوق الباب، وما إن يدخل حتى تسقط على كتفيه وتشده من خصره. كما أنه من غير المجدي إمساكه من رقبته لأنها قوية. أما خاصرته فليس فيها قوة تُذكر».

ما لبث راتا ومحاربوه أن أضرموا نارًا، وسرعان ما صارت الأرضُ ترتجُّ ارتجاجًا. لقد عاد ماتوكو إلى بيته على جناح السرعة. اختبأ المحاربون على جانبي المدخل، وكانوا ينتظرون دخوله. وعلى مسافة عدة خطوات من الباب، توقف ماتوكو فجأةً، وراح يتشمم بأنفه الطويل.

صاح، «آه، إني أَشُمُّ رائحة بشرٍ، بشرٍ أحياء».

فقالت له العجوز، «لا، لا يوجد أحد. أسْرِع بالدخول».

ولكن ماتوكو ارتاب.

«إني أشم رائحة لحم طري. إن خطرًا يلوح في الأفق».

صاحت العجوز، «لا، لا. إنك تشم رائحة اللحم الذي تحمله على ظهرك ليس إلا».

وهكذا دخل ماتوكو. سقطت الأنشوطة على كتفيه بخفةٍ، وحين أجفل راجعًا شدَّ المحاربون الحبل. وبنترةٍ واحدة انشد الحبل، وراح ماتوكو يتأرجح فوق الأرض.

اندفع راتا نحوه وهو يصيح، «آها، لقد قتلتَ أبي، والآن جاء دورُك أنت».

ولكن ماتوكو ضحك فقط.

صاح قائلًا، «لن تستطيع قتلي». هجم عليه بالمضرب، وقطع إحدى ذراعيه، ثم الأخرى. ضحك ماتوكو ثانيةً. جلجل صوته أعلى من ذي قبل في حدود البيت الضيقة. رفع راتا مضربه للمرة الثالثة، وبضربة نظيفة واحدة فصل رأس ماتوكو.

بينما كان المحاربون المنتصرون يفكون حبال الكتان، فجأةً لعلع صوت ماتوكو مرةً أخرى. صارت ساقاه نحيفتين، وتحول الشعر الطويل الذي كان يغطي جسده إلى ريش، ثم تضاءل حجمه فتحرر منسلًا من الحبال. لقد تحول إلى طائرٍ واق. تجاوز الرجال المشدوهين راكضًا، ثم ابتلعته ظلمة الليل. لم يعد بإمكانهم أن يروه، ولكن كانوا

يسمعون صوته المدوي من بعيدٍ في المستنقع.

وهو لا يزال يَئِزُّ في المستنقعات الوحيدة، لأن ماتوكو هو اسم واق المستنقعات.

ظهرت العجوز ثانيةً حين هرب الواق إلى المستنقع، وعلى محيَّاها ابتسامةٌ دَرْداء. فقالت ببساطة، «هذا جيد. الآن بإمكاني أن أستريح».

توجَّه إليها راتا وسألها، «أخبريني، أين عظام أبي واهي إيرُوا؟»

«إنها ليست هنا».

«أين هي؟»

أمعنت العجوز النظر في وجهه وقالت، «لا أحد يعرف».

«من أخذها؟»

قالت بشيءٍ من الغموض، «قومٌ غرباء. يعيشون بعيدًا».

عاد راتا إلى موطنه مع مقاتليه، ومكث أيامًا في منزله متفكرًا. وحين خرج، دبَّت حياة جديدة في خطوته. لقد فكر في خطة. لو استطاع أن يبني زورقًا وينفحه قوةً وحكمةً، لَحَمَله إلى المكان الذي أُخِذت إليه عظام أبيه.

فتش عن شجرة طويلة مستقيمة، وحين وجد ما يسرُّه، أعْمَل فأسه فيها. راح حرف الحجر الأخضر يأكل الخشب القاسي أكلًا، وما هي إلا هُنَيْهةٌ حتى هوت الشجرة مُدَوِّيةً على أرض الغابة. قطع راتا رأسها الأخضر.

وحين حلَّ الليل، عاد إلى قريته غير المسَوَّرة. وفي أثناء نومه،



رفعت الطيورُ والحشراتُ الشجرةَ وأعادت الأغصان

ورقاقات الخشب إلى أماكنها.

حدثت أشياء غريبة في الغابة. لقد أغضب أبناءَ تاني قطعُ هذه الشجرة، التي هي مفخرة الغابة. وأبناء تاني مثل رمال الشاطئ عددًا، لا يستطيع البشر إحصاءهم. لا أحد يعلم عددهم إلا تاني. كانت الغابة تضج بهم، ريرو وكوكو، كورياكو وتُوِي، هِيهي وكاكا، كوكاكو وهُويا، پوپوكوتي ومُوْهْوا، وغيرهم كثيرون، وكان معهم كل أُسرة الحشرات التي تتراكض على لحاء الأشجار، وتلك التي تدُبُّ على الأرض، وذوات الأجنحة. احتشدت هذه جميعًا وسحبت عملاق الغابة. تحركت الشجرة بصعوبةٍ على سريرها العُشبي، وضج الجو بحفيف الأجنحة. ورويدًا رويدًا نهضت الشجرة واستقامت وانتصبت في مكانها. حملت أصغر الحشرات رقائق الخشب وحُبيباته وأعادتها إلى مكانها.

طِيري معًا، يا رقائق ويا قُشور
تلاصقي، تلاصقي معًا
تماسَكي، تماسكي معًا
وأنت يا شجرة، انهضي منتصبةً
مرةً، مرةً أخرى.

كانت تلك أُنشودة آلاف الحشرات والأطيار.

وحين عاد راتا صباحًا ليبدأ بنحت الزورق، استوقفه ما رأى، ففرك عينيه. للحظةٍ ظن أنه أخطأ وجهته، ولكنه لم يصدق هذا لأنه

عارفٌ بدروب الغابة. وحين تلفت حوله، رأى فروة الغابة التحتية مُكسرة الأغصان والأوراق، بل رأى أيضًا الأُخدود الذي حفره جذعُ الشجرة في الأرض حفرًا لا تُخطئه عينٌ؛ لكن ها هي الشجرة تنتصب في مكانها منذ بداية حياتها التي تساوي حياة الإنسان عدةَ أضعاف.

رتَّل راتا ترتيلةً يتحصن بها من الأرواح قبل أن يتناول فأسه ويقطع الشجرة من جديد. راح يجتهد في عمله، وما لبث أن تهاوت الشجرة مقطوعةَ الرأس، وراح مِنْحته يذرع جذعها المستقيم جيئةً وذهوبًا، وينزع منها قُشارةً ملتفةً كقشارة جده في أرض السماء قبل سنين عديدة. وقبل حلول الليل برزت خطوط الزورق الرشيقة من الخشب المنحوت، ولم يتبق إلا تجويف الهيكل.

ولكن حين عاد في صباح اليوم التالي، لم يبق من عمل يومه السابق أثرٌ. ففي الليلة المقمرة الماضية جاهد أبناء تاني حتى انتصبت الشجرة بكبرياء وهي تلوِّح بأغصانها فوق الأشجار الصغرى في الغابة.

للمرة الثالثة قطع راتا ساق الشجرة وللمرة الثالثة تهاوت على الأرض. ومن غير أن يكلف راتا نفسه عناء العمل أكثر من ذلك، حمل فأسه وقصد القرية. وحين توارت الشجرة عن الأنظار، انحرف عن الدرب وتسلل عائدًا بصمتٍ عبر نباتات السرخس المتشابكة إلى مكانٍ يستطيع أن يرى منه الشجرة وهي ممدَّدة.

وتناهت إلى سمعه الأنشودةُ خفيضةَ النبر، يتردد صداها.

طِيري معًا، يا رقائق ويا قُشور
تلاصقي، تلاصقي معًا
تماسَكي، تماسكي معًا
وأنت يا شجرة، انهضي منتصبةً
مرةً، مرةً أخرى.

كانت تشبه صوت الغابة في الصيف، كأنها لحنٌ نابضٌ يجعل الهواء نفسه يَطْرَبُ. كان يرى وميض الأجنحة. لم يجتمع قط هذا العدد الهائل من طيور الغابة في مكان واحد وزمان واحد. كان الوِيْكا والكِيْوِي يحومان حول الشجرة المقطوعة، والحمامة ذات الذيل المروحي ترفرف فوقها بقلقٍ، والرورو والكاكا والكَكاپو وآلاف الطيور الأخرى تسحبها وتشدها. اقترب أكثر ورأى حشراتٍ دائبةً رائحةً غاديةً، وتتهاوى فوق بعضها من شدة توقها للمساعدة. اشتدت نبرة الغناء نابضةً مثل ناقوس القرية الهائل المصنوع من الحجر الأخضر.

أحس راتا بقوة تلك التعويذة المرتلة بألسنةٍ كثيرة. وبدت قدماه كأنهما ترتفعان عن الأرض. انتصبت الشجرةُ قائمةً أمام عينيه المشدوهتين، محجوبةً تحت ظُلَّةٍ من الأطيار. انتصبت معتدلةً، واستقر رأسُ جذعها المبريِّ، الذي براهُ بفأسه، بخفةٍ على أصل الشجرة. طارت الحشراتُ أسرابًا أسرابًا من الأرض إلى الأعلى لكي تُعيد أصغرَ الشظايا والكِسَرِ إلى مكانها المناسب.

صاح راتا، وقد قفز مندفعًا نحو الشجرة، «آها، إذًا أنتم مَن أفسَد عملي».

تجمعت حوله الطيور وقالت، «بل أنت، يا راتا، من تجرأ وقطع إله الغابات. نحن حُماةُ بستان تاني».

عندئذٍ خجل راتا من مخاصمة أحباب تاني الصغار هؤلاء.

فسألهم، «ما العمل؟ لقد تاق قلبي لزورقٍ متينٍ رشيق لَعَلّي أُكْرِمُ أسلافي وأُعيدُ عظامَ أبي إلى مَرْقِدِها».

ثم تعالى نشيد حُماة الغابة من جديد. «عُدْ إلى مكانك، يا راتا. نحن مَن سيصنع لك زورقَك».

انصرف راتا وترك بناء الزورق العظيم لأهل الغابة الصغار. وخلال يومٍ صُنِع رِيْوارو، ومعناه الفرحةُ الكبرى.

سُحِب رِيْوارو عبر الغابة على مَزالق من الشجيرات الصغيرة وأُسْلِم للأمواج. كان يتهادى بكبرياء وأُبَّهة، وكانت أجنابُه المتينة تتسع لمئةٍ وأربعين رجلًا. اتخذ مقاتلو راتا أمكنتهم، وراحوا يُجَدِّفون حتى صار رِيْوارو بالكاد يُلامس الموج مثل نَوْرَسٍ على الماء، ويرتفع أمام الأمواج القادمة.

امتد الزَّبَدُ وراءهم، مستقيمًا وعريضًا، ثم ما لبثوا أن اقتربوا من الشاطئ الذي يعيش عنده الپوناتوري، الأعداء الذين أخذوا عظام واهي إِيْرُوا.

وعند حلول الظلام توجه راتا إلى الشاطئ سباحةً، تاركًا الزورق طافيًا بعيدًا عن الشاطئ. كانت على الشاطئ أنوارٌ قريبةٌ من الغابة،

حيث كانت نيران البوناتوري تَضْطَرِم. اختبأ راتا خلف شُجيرات الكتان وراح يراقب. أحس راتا بقوةٍ سحريةٍ تجتاح عظامه. كان حول النيران سحرٌ عظيمٌ. انتصب شعر رقبته حين سمع كهنةَ البوناتوري يدقّون عظام أبيه ببعضٍ لتساعدهم في صنائعهم.

رتلوا تعاويذهم الجبارة وعَرْبَدَ السحرُ العظيم على ضوء النار. مكث راتا بلا حراكٍ وراح يتعلم عن ظهرِ قلبٍ كلماتِ التعاويذ. وحين استوثق أنها لن تُنسى، هبَّ واقفًا ووثب بينهم ومضربه بيده. أُخِذ الكهنة على حين غِرَّة. لم يفصح لهم سحرهم عن العدو المتربِّص قريبًا منهم. لم تخيب عظامُ واهي إِيْرُوا ظن ابنه. فما هي إلا لحظةٌ أو اثنتان، بمقدار ما تلتهم ألسنةُ اللهبِ عودًا وتسقطُ كِسرةٌ متفحِّمةٌ بين الرماد، حتى هَمَدَ الكهنةُ بلا حراك.

جمع راتا عظام أبيه على ضوء النيران الآفلة وعاد بسرعة إلى زورقه. وعند طلوع الشمس تهادى رِيوارو راسيًا على الشاطئ أمام قرية راتا.

حين أتى البوناتوري إلى التُواهو[13] وجدوا الكهنة جثثًا هامدةً في أشعة شمس الصباح، وقد اختفت عظام واهي إِيْرُوا.

فصاحوا، «إنه راتا، راتا ابن واهي إِيْرُوا، من فعل هذا الأمر». ثم اجتمعوا فورًا، وجهزوا زوارقهم بألف من قواتهم، واقتفوا أثر رِيوارو حتى وصلوا القرية.

نشبتُ هناك معركة حامية الوطيس، وسقط ستون من رجال راتا في هجوم البوناتوري. كان يحيط بكل رجل حوالي عشرة من

البوناتوري، فانقلبت المعركة ضد المدافعين.

سمع راتا خشخشةً في القرية. كان لدى عظام واهي إِيْرُوا رسالةٌ إليه. فجأةً تذكَّر كلمات التعويذة التي سمعها من الكهنة ليلةَ لقوا حتفهم. رتلها بجسارةٍ ونهض محاربوه الموتى على أقدامهم، وعاد دم الحياة يسري في عروقهم من جديد. تخاذل البوناتوري لما لاقوا سلاح أعدائهم الأموات. تلفتوا حولهم ثم ولَّوا على أعقابهم هاربين إلى زوارقهم، لكن الأوان قد فات. فمن قوات البوناتوري الألف لم يَعُد منهم المخَبِّر.

تلكم هي قصة راتا الذي هب لنجدته أهل الغابة بسبب شجاعته. لقد طلعت الشمس الساطعة على حافة البحر مراتٍ بلا عدد منذ أن ساعدوا راتا في مَسعاه، لكنهم لم يُبدلوا تبديلًا. فَهم يحسنون معاملة مَن يحب بستان تاني، لكن إن طُرِد أحبابُ إله الغابة، اكتسحتْ رياحُ تاوْهيري الأرض وانهمرت دموع السماء لتجرف التربة الخصبة فلا تعودُ عظامُ أُمِّنا الأرضِ قادرةً على إطعام أي شيء حي.

فتذكَّروا، يا أبناء آوْتِيارُوا!

9

أُوِي نوكو وبنتُ الضباب

كان أُوِي نوكو يسير في الدرب الضيق بين الأشجار، ويحدق في عمود الضباب الذي يحوم فوق البحيرة. كان في الماضي كثيرًا ما يرى الضباب يُكَلْكِل فوق الماء لكنه لم يَرَ قط عمودًا من الضباب ينتصب مثل جذع شجرة طويلة. حث خُطاه يُغالِبه فُضوله. توقف عند حافة الغابة الملاصقة للشاطئ. كانت هناك امرأتان شابتان تستحمّان في الماء الراكد. وكان بإمكانه أن يرى أنهما جميلتان على الرغم من حُجُب الضباب التي كانت تلفهما مثل سحابةٍ. وبعيدًا منهما كان الجو صافيًا، لكن كلما اقترَبْتَ من الشاطئ اكتسى كل شيء بلون فضي في السحابة التي لا تتزحزح. كانت هاتان المرأتان هما هينا پوكوهو رانجي، بنت الضباب، وأختها هينا واي، بنت المطر الضبابي، وكانتا قد هبطتا من السماء لتستحمّا في ماء البحيرة الصافي.

وحين نظر إليهما أُوِي نوكو أحس بإحساسٍ غريبٍ يجتاحه. بدا كأن قوةً جبارةً تجتذبه إليهما. نظرتا إليه بأعينٍ صافيةٍ، حائرتين غيرَ وَجِلَتين. جثا أُوي نوكو عند حافة الماء وقال لبنت الضباب، «أنا أُوي نوكو. قولي لي اسمَك».

«أنا هينا پوكوهو رانجي، بنت السماء. أنا بنت الضباب».

مدَّ أوي نوكو ذراعيه وقال، «تعالي وعيشي معي في عالم النور هنا.



مدَّ أُوي نوكو يديه لبنت الضباب.

لم أر امرأةً قط بجمالك. أنا قوي وسأعتني بك».

ردت بنت الضباب، «لا أستطيع أن أغادر موطني. بل إن أختي في هذه اللحظة تنتظر عودتي».

قال لها متوسلًا، «آه، ولكنك ستحبين هذا العالم. إنه ليس باردًا أو خاليًا مثل الفضاء العُلوي. فهنا لدينا نارٌ ودفءٌ، حيث يسطع نور الشمس في الصيف من خلال أوراق الأشجار، وفي الشتاء تتأجج النار في الموقد. هناك أطيارٌ تشدو، وهنا رجالٌ ونساءٌ يمرحون. فتَعالي معي، يا ابنةَ الضباب».

تقدمت نحوه خطوةً، ثم تراجعت وقالت، «لن تكون سعيدًا معي».

فقال لها أُوي نوكو بكل بساطة، «سأحبُّك دائمًا».

«ولكنك لا تفهمني. أنا من الفضاء الخارجي، وحتى لو أتيت لأقضي الليل معك، فعليَّ أن أعود إلى موطني في السماء حالما يلوح الضياء».

كان أُوي نوكو عنيدًا، فقال، «ما زلت أُريدك. لا بأس من أن أبقى وحيدًا في النهار، لذلك أرجوك تعالي معي».

ابتسمت بنتُ الضباب وقالت، «سآتي معك».

لم يَرَ أحدٌ أُوي نوكو وهو يندسُّ وعروسه داخل المنزل حين تألق ضوء النار في الظلام الزاحف. لم يسمع أحدٌ كلمات الحب وهو يحتضن عروسه بين ذراعيه. وفي الصباح، وقبل أن تنهض الشمس فوق التلال، التقت بنت الضباب بأختها، وبدا كأنهما تندمجان مثل

سحابتين واندفعتا نحو الأعلى قبل أن تخترقهما أشعة الشمس.

كانت بنت الضباب تغادر زوجها كل صباح، ثم تعود إليه كل مساءٍ حين يتسلل الظلام إلى ساحة القرية. وحين استطالت أيامُ الصيف، راحت نساءُ القرية يسخرن من أُوي نوكو.

«تقول إن لديك عروسًا في بيتك، يا أُوي نوكو، فأين هذه العروس التي لم نَرَها؟ لعلَّها زندٌ من الخشب أو حُزمةٌ من أعواد الكتان فحسب. لن نُصدِّقك أو نُصدِّق أنها جميلة إلا إذا رأيناها».

لم يكن بين غروب الشمس وشروقها إلا وقتٌ قصيرٌ. كان أوي نوكو خلال ساعات النهار الطويلة يشتاق إلى ضحكات ابنة الضباب ويتوق لسماع صوتها وهي تشدو، ولرؤيتها تأخذ مكانها في رقصة البُوْي.[14]

وأخيرًا لم يعد يطيق غياب زوجته. وذات يوم سدَّ النوافذَ بحصائر، وشقوقَ الخشب بالطحالب. وحين أُغلِقَ البابُ صار البيت مظلمًا مثل ليلةٍ لا قمرَ فيها وسماؤها مُغطّاةٌ بالسحاب.

في تلك الليلة دخلت بنت الضباب المنزل بلا ارتياب. مضت ساعات الظلام، وحين زهت السماءُ الشرقية بتباشير النور، نادت بنتُ المطر أختَها.

«هيّا بنا، يا هينا، علينا أن نصعد من الأرض».

«أنا قادمة»، قالت بنت الضباب وبحثت في الظلام عن معطفها.

سألها أُوي نوكو، «ماذا تفعلين؟»

«حان وقت ذهابي».

فقال لها وهو يتظاهر بأنه نصف نائم، «هُراء. لماذا تُكدِّرين عليَّ نومي؟ انظري حولك، لا يوجد ضوء».

«لكن لا بد أن الصباح قد اقترب، وقد نادتني أختي».

«هينا مخطئة. لعلها رأت ضوء القمر أو ضوء النجوم. لا يوجد ضوء في أي مكان. عودي إلى نومك».

استلقت هينا پوكوهو رانجي، وقالت، «لا بد أنها أخطأت. لكن هذا أمرٌ غريبٌ لا أفهمه. فهي لم تخطئ من قبل».

ظلت بنت المطر الضبابي تنادي واختلط صوتها بصوت الطيور المستيقظة، ولكن أُوي نوكو أصر على أنها مخطئة. وسرعان ما نفد صبرُ بنت المطر الضبابي، فغادرت أختَها وزوجَها وراح صوتها يتناهى إليهما من بعيدٍ ويتلاشى رويدًا رويدًا».

قالت بنتُ الضباب فجأةً وهي تستيقظ تمامًا، «أنا متأكدةٌ أن هناك خطأً ما. استمع، إني أسمع طيور الغابة تُغرِّد».

أنصتا. كانت هينا واي قد غادرت، ولكن شَدْوَ الأطيار كان عاليًا جدًّا، وهناك بعض الأصوات في الساحة. ركضت هينا پوكوهو رانجي نحو الباب، ناسيةً معطفها. فتحت البابَ وغمر الضياءُ المنزلَ. توقفت لحظةً، وصدرت من الناس شَهْقَةُ ذهولٍ، إذ كانت بنت الضباب رشيقةَ القوام وجميلةً لم يُرَ مثلُ حُسنِها العجيب من قبل. لم يبدُ أنها من أهل الأرض.

تبعها أُوي نوكو إلى الخارج، وابتسم حين حسده الناس على زوجته. وحين عبر البابَ، قفزت هِينا على سطح المنزل وتسلقت

سارية الكورنيش. كان شعرُها الطويل يغطي جسدها. خرِست هتافات الناس حين راحت تشدو. كانت أُغنيتها أُغنيةً حزينةً، مليئةً بالألم والشوق والحب لأُوني نوكو. عندئذٍ حدث شيءٌ غريبٌ.

تهادت سحابةٌ صغيرةٌ من سماءٍ صافيةٍ، ثم راحت تلتف حولها، طيَّةً بعد طيَّةٍ، حتى غابت في ثنايا السحابة. فقط صوتُها كان يُسمَع آتيًا من الغيمة الصغيرة. ثم توقفت الأغنية وساد الصمت. أقلعت السحابة مبتعدةً عن السطح. راحت تُحلِّق أعلى فأعلى حتى بدا كأنها ذابت في أشعة الشمس الساطعة التي غمرت سارية الكورنيش في وهجٍ من الضياء الذهبي.

كان أُوي نوكو مَكلومَ الفؤاد. لم يعد قادرًا على مواجهة عيون أصدقائه المشفِقة. صار بيتُه لا يعرف الدفء ولا المرح. وراح ينتظر ابنةَ الضباب، ليلةً بعد ليلةٍ، لكنها لم تعد أبدًا.

وذاتَ يومٍ غادر منزله وانطلق في رحلةٍ طويلةٍ يبحث عن زوجته. مرَّ بمغامراتٍ عديدة، وجازَ بلادًا غريبةً لكن لم يستطع أحدٌ أن يُخْبره أين هي هينا پوكوهو رانجي.

استمر بحثُه سنةً بعد سنةٍ، فشاخ وانحنى ظهرُه وفقد أسنانَه، وأخيرًا مات وحيدًا كسيرَ الخاطر في بلادٍ بعيدةٍ.

لقد دفع ثمن طيشه وكبريائه، فأشفق عليه أربابُ الفضاء البعيدون. ثم رفعوا جسده العجوز وحوَّلوه إلى قوسِ قُزَحٍ متعددِ الألوان ووضعوه في السماء حيث يراه الجميع.

لا تزال هينا پوكوهو رانجي تصعد حين تأتي الشمسُ فوق التلال

وتدفِّئ الأرض الرطبة، بينما يطوِّق أُوي نوكو، قوسُ قزح الساطع، زوجتَه الجميلة بوشاحٍ زاهيِ الألوان.

10

تِيني راو والحوت

قبل أن تأخذ هِيْنا أوري ابنها توهورو هورو إلى سماء رِهْوا، عمل أبوه تيني راو ترتيباتٍ ليعمِّده كاهنٌ مشهورٌ من قريةٍ بعيدة. أرسل زورقه ليجلب الكاهن كاي من أجل حفلة التعميد.

وبعد أداء الطقوس والتراتيل التي ستجعل من الرضيع محاربًا مِقدامًا جسورًا في يومٍ من الأيام، سار تيني راو وكاي معًا على الشاطئ. وحين بلغا الصخور في النهاية، توقف تيني راو وصاح بصوتٍ عالٍ، «تُوْتُوْن وِي!» التفت كاي حوله مندهشًا لأنه لم يرَ أحدًا. كان الشاطئ مهجورًا، ولم توجد على الشاطئ آثارُ أقدامٍ سوى تلك التي خلَّفتها أقدامهما على الرمال. تطلَّع باتجاه اليابسة فلم يَرَ أثرًا للحياة بين أشجار المانوكا. ثم تطلَّع نحو المحيط لعلَّ هناك صيادًا في زورقه، لكن الزوارق كانت جميعها راسيةً على الشاطئ عند القرية.

ثم رأى، ويا لدهشته، كتلةً هائلةً لا شكلَ لها تنهض من الماء. وكانت هذه الكتلة حوتًا. انحدر الماءُ عن ظهره مثل شلالٍ، ثم انطلقت في الهواء نافورتا بخارٍ ساخنٍ راح يتهادى بتراخٍ مع النسيم. لم يَرَ كاي حوتًا حيًّا بهذا القُرب من قبل. ولدهشته ظل الحوت يقترب حتى لامس جسمُه الصخرةَ التي يقف عليها الرجلان.

اقتطع تيني راو قطعةِ لحمٍ من جانب الوحش، فقلَّب الحوتُ عينيه

الصغيرتين نحو صاحبه، ثم تنهَّد واندس عائدًا إلى أعماق البحر.

كان كاي بالكاد يصدق عينيه، وقد رأى تيني راو دهشته وضحك.

فسأله، «ألم تسمع قط عن حوتي الأليف؟ هذا تُوْتُوْن وِي، وهو صديقي. وهو يسافر بي في البحر بسرعةٍ لا يدانيها أيُّ زورق. وهو يُكِنُّ لي مودةً عظيمةً».

لم يعرف كاي ماذا يقول.

«لكن لماذا اقتطعتَ من لحمه؟»

«هذا ما ستراه حين نُنْزله من موقد الطبخ وتغرُز أسنانَك فيه».

في تلك الليلة ظل كاي يتقلب على فراشه في منزل الغرباء.[15] لقد أكل من لحم الحوت بشهيةٍ عظيمةٍ، فلم يستطع النوم. وهو يتقلب مستيقظًا، طَمِعَ في حوتِ تيني راو.

وحين حان موعدُ عودةِ كاي إلى قريته، أعدَّ له تيني راو زورقًا، ولكن كاي لم يكن راضيًا.

سأله كاي، «قل لي، يا تيني راو، هل أنت راضٍ عن التراتيل التي قرأتَها على ابنك؟»

فأجابه تيني راو، «بكل تأكيد».

«وهل تشعر بأنها ستجعل منه محاربًا عظيمًا؟»

«أنا واثقٌ من هذا الأمر، أيضًا، يا صديقي».

«لعله كان بإمكان كاهن قبيلتكم أن يقوم بهذا الأمرِ خيرَ قيامٍ».

«لا، لا»، عجَّل تيني راو بإجابته لأنه لم يشأ أن يُغضب كاي. «لا،

لا يستطيع فعل هذا سوى كاي الجبار الذي أنعمت عليه الآلهة».

«إذن، أود أن تُسدي إليَّ معروفًا».

«تكلَّم».

«أريدك أن تنادي تُوْتُوْن وِي وتأمره أن يُعيدني إلى موطني».

استاء تيني راو من اقتراح كاي، فقال له، «ولكن الزورق أكثر راحةً لك. وهو أنسبُ لكاهنٍ عظيمٍ، وأنت لا تعرف ركوب الحوت».

اسودَّ وجهُ كاي، فسأل، «وهل تظن أنني لا أملك الشجاعة أو الفطنة؟ هل تتصور أنه لا طاقة لي على توجيه حوتِك؟ حذارِ مما تقول، يا تيني راو».

كان الزعيم يعلم أنه ليس من السلامة إغضابُ كاهنٍ، فسارع إلى مُراضاته. «لقد كنت أمازحك، ليس إلا. سيأخذك إلى قريتك، لكن تذكر هذا الأمر، يا كاي. حين تقترب من الشاطئ، سيرتجف الحوت، وتلك علامةٌ على أنه، طلبًا للسلامة، لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا. فحين يعطيك هذه الإشارة، اقفز بسرعةٍ عن جانبه الأيمن وتوجَّه إلى الشاطئ سباحةً».

قال كاي بنفادِ صبرٍ، «أعلم ذلك».

نزل تيني راو إلى الشاطئ ورفع يديه إلى فمه، وصاح، «تُوْتُوْن وِي!» وما هي إلا دقائق حتى جاء الحوت مقتربًا من الشاطئ.

قفز كاي على ظهره بعجلةٍ، وبدأت رحلته العجيبة التي لم تستغرق وقتًا طويلًا لأن تُوْتُوْن وِي كان يسبح سباحةً سريعةً. وما

لبث أن اعتاد كاي على ركوب الحوت.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى اقتربا من قريته. ارتجف الحوتُ ليُعْلِمَ كاي أنه حان وقت نزوله، ولكن كاي تجاهل الأمر. ارتجف تُوْتُوْن وِي مرةً أخرى، ولكن كاي ظل جاثمًا بثقله على ظهره، وهو يردد التراتيل، حتى غاص تُوْتُوْن وِي في المياه الضحلة. راح يصارع، ولكن كاي ظل يضغط بثقله عليه وهو يغوص في الرمال الطرية. ملأت الحبَيْبات الصغيرة خيشومه، فهاجَ تُوْتُوْن وِي وماجَ، ثم همد بلا حراكٍ.

كان في قرية كاي ابتهاجٌ عظيمٌ في تلك الليلة. كان أهل القرية جميعًا موجودين، وكان البخار يتصاعد من القُدور التي يُطبَخ فيها لحم تُوْتُوْن وِي.

كان تيني راو، في الجزيرة المقدسة البعيدة، يترقب عبثًا عودة حوته. في الماضي كانت صيحةُ «تُوْتُوْن وِي!» دائمًا تأتيه بحوته الأليف. أما الليلة فقد دوّى صوته فوق الماء وضاع في بَعيد المسافات. وفجأةً رفع رأسه وانتفخ منخاراه في أنسام المساء. ومن تيهي أومانونو البعيدة، التي يعيش فيها كاي وقومه، هبَّت رائحة الطعام اللذيذ.

خاطب تيني راو قومه بينما كان القمر يرسم خطًا فضيًّا فوق البحر. «لقد سرق كاي حوتي. فمن يذهب منكم معي لردِّ الإهانة؟»

هبَّ المحاربون واقفين بتوقٍ على أقدامهم، وصاحوا صيحةَ رجلٍ واحدٍ، «نحن سنذهب معك، يا تيني راو!»

قال صوتٌ خافت، «لا، أنا سأذهب، أنا هينا تي إِيوايْوا».[16]



هاجَ تُوتُون وِي وماجَ، ثم همد بلا حراكٍ.

نظر الناس إليها مشدوهين. «سأذهب أنا، ومعي نساءٌ أُخريات من قبيلتنا. لدى كاي محاربون كُثُر. دعوا النساء يذهبن. سنأتيك به، يا تيني راو، من غير إراقةٍ للدماء، وستنتقم منه لإهانتك».

كان منزل كاي يضج بالضحك. كانت هينا تي إِيوايْوا ونساءٌ أُخريات من قبيلة تيني راو هناك. كُن يرتحلن من قريةٍ إلى أخرى يُسلّين الناس بالأغاني والرقص. لم يكن أحدٌ يعلم مَن يكنَّ. وقد اجتمع الآن حولهن رجالٌ ونساءٌ من قبيلة كاي لرؤيتهن.

وهن يرقصن، كانت هينا تي إِيوايْوا ورفيقاتها يتطلعن حولهن بنظرات ثاقبة. كان عدوهن كاي كامنًا في مكانٍ ما في هذا المنزل. سيعرفنه حين يضحك لأن أسنانه مكسورة وغير مستوية.

ضج المنزل بضحك الناس بينما كانت النساء يلهون. إلا رجلٌ واحدٌ كان متجهِّم الوجه، صامتًا، مُطْبِقَ الشفتين. أجَّلت النساء أفضل عروضهن حتى النهاية. حتى الرجل الصامت أُجْبِر على الضحك. وحين رفع رأسه وفتح فمه، صار بإمكان الجميع أن يروا الأسنان القبيحة المكسَّرة. إنه كاي.

حين خمدت النارُ وهدأ كلُ شيءٍ في المنزل، غنت النساءُ أغنيةً سحريةً رقيقةً جعلت المضيفين ينامون نومًا عميقًا. تسللن إلى البابِ واصطففن في صفين طويلين. حملن كاي برفقٍ، ولففنه بفراشه، ثم حملنه إلى الشاطئ ووضعنه في الزورق. ظل كاي يغط في نومه المسحور طيلة رحلة عودتهن إلى موتوتاپو، الجزيرة المحرَّمة. كان الفجر قد أنار السماء لِتوِّه حين حملن حمولتهن الحية وأخذنه إلى منزل

تيني راو، حيث مدَّدْنَهُ على فراشه مرةً أخرى.

لم يستيقظ كاي إلا في وضح النهار. سار تيني راو إلى بيته، بينما أهل قبيلته يهتفون، «ها قد جاء تيني راو؛ إنه تيني راو!»

كانت غشاوة النوم لا تزال تُخَيِّم على عقلِ كاي. لم يكن يدري شيئًا مما جرى في الليل، وظن نفسه أنه لا يزال في منزله. توجَّه تيني راو إلى الباب وقال، «تحياتي لك، يا كاي».

فسأله كاي، «ولماذا جئت إلى منزلي؟»

قال له تيني راو، «آه، بل لماذا جئت أنت إلى منزل تيني راو؟»

«ماذا تقصد؟ هذا بيتي!»

«انظر حولك، يا كاي».

تلفت كاي حوله. بدا البيت مختلفًا. كان نمطُ القصبِ على الجدران مختلفًا. والأعمدة المنحوتة مختلفة. مدَّ بصره خارج الباب، متجاوزًا تيني راو، فلم ير إلا وجوهًا غريبةً مكشرةً لا تحمل له مودةً.

عندئذ أدرك الأمر، فحنى رأسه.

وأُخذ بثأرِ تُوتُون وي.

11

الرأس الخشبي

اسمعوا قصة الرأس الخشبي السحري للجبل المقدس.

كان پواراتا ساحرًا جبارًا وعنده رأس خشبي يحدق به فوق أرجاء البحر بعينين لا تُبصران. كانت هذه الصورة هي موطن أرواح الكاهن الشريرة. كان الجبل المقدس يخشاه الجميع، وكان الرجال في كل أنحاء تي إيكا آماوي يتحدثون بنبراتٍ خافتةٍ حين يُذكَر الرأسُ الخشبي. كان المرور بالقرب من الجبل المقدس يعني الموت، إذ يبدو أن پواراتا كان يستطيع أن يتحسس بأنفه وجودَ الغرباء في بلاده. وعندها يهمس للرأس الخشبي، فتصدر من روحه الشريرة صرخةٌ رهيبةٌ. كان صدى الصرخة يتردد في الغابة والسهول ولا يستطيع كائنٌ حيٌّ أن يتحمل سماع تلك الصرخة.

مرت السنون وأصبحت الأرض المحيطة بالجبل مقفرةً ساكنةً، حيث لا توجد طيورٌ في الغابة، والمسافر الجسور الذي يغامر بالاقتراب سيرى العظامَ المبيضَّة لمن سمع صوت الرأس ومات من سماعه.

تناهت أخبار هذا السحر الخبيث إلى أسماع هاكا واو، وهو كاهن جبار تكره روحه الشر. كان أحيانًا يسلتقي مستيقظًا في الليل بينما نَعيقُ البوم يذكره بالصراخ الخبيث الآتي من قرية پواراتا. بدا له



كانت العظام تتناثر كالثلج بين الأشجار.

حينها أنه سيتوجب عليه ذات يومٍ أن يتقاتل مع تلك القوى الشريرة.

وذات ليلةٍ دعا إليه الأرواحَ وراح يغطُّ في نومٍ مسحور. وتراءى له في منامه أن روحه تقف أمامه. وبينما هو يراقبها راحت تكبر وتكبر حتى لامس رأسُها السحابَ. وحين استيقظ هاكا واو شعر بثقةٍ تامةٍ إذ أدرك أن روحَه جبارةٌ وأنها قادرةٌ على دحر رأس پواراتا الخشبي.

وبلا ترددٍ توجه إلى الجبل المقدس مع صديق. كانا يسافران سريعًا في البلاد، ولم يتوقفا إلا لتناول الطعام الذي جلباه. وإذا استوقفهما أحد ودعاهما للأكل، قال له هاكا واو، «إنا على عجلةٍ من أمرنا، ومهمتنا ملحة. لقد أكلنا للتو». وما لبثا أن وصلا إلى وايْتارا. خاف صاحبُ هاكا واو لأنه معروف أن الرأس الخشبي يستطيع أن يقتل حتى من هذه المسافة.

قال هاكا واو، «لا تخف»، وراح يرتل أنشودةً أدخلت السرور إلى قلب صديقه.

ثم وصلا إلى تي ويتا.

قال صاحب هاكا واو، «أنا خائف. أستطيع أن أسمع دقات قلبي. انظر، هذه عظامٌ بيضاء بين الأشجار».

فقال له هاكا واو بازدراء، «لم يَحِن وقت الخوف بعد».

وحين وصلا وايْما توكو، حتى هاكا واو سار حذِرًا لأن العظام كانت متراكمة مثل الثلج بين الأشجار.

رتَّل تعاويذه، وواصل الرجلان مسيرهما وهما ينقلان خطاهما بحذرٍ لأنه لا أحد يعلم متى يأتيه الموت بَياتًا. سارا على الدرب بتُؤدةٍ

وصعدا تلةً منخفضةً. على رأس التلة انبطحا وتطلّعا من خلال نباتات السرخس. كان الجبل المقدس أمامهما مباشرةً، والقرية على قمته. شاهدا أناسًا يتحركون خلف الأسيجة والحراسَ بين غادٍ ورائحٍ، لكن لم يشعر أحدٌ بالمسافرَيْن اللذين كانا يستطلعان الأرض.

لا توجد عظامٌ بين نباتات السرخس التي تمتد على طرفي الوادي، فرفعا رأسيهما نحو القرية التي بدت كأنها نابتةٌ في الجبل. لم يقترب أحدٌ قطُّ من الجبل المقدس ونجا بجلده.

قال صاحب هاكا واو، «لم أعد خائفًا الآن. الآن بوسعي أن أرى أن هؤلاء رجالٌ مثلنا وأن بإمكاننا أن نقاتلهم».

فقال له هاكا واو محذرًا، «بل علينا أن نحذر الآن. إن أرواح يواراتا الشريرة تحتشد حولنا أسرابًا أسرابًا وإن كنا لا نراها. التزم الصمتَ لأن عليَّ أن أدعو أرواحي أنا. لن ترى شيئًا، وعليك ألاَ تتكلم».

بدت الدهشة على الرجل لأن هاكا واو كان يحدق أمامه بعينين لا تبصران. كان الناس لا يزالون يجوبون المكان حول الحصْن. كان دخان نيران الطبخ يتلوّى في الهواء الساكن. وكان الحرّاس لا يزالون مرابطين في محارسهم. صدرت همهمةٌ من شفتي هاكا واو وبدا أنه يصدر أوامر. كانت عيناه تُبصران لأنه كان بوسعه أن يرى أرواح يواراتا الشريرة تحتشد بكثافةٍ وراء الأسيجة. أما أرواحه هو فقد تراصفت وراءه كالرجال المقاتلين.

قال لبعض الأرواح، «اهبطوا بطَن الوادي وتصدوا لهم».

اندفعوا إلى بطن الوادي مثل موجةٍ وراحوا يتسلقون التلة باتجاه القرية. وما لبث المهاجمون أن رُدّوا على أعقابهم. راح بعضهم يهبط سفح التلة راكضًا، ثم تبعهم الآخرون حتى تراجع الجميع تراجعًا تامًّا. تواثبت أرواح پواراتا هنا وهناك في حَنَقٍ مكتومٍ. لم يستطيعوا أن يقاوموا رؤية أعدائهم يفرون أمامهم، فتقاطروا عبر الأسيجة واندفعوا يطاردونهم. توجهوا إلى كهوف الوادي. لم يبق في القرية أحدٌ.

كانت أرواح هاكا واو تختبئ بين نباتات السرخس فتجاوزتهم أرواح پْواراتا. وما لبثوا أن التفتوا إلى الوراء فإذا بزمرةٍ أخرى من أرواح هاكا واو آتية من فوق كتف النتوء الصخري خلفهم وتصعد باتجاه القرية. لقد خدعهم المهاجمون، فاندفعوا إلى التلة ثانيةً، لكن ما إن أداروا ظهورهم حتى وثبت عليهم الأرواح المختبئة بين السرخس وقتلتهم. لم يصل إلى القرية منهم إلا بضعة نَفَرٍ، حيث فتكت بهم أسلحة أعدائهم الذين كانوا قد احتشدوا هناك.

قال هاكا واو مرتعدًا، «آها، لقد انتهى الأمر. لقد هُزموا».

نظر إليه صاحبه بدهشة وقال، «كيف تقول إنهم هُزموا؟ لم يحدث شيء. لم يرنا حتى الحراس. لا شيء تغير».

ردَّ عليه هاكا واو، «لقد فرغ پواراتا. لقد أصبح پواراتا زورقًا فارغًا. لقد حمل ذات مرةٍ أرواحًا شريرةً وأرسلهم لتنفيذ مآربه. واليوم خرجوا بأمرٍ منه، لكنهم هلكوا جميعًا، وصار پواراتا فارغًا. هيّا نتقدمْ».

انتصبا واقفَيْن، وأطلق الحراس صيحة الإنذار في الحال. ذُهل هؤلاء لمرأى أحياءٍ بهذا القرب من قريتهم. توقعوا أن يهلك المسافران مع كل خطوةٍ يخطوانها، ولكنهما ظلا يتقدمان».

نادى الحراس، «پواراتا! پواراتا! هناك غريبان يتقدمان!»

لم تعدْ فيهم إرادةٌ أو قدرةٌ على القتال، كانوا جميعًا مثل العجائز لأن أرواح پواراتا هي التي تحارب عنهم.

شعر پواراتا بخوائه، فهُرِع إلى الرأس الخشبي وصاح، «هناك غريبان قادمان! محاربان جبّاران!» إلا أن الرأس الخشبي فقد قدرته. فبدلًا من الصرخة التي كانت تنطلق من شفتيه فتحيل المسافرين إلى أحجارٍ صماءَ على مسافة أميالٍ عديدةٍ في تي ويتا وحتى في واي تارا، لم يصدر منه إلا نحيبٌ هزيلٌ كنحيبِ طفلٍ رضيعٍ.

وحين كاد المحاربان يقتربان من القرية، قال هاكا واو لصاحبه، «سِر على هذا الدرب واعبُر البوابة إلى القرية. أما أنا فسأُظهِر قوتي بالقفز من فوق السياج».

وبينما كان يتسلق السياج الخشبي صاح الناس غاضبين، «انزل وادخل من البوابة كما يفعل صاحبك».

لم يكترث هاكا واو، فقفز نازلًا من السياج ودخل الأماكن المقدسة في القرية. كان الرأس الخشبي صامتًا. لقد فقد قوته، وصار كتلةً مزخرفةً من الخشب ليس إلا.

راقب پواراتا الكاهن من تحت حاجبين منخفضين، لكنه لم يجرؤ على التفوه بكلمة. وما لبث هاكا واو وصاحبه أن استلقيا واستراحا

احتقارًا لسَحَرة الجبل المقدس ورأسهم الخشبي.

لم يجرؤ الناس على لمسهما لأنهم شاهدوا سحرًا أقوى من سحرهم.

توارى پواراتا عن الأنظار تمامًا. وما لبثا أن سمعاه ينادي بعض جماعته فابتسم هاكا واو ابتسامةً متجهمةً.

وحين نالا قسطًا من الراحة، وقف هاكا واو ونادى صديقه للمجيء معه. جاءهما بعض الناس وتوسلوا إليهما أن يأكلا قبل أن يغادرا. وهبَّت من سلال الطعام الكَتّانية روائحُ شهيةٌ.

فأجاب هاكا واو، «لقد أكلنا قبل قليلٍ. لسنا جائعَيْن».

ظلوا يلحون عليه ليأكل، وهم يبتسمون ويتظاهرون بأنهم يريدون مصلحته.

قال لهم هاكا واو بصرامةٍ، «ما كان يجب أن تستمعوا لأوامر پواراتا. لقد كان مليئًا بالأرواح الشريرة. لقد ارتُكِب ظلمٌ عظيمٌ هنا. لهذا السبب أتينا، لكي لا تعصف صرخةُ الرأس الخشبي بأدمغة الرجال وتقتلهم بعد اليوم. لقد أفرغت پواراتا من الشر، لكنني الآن أرى بعضًا منه قد عاد. فلو أكلنا هذا الطعام، لَما عُدناء سالمين. آو، للأسف، أنتم من سيموت».

ثم ضرب باب البيت الذي كان يستريح فيه وخرج عبر البوابة مع صاحبه.

لم يلتفتا وراءهما إلى أن تجاوزا الوادي وبلغا حافة الجبل حيث كَمَنا خلال معركة الأرواح.

كان دخان نيران الطبخ هو الشيء الوحيد الذي يتحرك. كان

الرأس الخشبي صامتًا، ومات پواراتا وكل جماعته. ومنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا، صار الناس يمرون بالجبل المقدس بلا خوفٍ من الصرخة الآتية من شفتين خشبيتين وتخترق أنسجة الدماغ.

12

پونغا وپوهي هُوْيا

كانت الحرب متواصلةً بين قبيلة تايْ نُوِي القاطنين على جبل مونْغو هاو (جبل إيدن) وبين سكان أُوهيتو على ميناء مانو كاو. ادَّعت جماعة أوهيتو أن مصائد القِرْش في پوپونغا لهم، بينما ادّعت جماعة مونغا هاو أن تلك البقعة المفضلة مُلْكٌ لهم. وهذا أدى إلى نشوب الصراعات، وقُتِل كثيرون، ولكن بما أنهم جميعًا من قبيلة تايْ نْوي، فقد قَلِق بعض الشيوخ، فتصالحوا. وحين ذهب أحدهم للصيد، عادت الخصومة من جديد.

وخلال فترةٍ للسلم، ذهب سكان مونْغو هاو في زيارةٍ إلى أصدقائهم سكان أُوهيتو. وكان بينهم فتاةٌ جميلةٌ تُدعى پوهي هُوْيا، وكان بين زعماء أُوهيتو الصغار محاربٌ شابٌّ اسمُه پونغا. وقع هذا في غرام پوهي هُويا حالما رآها، لكنه لم يكن الوحيد من الزعماء الشباب الذين لاحظوا حسناءَ مونْغو هاو.

وبعد ذلك بمدةٍ، زار أهلُ أُوهيتو أصدقاءهم في مونْغو هاو. أعدَّ الشباب الهدايا للفتيات، فجمعوا فاكهة الصنوبر البني الناضجة ليصنعوا منها الزيت الحلو، وأعشابًا وحشائشَ عطريةً. كان معظمهم عندهم إخوةٌ وأخواتٌ يساعدونهم، أما پونغا فقد كان وحيدًا. سأل أمه كيف يحصل على الزيت العطري، فأعدت له شيئًا

منه هي وصديقاتها.

وأخيرًا جاء اليوم الذي تمكن فيه شبابُ أُوهيتو من زيارة مونْغو هاو والمشاركة في الرقص والألعاب. اجتمع في الساحة أناسٌ كثيرون، ووقف الراقصون باستعدادٍ في صفوفهم. ابتدأ أولًا شبابُ مونغو هاو، وكانوا يخبطون الأرض بأقدامٍ ثابتةٍ. وكانت پوهي هُويا تراقب وتستعد لأخذ دورها. وفي اللحظة المناسبة اندفعت بعينين محمْلِقتين ولسانٍ بارزٍ، ووجهُها وجسدُها يَتَلَوَّيان ترحيبًا بالزائرين. كاد قلبُ پونغا أن يخنقه من شدةِ خفقانِه وهو يشاهدها، لكنه لم يقل شيئًا لأصدقائه الذين أَسَرَهم جميعًا جمالُ الفتاة.

وحين أدى أهل أُوهيتو رقصتهم، كان پونغا هو قائدهم. ولما انتهى الرقص، عاد پونغا مع بقية الشباب إلى المضافة، لكنه لم يستطع النوم. ظل يتقلَّب على جانبيه بقلقٍ، ثم خرج خارج المضافة يتبعُهُ عبدُه، وجلسا معًا في الظلام.

قال له العبد، «لعلَّك مرهَقٌ. لقد أنهكتَ نفسَك في الرقص. ينام صيادو سمك الرَّنْكة، ويستيقظ صيادو الأنقَليس».

أجابه پونغا، «هذه ليست بلادي. أنا أفكر في أمورٍ أخرى».

اقترب منه العبدُ وهمس قائلًا، «إن إدراك قداسة القرية متروكٌ للعظماء في جماعتنا».

نظر إليه پونغا نظرةً متفحصةً وقال، «هل تقصد پوهي هُويا؟»

«أجل. ألم أر كيف كانت أعين الجميع تتوهج وتتلألأ، و بالأخص عينيك، حين كانت پوهي هُويا ترقص أمامنا؟»

«أنت محقٌّ، يا صاحبي. هيا بنا إلى بلادنا. لقد وقع زعماؤنا في غرام هذه السيدة، وإن أخذتها لنفسي، قتلوني».

جلس السيدُ وعبدُه طويلًا يتفكران. وأخيرًا همس العبدُ لسيده بشأن خطة تتعلق بصاحبة الحسب والنسب ابنةِ مونغو هاو، فالتمعت عينا پونغا.

في اليوم التالي اجتمعت كلتا القبيلتين وراحوا يتحدثون عن مآثر أسلافهم. وحين خبت النيران، انصرف الشيوخ إلى بيوتهم، لكن پونغا ظل ملازمًا مكانَه. وحين نام الجميعُ، نادى عبدَه ليأتِيَهُ بماءٍ. كان نداؤه مسموعًا، فسمعتْ أمُّ پوهي هُويا طلبه.

فقالت لابنتها، «أيتها البنت، هل أنت صمّاء؟ ألا تسمعين الضيفَ ينادي عبدَه؟ اذهبي وأحضري له الماء».

قالت الفتاة، «حين تكون أرواحُ الليلِ الشريرةُ كثيفةً كثافةَ الحشائش، فإني أخاف». لكنها أخذت حَوْجَلةً وخرجت. كان پونغا يتطلع من الباب فرأى الفتاة من بعيدٍ.

قال پونغا وخرج مسرعًا، «عليَّ أن أجد هذا العبدَ العنيدَ، لأني أكاد أهلك عطشًا». رأى النور المنبعث من مشعل پوهي هُويا، وسمع صوتها وهي تغني لتتشجَّع وتطرد الأرواح. لحق بها عند النبع وقال، «صحيحٌ أنني ظمآن، ولكنه ظمأُ القلبِ. إن الظمأ بداخلي، وها أنا آتٍ إليك لترويه». وحينها أدرك الشاب والفتاة أن كلًّا منهما وهب قلبه للآخر، وأن قبيلتيهما لن تسمحا لهما بإشهار هذا الحب.

استعد الزوار للعودة إلى ديارهم. وقبل أن تشرق الشمس أرسل

پونغا عبده إلى أُوني هونغا ليقطع أربطة الجوانب العُلوية في زوارق مونغو هاو ولينزل جميع زوارق أُوهيتو إلى الماء ويتركها عائمةً.

وحين انتهى الزوار من إفطارهم، استأذنوا بالرحيل. تبادل الناس هدايا السلام، ورافق شبابُ قرية مونغو هاو أصدقاءهم في المرحلة الأولى من رحلتهم. ذهبت پوهي هُويا معهم، لكن عندما رآها أبوها، صاح بها، «عودي، أيتها البنت، عودي! إنك ترتكبين حماقةً بذهابك بعيدًا. هيا عودوا جميعًا». رجع رفاقها حالًا، لكن پوهي هُويا بدأت تركض، برفقٍ في البداية، ثم أسرع فأسرع إلى أن وصلت السهل. لحقت بپونغا، فتماسكا بالأيدي وركضا مثل ريشٍ في مهبِّ الريح أو مثل بطِّ الغابات وقد نجا من مصيدة. ركض وراءهما أشرافُ مونغو هاو.

وصل پونغا وپوهي هُويا إلى الزوارق وأبحرا مبتعدَيْنِ عن المرفأ. لم يكن رجال مونغو هاو بعيدين عنهما، لكنهم حين أمسكوا بالزوارق تفككت الجوانب العُلوية وقُذِف الساحبون في كل اتجاه. ولما رأوا أن زوارهم قد هربوا، وقف بعض رجال مونغو هاو على الشاطئ وقالوا، «امضوا في سبيلكم، امضوا في سبيلكم! الشمس تشرق وتغيب ولكننا نبقى!»

وصل الزورق الذي يُقِل پونغا وپوهي هُويا إلى القرية عند أُوهيتو. ولمّا رأوا فتاةَ مونغو هاو الشهيرة، جاء مَن ظلوا في ديارهم لتحيتها، ولكن رُبّان الزورق حذرهم من الخطر الداهم.

ثم قال، «إن پونغا أجرم بحقنا جُرمًا عظيمًا. لقد أثِم قلبُه بحقنا.

لقد اختطف حسناء مونغو هاو، وسينتقم منا أقرباؤنا. فمن كان شجاعًا، فليكُن شجاعًا، لأننا إن تخاذلنا سننقرض مثل المُوا».

نهض زعيم أُوهيتو وقال، «عُدْ بالفتاة إلى أهلها. لستُ راغبًا في خرق اتفاق السلام من أجل صبيٍّ أحمق».

وثبت پوهي هُويا واقفةً على قدميها ولوَّحت بيدها للناس على الشاطئ. خلعت أحد أثوابها الخارجية ورمته عند قدمي پونغا، ووقفت أمامهم بثوبها الكتاني الداخلي الأبيض الجميل، وكان مُزنَّرًا بنطاقٍ من حشيش كاريتو العطري. ثم خلعته عن كتفيها ولفَّته على خصرها. مدَّت ذراعيها باتجاه الناس وقالت لهم، «انظروا إلي. إنكم تخطئون في وضع اللوم على پونغا. لقد جئت إلى هنا بمحض إرادتي، والخطأ خطؤكم. انظروا إلى ميزة الشاب پونغا. لماذا لم تُبقوه في دياركم أو تمنعوه من المجيء إلى قريتي؟ لو تركتم أصحابه يأتون من دونه، لكُنت الآن في ساحة قريتنا. الحقُّ عليكم أنتم - أنتم الذين سمحتم لمهجة قلبي أن يأتي إليَّ».

أذابت كلماتُها الجليدَ عن قلبِ الزعيمِ وقلوبِ كثيرين من قومِهِ، فاستقبلوها عند الشاطئ كما يليق بضيفٍ مُكرَم.

قالوا، «لقد حلَّ بيننا طائرُ الوَقواق. وأغنيته هي 'تألَّقي يا دنيا' لكن ما لم نأخذ حِذْرنا، فالموتُ مصيرُنا».

في النقاش الذي أثاره وقواقُ مونغو هاو المتألِّق، هناك من رحبَّ بهذه الفتاة بكل سرورٍ، وهناك من خَشيَ انتقامَ أبناءِ قبيلتها. فنصحوا بأن تُعاد وأن يُضحّى بپونغا من أجلَ وقاحته. تحدثت پوهي هُويا

ثانيةً بدعوةٍ من شيخ القبيلة.

«يجب ألا يُحمَّل پونغا مسؤوليةَ هذا الخطأ. فالخطأ خطؤكم لأنكم سمحتم له بالمجيء إلى قرية أبي. أَمَا وقد رأيتُه بفضلكم، فإنني قد اصطفيتُه لنفسي. هل أنا أول امرأةٍ طارت إلى حبيبها المصطفى؟ وعلى الرغم من أنني امرأةٌ، فلو أتى المحاربون الذين تتحدثون عنهم إلى هنا لَلاقيتُهم بأمارات التحدي، حتى لو اضطررنا أنا وپونغا لملاقاتهم لوحدنا وأنتم قاعدون بلا حراكٍ. ماذا أفعل؟ أعود؟ لا، أبدًا. على الأقل أستطيع أن أسافر أنا وپونغا إلى عالم الأرواح».

وقبل أن يذهبوا للنوم، قال الرجال، «إن زعيمنا محقٌّ في قوله. إن السيدة تحب پونغا. وهذا لا بأس به. دعونا نساعدْهما. دعونا نكُن شجعانًا».

شُدِّدت الحراسة، وما لبث أن شوهد زورقٌ قادمًا محمَّلًا بالرجال. تجمع كبار المقاتلين خارج القرية. اقترب الزورق أكثر، فطالب الأشرافُ أن تُعاد پوهي هُويا إليهم. قوبِل مطلبُهم بكلمات التحدي، وقالت پوهي هُويا لأهلها إنه لا شيء يمكنه أن يثنيها عن حبيبها. بل طلبت منهم، إن كانوا يحبونها، أن يأتوا إلى وليمة زفافها. لم يُعطَ جوابٌ، وغادر الزورق بصمت.

في مونغو هاو احتدم الجدال ودام طوال الليل. كان بعض الناس غاضبين ويريدون تدميرَ أصحابهم في أُوهيتو، وقتلَ پونغا وپوهي هُويا. وحين بهتت السماءُ بأشعة الفجر الأولى، لخص كبيرُ الكهنةِ مشاعرَ معظمِ الناسِ.

فقال، «لقد دعتنا پوهي هُويا إلى وليمة زواجها. فهل أصبحنا نكره نكهة سمك القرش على بطاطا الصيف الحلوة؟ علينا أن نرسل إلى پوهي هُويا وأصحابها أنه في اليوم الثالث بعد اكتمال القمر سنأتي إلى أُوهيتو لنلبّي دعوتها».

لم توافق أم پوهي هُويا. قالت لنساء القرية، «هذا يومنا. إلى أُوهيتو! إلى أُوهيتو! لا مكان للرجال في هذا الأمر». لبَّت نداءها حوالي ستين امرأةً، واصطففن كالمحاربين. ذهبن إلى أونِي هونغا، وأنزلن القوارب إلى الماء، ورُحن يجدفن حتى وصلن إلى أُوهيتو. نادت أم پوهي هُويا أهل القرية، «احملوا أسلحتكم، فقد جئنا لحربكم».

كانت نساء مونغو هاو قد جدَّفن كالرجال، وكانت ثيابهن ملفوفةً حول خُصورهن، وقد غرزن الريش في شعرهن. لذلك لا عجب أن خُدِع أهلُ أُوهيتو. توجَّه پونغا وپوهي هُويا إلى جُرْفٍ يطل على الشاطئ. عرفت الفتاة أمها وصاحباتها.

فقالت، «كل المجدفات نساء، ولكن قد يكون هناك رجالٌ يتربَّصون في جوف الزورق. لن أُؤخذ. فأنا أُفضل أن أقفز من هذا الجرف وأموت».

نادت أم پوهي هُويا بصوتٍ عالٍ، «اخرجوا، يا رجال أُوهيتو. لماذا سرقتم ابنتي؟ ما الذي أخذته منكم لكي تسرقوا القلادة من صدري؟ هيا اخرجوا لنتقاتل».

ظل الناسُ صامتين. وكانت پوهي هُويا هي من قبلت التحدي.

فقالت، «إن قُتلتُ، فبإمكانكن أن تأخذن جثتي، لكن إن انتصرت على مُتزعمتكن، فيجب عليكن العودة إلى القرية من أجل الجنازة. لن أعود معكن إلا جثةً هامدةً».

خلعت بعض النساء ثيابهن الخارجية، ووثبن في الماء، ورحن يسبحن نحو الشاطئ. ذهبن إلى أسفل الجرف حيث نزل پونغا وپوهي هُويا لملاقاتهن. حاول الفتى أن يكبح جماحها وأن يقنعها بالهرب معه طلبًا لنجاتها. ولكنها رفضت. لفَّت ثوبها حول خصرها، وتقدمت وهي تمسك بمضربها استعدادًا للقتال. نهضت إحدى الفتيات لملاقاتها، وكانت تمسك بمضرب من عظم الحوت. سددت ضربةً إلى رأس پوهي هُويا، لكن هذه تفادتها ببراعة. ردت پوهي هُويا على مُخاصِمتها بضربةٍ عنيفةٍ في البطن أخرجتها من القتال.

هجمت عليها فتاةٌ أخرى برمح قصيرٍ. وثبت پوهي هُويا جانبًا وتفادتها وسددت لها ضربةً عنيفةً على كتفها أسقطت سلاحها وأخرجتها من المعركة. كان عند الفتاة التالية سلاحٌ ذو نصلٍ عريضٍ. تفادت پوهي هُويا ضربتها، لكن ليس كما تفادت السابقتين، فأصاب السلاح طرف ثوب پوهي هُويا. هجمت الفتاة مرةً أخرى على پوهي هُويا، لكن هذه نجحت في صد الضربة، بل تمكنت ببراعةٍ وقوةٍ من توجيه لسان النصل إلى بطن الفتاة. سقطت الفتاة وتدحرجت على الرمل. وثبت الفتيات الواحدة تلو الأخرى إلى الأمام، ولكن پوهي هُويا تمكنت من تجريدهن من أسلحتهن جميعًا. وأخيرًا نهضت أمها في الزورق ونادت، «كفى، يا فتاة. لقد هزمتِ محارِباتي. دعينا نذهب

أنا وأنتِ إلى أبيك».

ردت عليها پوهي هُويا بازدراءٍ، «هل سيعود كوپيه؟»

«كفى، إذًا. ابقَيْ هنا. سأعود وآتيك ثانيةً حين موعد وليمة زفافك».

أُجريت الاستعدادتُ للوليمة الكبرى على عجل. صِيدَ السمكُ ونُبِشت جذور السرخس وكُوِّمت في أكوام لتجف، وصِيدت أسماك القرش وعُلِّقت على السقالات، وصِيد الحَمامُ، وجُمع الپيپي،[17] وطُبخ وعُلِّق على خيوطٍ ليجف، وطُبخت جذور نباتات السرخس بالبُخار في الأفران، وجُمعت قواقع أُذن البحر من الصخور وأُنضِجَتْ بالبخار. وفي اليوم المحدد أُرسل رسولٌ ليخبر مونغو هاو أن الوليمة جاهزة.

وأخيرًا حلَّ يوم الوليمة العظيم. استُقبل أهل مونغو هاو بالرقص وخطابات الترحيب. ذهب زعيم أُوهيتو إلى كومةٍ طويلةٍ من الكنوز المكوَّمة في ساحة القرية. وكانت هذه عبارةً عن ريش الهُويا والقَطْرَس، وثيابٍ من الكتان، والحجر الأخضر، وكثيرٍ من النفائس الأخرى.

ثم قال، «هذه الكنوز لوالدَيْ پوهي هُويا».

وحين فرغ من قوله، جاء الضيوف بهداياهم: أسماكُ الأنقليس، هامور، أُسقُمري، كلابٌ، جرذانٌ مُخللةٌ، محارٌ مجففٌ، سيقانُ نباتٍ مكبوسٍ، طيورُ البُقويقة، وأطعمةٌ أخرى كثيرةٌ، ووضعوها في صفوفٍ. ثم أضافوا إليها الثياب والأسلحة، والخبز المصنوع من

حُبيباتِ الهيناو وغُبارِ البردي. وحين أُعِدَّ كلُّ شيءٍ، نهض أبو پوهي هُويا ومَسَّ الهدايا بعصاه وقال، «هذه نفائسُك، يا قوى الظلام جميعًا، ويا قوى النور. هذه نفائسكم، أيتها الآلهة والأسلاف وأبناءَ هُوتون وي. هذه النفائس لكِ، يا ابنتي. إنك تغادرينني، وأنا أحزن عليكِ. اذهبي، يا كنزي، ولكنكِ لستِ ميتةً. إن أصلَنا زورقٌ واحد. وداعًا!»

وهكذا كوفئت شجاعة الفتاة التي تبعت حبيبها في كل المخاطر، وعاش پونغا وپوهي هُويا بطمأنينةٍ وسعادةٍ في أُوهيتو.

13

هاتو پاتو الصغير

إن قصة هاتو پاتو أشبهُ بحكايةٍ مأخوذةٍ من صفحات الأخوين غْرِم.[18] عاش هاتو پاتو وإخوته في مكانٍ ما بين روتورُوَا وتاوْپو حيث تزحف النيران الغريبة تحت الأرض وتخرج من الشقوق بين الصخور وتسخِّن بِرَك الطين. كان إخوة هاتو پاتو يمضون أوقاتهم بصيد الطيور التي كانوا يجلبونها إلى منزلهم حيث يحفظونها في الدهن في سلالٍ مصنوعة من لحاء الشجر.

كان هاتو پاتو المسكينُ الصغيرُ يمكث في البيتِ ويشعر بالأسى لأنه لا يُسمح له بالخروج معهم. وحين يعودون إلى البيتِ في المساءِ، يأخذون أفضلَ اللحمِ لأنفسهم ولا يتركون لهاتو پاتو إلا لحمَ الطيورِ الهرمةِ القاسي. وبعد مدةٍ هزل هُزالًا شديدًا إلى درجةِ أن أضلاعَه برزت من تحتِ جلدِه، ولكن إخوتَه لم يفعلوا شيئًا سوى السخريةِ منه. وذات ليلةٍ كان هاتو پاتو يجلس بجانبِ الموقدِ وعيناه محمرَّتانِ من الدخانِ وراح يفكر في مظالمه، فقرر أن يتدبرَ أمرَه إن لم يطعمْه إخوتُه بشكلٍ جيدٍ.

في اليوم التالي انتظر حتى توارى إخوتُه بين الأشجارِ وخفتت أصواتُهم بعد مسافةٍ، فأسرع إلى المخزن. سال لُعابُه وهو ينظر إلى صفوفٍ وصفوفٍ من السلال المليئة بالطيور السمينة اللذيذة. أخذ

شيئًا من جذر السرخس المطحون وجلس يُمتِّع نفسَه إمتاعًا لا يستطيعه إلا الماوري. ثم متَّع نفسه أيما إمتاع بلحم الطيور الطرية وجذور السرخس حتى انتفخ جلده ولم يعد قادرًا على أكل المزيد. عندئذٍ راح يفكر. سيكتشف إخوته أن شخصًا قد دخل المخازن، لأن عددًا من السلال كانت فارغةً. خاف هاتو پاتو. قرر أن يجعل الأمر يبدو وكأن عدوًا قد أغار على المخازن. فأسقط عددًا من السلال ونثر محتوياتها على الأرض. ثم ضرب نفسه برمح في عدة أماكن حتى سال الدم، لكن بطريقةٍ لا تشكل خطورةً على سلامته.

ولدى حلول الغسق وعودة إخوته، استلقى بقرب المنزل كأنه فاقدٌ للوعي. وجده إخوته ملقىً في طريقهم، مجللًا بدمائه، فاعتقدوا أنه جريح، فحملوه إلى الداخل، ونظَّفوا جراحه.

قال هاتو پاتو بصوتٍ ضعيف، «لقد جاءت مجموعةٌ من المقاتلين واقتحموا المخزن. حاولت أن أصدَّهم لكنهم هاجموني بالرماح، وبعدها لا أتذكر شيئًا إلى أن رأيتكم».

صبّوا على جراحه دُهنًا مُذابًا وجلسوا يتعشون. وكالعادة أخذوا أفضل اللحم، وأعطوا هاتو پاتو حصةً صغيرةً لا طعم لها، لكنه بعد وليمته الصباحية ما كان له أن يلمس أشهى لقمةٍ، لذلك راح وجلس في مَهَبِّ الدخان على الجانب الآخر من الموقد. رأى إخوتُه عينيه المحمرَّتين، فضحكوا منه. كان هاتو پاتو يرمش ويسعل بسبب الدخان، فيبتسم في سِرِّه.

في اليوم التالي كرر هاتو پاتو فِعلتَه، وفي اليوم الذي يليه والذي

يليه إلى أن ارتاب إخوته. فغادروا البيتَ ذاتَ صباحٍ، ثم عادوا خِفْيَةً ونظروا من خلال باب المخزن. كان هاتو پاتو يجلس وبين يديه طائرٌ سمينٌ، وكان يمزق لحمَه الأبيضَ بأسنانه القوية. ثم رأوه يهب واقفًا ويبدأ بإسقاطِ السلالِ، فلم يعودوا يحتملون كظم غيظهم. فوثبوا عليه وقتلوه ثم أخفوا جثته تحت كومةٍ من الريش كانت قد تجمعت من الطيور التي نتفوها.

ثم ما لبثوا أن عادوا إلى بيتهم في روتوزوا. حياهم أبواهم وسألاهم، «ولكن أين أخوكم الصغير هاتو پاتو؟»

«لا نعرف. أليس هنا؟»

«أنتم تعلمون جيدًا أنه ليس هنا. فأين هو؟»

ظلوا لحظةً لا يعرفون ما يقولون، وفجأةً راحوا يتحدثون دفعةً واحدةً. «لا نعلم. لسنا مسؤولين عنه. لعله هرب إلى مكانٍ ما. أو لعله يُخادِعنا وسيعود قريبًا».

نظر الأبُ إلى كل واحدٍ منهم بالتناوب إلى أن تجمدت الألسنةُ، فقال باختصار، «لقد مات، وأنتم من قتلتموه».

ثم دخل على زوجته في المنزل وقال لها، «لقد قتل أبناؤنا هاتو پاتو. لقد مات. بإمكاني أن أقرأ ذلك في وجوههم».

فسألته، «ما العمل؟»

«سنبحث عنه. سأرسل روحًا لتبحث عنه».

رتَّل ترتيلةً وبعد لحظاتٍ دخلت ذبابةٌ من ذباب الجِيَف تتخبط داخلةً وتطن داخل الغرفة. كانت هذه تامومو – أي تلك التي تطن



كان هاتو پاتو يتمتع بطعامه، غيرَ دارٍ بمَقْدَم إخوته.

في السماء.

أمرها والد هاتو پاتو، «جِدي ابني الذي ترقد جثته في مكان ما في التلال قبل أن تأتي إلى تاوپو مُوَانا».

طارت تامومو من المنزل، وحلقت فوق التلالِ التي كانت ترفع أسوارها المحطمة في الجو الصافي. كانت الآلاف من عدسات عينيها القرنية تعكس كل ثَنْيةٍ في الأرض. وبعد مدة رأت بيتًا مهجورًا في أرضٍ مقطوعةِ الشجر، فهبطت تامومو إليها. دخلت المنزل وعثرت على كومةٍ كبيرةٍ من الريش. اندست بين الريش وسرعان ما عثرت على جثة هاتو پاتو. كانت طنّانةُ السماءِ مُستجابةَ الدعاءِ لدى الآلهة، فما لبث الدم أن سرى في عروقِ هاتو پاتو من جديدٍ، ثم بدأ يتحرك. وما إن نهض هاتو پاتو من مرقدِه الريشي، حتى عادت تامومو إلى روتورْوا.

تلفَّت هاتو پاتو حوله. كان إخوته قد ذهبوا ولم يكن هناك أحدٌ. حمل رمحا خشبيًا، وخرج من مخزن الطعام راكضًا، واندسَّ في الغابة.

وما لبث أن صادف عجوزًا تصطاد الطيور. ولكنها بدلًا من أن تطعن بالرمح طعنًا رفيقًا من خلال الأوراق، كانت تزحف تحت الأوراق وتصطاد الطيور بشفتيها. وقف هاتو پاتو يراقبها للحظةٍ مشدوهًا. وبينما كانت تزحف بهدوءٍ إلى شجرةٍ، سدد رمحه إلى طائر. أصاب الرمح الرفيع غصنًا وارتد رأسُه نحو شفتي المرأة. صرخت صرخةً واستدارت. ركض هاتو پاتو بين الأشجار، واحتمى بالظل. سمع وقعَ خطواتِ امرأةِ الغابةِ الغريبةِ البطيئةَ خلفَه، لكنه على الرغم



حمل هاتو پاتو صُرَّتَه وتسلَّل هاربًا في الغابة.

من أنه أجهد كل عضلةٍ وتصبب العرقُ من وجهه، إلا أن صوت المطاردة بات أعلى. توقف تحت شجرةٍ، والتفت وراءه، وصدره يعلو ويهبط، وهو يلهث متقطعَ الأنفاس.

ولما راقبها جيدًا رأى أن لها أجنحةً على ذراعيها، وأن قدميها لا تكادان تُلامسان الأرضَ. كانت قادمةً إليه بوثباتٍ طويلةٍ بطيئةٍ، تارةً تطير، وتارةً تقفز، صاعدةً هابطةً مثل طائرٍ مقصوصِ الجناحين. وفي لحظةٍ رأته، وقبل أن يتمكن من الحركة، وثبت عليه وهي تطلق صيحةً خافتةً. أمسكت به من خاصرته بأصابعها النحيلة وسحلته على دربٍ ضيقٍ إلى منزلٍ خَرِبٍ مختبئٍ تحت أجمةٍ من نخيل النِّيكاو.

قالت له وهي تدفعه عبر الباب، «ابْقَ هنا».

في صباح اليوم التالي، اعتدل في جلسته وتلفَّت حوله. كانت آسرتُه قد جلبت طيرًا. لم تطبخه، ولكنها وقعت عليه تمزقه بأسنانها الحادة. وحين أشبعت جوعها، ناولت بقايا الطير للغلام. تظاهر بالأكل، ولكن اللحم النيئ سبب له الغثيان، وحين أشاحت العجوز بناظريها تسلل يريد الهرب.

فقالت له في الحال، «ابق هنا. لا تستطيع الهرب. لو غادرتَ هذا البيت، سأعرف أنك ذهبتَ وسأمسك بك وأعاقبك».

وحين غادرت، وقف هاتو پاتو وتفحص المنزل. كان يتدلى على الجدار معطفٌ جميلٌ من ريش الكاكا الأحمر. وبجانبه معطفٌ من جلد الكلب، وآخر منسوجٌ من أجود أنواع الكتان. خطر لهاتو پاتو هذا الخاطر، «يحلو لي أن آخذها».

تحدث إلى الطيور الداجنة التي كانت داخلةً خارجةً من الباب وإلى العِظايات التي كانت تحدق فيه بعيونٍ خَرَزِية.

قال في سرِّه، «لعلَّها أوكلت إليها أن تراقبني»، وارتعد من نُذُرِ الموت القادمة والخارجة من فجواتٍ في جدران القصب.

مرت الأيام، وكانت تذكِّره كل صباحٍ، «سأعرف إن غادرت». حين كانت تقول له ذلك، كان هاتو پاتو يشعر بالقشعريرة لأن عينها كانت مثل عين العظاية. لم يكن في المنزل موقدٌ، وكان يهزل كل يومٍ من قلة الطعام.

وذات صباحٍ قالت العجوز، «أنا ذاهبةٌ إلى ناحيةٍ بعيدة من البلاد. فحذارِ أن تغادر. سأعرف إن غادرت».

وما إن توارت عن الأنظار حتى أوقد هاتو پاتو نارًا وشوى أحد الطيور. وحين أكله اضطجع لينام. أيقظته الشمس التي كانت تُشرق على وجهه. تطلَّع إليها وقال، «إنها بعيدةٌ الآن. ولعلّي لا أحظى بمثل هذه الفرصة الجيدة للهرب».

أنزل المعاطفَ الجميلةَ من الجدار وصرَّها. كانت هناك عصًا ملقاةٌ في زاوية. أخذها ولوَّح بها فوق رأسه، وراح يضرب بها الطيور التي تحوم حول المنزل.

راح يُنشد ويقول، «لن ينجوَ أحدٌ. سأدمر كل ما تملكه العجوز».

قتل السحالي وقطَّع قصب الجدران. ثم حمل صرته واندفع إلى الغابة. كانت كل الطيور والسحالي جثثًا هامدةً في المنزل إلا واحدًا. كان هذا الطير مختبئًا في زاويةٍ مظلمةٍ وحين غادر هاتو پاتو طار

الطائر عبر الباب وانطلق إلى التلال حيث كانت العجوز تصطاد.

راح هاتو پاتو يعدو إلى موطنه وهو يتلفَّت وراءه. لم يكن للعجوز أثرٌ، فبدأ يشعر بالأمان. فما لبث أن استلقى ليستريح. ثم رأى العجوز. كانت مثل نقطةٍ سوداء فوق التلال البعيدة. وما هي إلا لحظاتٌ حتى صارت على بعد مئة ياردةٍ منه بفضل جناحيها. وفي اللحظة التالية شعر بنَفَسِها الحار على ظهره. أراد أن يطير، ولكن طريقه كانت مسدودةً بصخرةٍ كبيرةٍ.

«افتحي، يا صخرة»، نادى بصوتٍ يائس. ارتدَّت الصخرة للخلف ثم للأمام بعد أن اندفع في الظلام. كان يسمع العجوزَ وهي تخبط الصخرة، والطائرَ الصغيرَ وهو يرفرف بجناحيه. وحين تلاشت الأصوات، تسلل هاتو پاتو خارجًا من الصخرة وانطلق مسرعًا. رأته عينا الطائر الحادَّتان مرةً أخرى، فأختبأ هاتو پاتو تحت شجرةٍ كثيفة الأوراق حتى تجاوزته العجوز. وظلا على هذه الحال حتى وصلا إلى روتوروا.

في وَكاري وارِيْوا، حيث الوحل المغلي يتحرك ويُبقبق في الأرض، ركض هاتو پاتو بخفةٍ بين البِرَك. كادت العجوز تكون فوقه، فمدَّت مخالبها لتمسك به، ولكن البخار الحار هبَّ في وجهها وأعماها، فزلَّت قدمُها وسقطت في الوحل المغلي وغابت عن الأنظار. لوَّح هاتو پاتو بسلاحِه مزهوًّا بالنصر وتابع مسيرَه إلى أن وصل شواطئ بحيرة روتوروا.

حمل الصُّرَّة بيدٍ والعصا باليد الأخرى، غطس في الماء وراح يسبح

إلى موكويا. حل الغسق لكن كان بإمكانه أن يرى بركة الاستحمام الدافئة القريبة من بيت والديه. جلس وانتظر.

وحين حلَّ الظلام تمامًا سمع شخصًا قادمًا. اقتربت الخطا. لم يكن بإمكان هاتو پاتو أن يرى سوى هيئةٍ سمراء بالقرب من الماء. مدَّ يده وأمسك بكاحلٍ. صدرت شهقةٌ مفاجئةٌ.

سأل هاتو پاتو بصوتٍ خافتٍ، «من أنت؟»

«أنا عبد الشيخ والعجوزين صاحبَيْ المنزل بقرب البِرْكة».

«ماذا تفعل هنا؟»

«جئتُ لآتيهما بالماء. ولكن من أنت؟»

قال هاتو پاتو، «هذا ما ستعرفه قريبًا. خذني إلى بيتكم».

ما إن دخل البيت المضاء إضاءةً خافتةً حتى صرخ والداه، «إنه ابنُنا هاتو پاتو».

قال لهما هاتو پاتو بصوتٍ خافتٍ، «أخفضا صوتَيْكُما. نعم أنا هو هاتو پاتو. لقد قمت من بين الأموات. لقد أعادتني تاموموو إلى الحياة، ولكن تاموموو أتت من أبي وأمي. لقد عُدْتُ، وأنا سعيدٌ بذلك. لكن عليكما ألا تبكيا مَخافةَ أن يسمعَ إخوتي».

طوقته أُمُّه بذراعَيْها. «سنحميك الآن يا ولدي. ما أسعدنا وأنت بيننا! عليك ألا تغادرنا مرةً أخرى، يا هاتو پاتو».

هز الصبيُّ رأسَه، وقال، «أعلم أنكما سترعيانني، ولكن إخوتي أقوياء. يجب ألا يروني الآن. سأختبئ في حفرة البطاطا الحلوة قبل طلوع الضوء».

فقال أبوه، «إذًا، سآتي للبقاء معك».

بقي هاتو پاتو في حفرة البطاطا عدة أيامٍ، ولكنه كان يعود ليلًا إلى البيت ويمكث مع أمه وأبيه. كان الزمن يسير بطيئًا على هاتو پاتو بسبب الظلام في حفرة البطاطا، وفي البيت لم تكن هناك إلا نارٌ مُدْخِنةٌ. كانت أُذناه تلتقطان كل أصوات القرية، وسمع أحاديث إخوته. كانوا يتذمرون من بؤس الطعام الذي تعطيهم إياه أُمهم، غير مُدركين أن أطيبَه كان يذهب إلى هاتو پاتو.

وذات صباحٍ سمع أصواتًا. تساءل إن كان أحدهم قد رآه وعرفه حين ركض من الحفرة إلى المنزل بعد حلول الظلام.

علا صراخٌ، «هاتو پاتو هنا! لقد عاد هاتو پاتو!»

فسمع إخوته يقولون، «هذا هراء. لقد مات هاتو پاتو. لا يمكن أن يعود».

فقال لهم أبوهم مُتَّهِمًا، «لكنكم قلتم إنكم لا تعلمون ماذا حلَّ به».

وقبل أن يتمكنوا من الإجابة، نهض هاتو پاتو من حفرةِ البطاطا على غيرِ ما عَجَلٍ. كان يغرز الريش في شعره كالزعماء، وفي أُذنيه وبرٌ من صدر قَطْرس. وكانت عيناه تقدحان شررًا.

«أوه، هاتو پاتو!» قال إخوته ساخرين بعد أن استفاقوا من دهشتهم. «إنك تتظاهر بأنك كبرت، ولكنك كنت تختبئ كل هذا الوقت في حفرة البطاطا مثل جُرذٍ في الأرض. إنك ما زلت طفلًا».

نظر إليهم هاتو پاتو، ولم يكن يظهر منه فوق الأرض سوى عينيه،

فقال لهم بهدوء، «لقد كبرتُ، يا إخوتي».

«أوه، يا هاتو پاتو، ما أنت إلا غلامٌ صغيرٌ متبجِّح. لو كنتَ رجلًا لَخرجْتَ وقاتلتنا».

وبوثبةٍ واحدةٍ قفز هاتو پاتو من الكهف، وريشه الأحمر يتمايل، وعصاه في يده.

«هذا هو السلاح الذي أخذتُه من كوران غايْتوكو، المرأة الطائرة، التي ترقد في الوحل ميتةً عند وَكاري وارِيْوا. وهذا هو معطفها». ثم نزع الرداء عن كتفيه، وفتل عضلاته، ووثب عاليًا في الهواء.

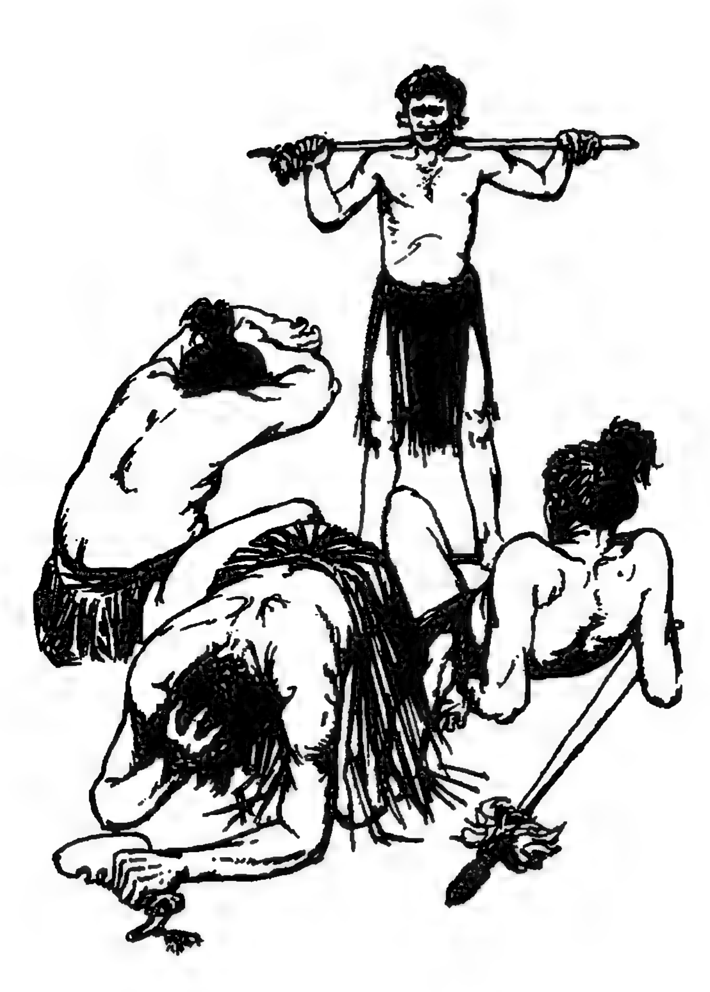
تجمَّع مئاتٌ من أتباعِ إخوته.

صاح هاتو پاتو مخاطبًا إخوتَه، «هانوي، هاروُا، كاريكا، أنا مستعدٌ لكم».

وثب عليه إخوته الثلاثة، محاولين أن يُغافِلوه. تراجع هاتو پاتو وتصدى لضربات أسلحتهم بعصاه. كانت أسلحتهم تُطقطق على عصاه الخشبية المتينة كطقطقة البَرَد. ثم وثب للأمام، وهو يلوح بعصاه، وكان لسانها يتراقص على رؤوس إخوته.

تراجع هاتو پاتو، وكان إخوته يجرون أنفاسهم بتثاقل وتقدموا وهم مُنهَكون. تراقصت النصالُ الثلاثةُ في الهواء مرةً أخرى، ومرةً أخرى تصدت لها عصا هاتو پاتو. كانت تدور حول رأسه ولها حفيفٌ كأنها جناحا حمامةٍ. كان رأسها لا يخطئ هدفه، وكانت الغلبة لعَقِبها. ارتمى إخوته على الأرض وقد ذهبت منهم إرادة القتال.

قال أبوهم، «يا أبنائي، ما أجرأكم حين تهاجمون أخاكم الأصغر.



تغلَّب هاتو پاتو على إخوته الثلاثة.

والأجدر بكم أن تصرفوا جهدكم لمسح إهانة روماتي».

لوى الإخوة رقابَهم. كان روماتي قد أحرق الزورق تي أَراوا، ولم تُمسَح الإهانةُ قط. وانتظر أبناءُ القبيلةِ ردَّهم.

نهض الأخ الأكبر هانوي وقال، «أنا سآخذ بثأر تي أَراوا». ثم ذهب إلى بيته.

قال الابن الثاني هارُوا، «أنا سآخذ بثأر تي أَراوا».

نهض الابنُ الثالث كاريكا وقال، «أنا سآخذ بثأر تي أَراوا».

نظر الجميع إلى هاتو پاتو، لكنه لم يقل شيئًا بل دخل إلى بيت أبيه.

بعد بضعة أيامٍ جهز الإخوة الثلاثة زوارقهم وأبحروا في البحيرة. كانت الزوارق مُحملةً بالطعام المطبوخ، وتهادت على صفحة الماء أغاني المجدِّفين إلى أسماع هاتو پاتو وأبيه الواقفَيْن على الشاطئ. كان الغلام قد أمضى عدةَ أيامٍ وهو يتعلم علاماتِ وشمِ روماتي عن ظهر قلب.

حين توارت الزوارق عن الأنظار، غرز هاتو پاتو ثلاثين معطفًا من الريش الأحمر في مِنْطَقتِهِ. لم يأخذ أي طعام، بل أمسك بعصاه وغيرها من الأسلحة وغاص في البحيرة وراح يسبح تحت الماء. وكان بين الحين والآخر يظهر إلى السطح مثل سلحفاةٍ في محيط كِيوا ليأخذ نَفَسًا.

وفي منتصف البحيرة أخذ نفسًا عميقًا ثم غاص إلى قاع البحيرة، وعاد إلى السطح بحفنةٍ من بَلَحِ البحر، فأكلها. وبهذه الطريقة سد جوعَه. وما لبث أن رأى الزوارق أمامَه تمر من المضيق بين روتوروا

وروتويْتي.

وحين بلغت الزوارق اليابسة، كان هاتو پاتو يقف على الشاطئ بينما كانت معاطف الريش معلقةً على الأشجار لتجف.

وثب إخوته على الشاطئ وصاحوا، «كيف جئت إلى هنا؟ أين زورقك؟»

قال هاتو پاتو، «لا يهم كيف أتيت. أنا الآن هنا، وسأذهب معكم الآن».

تركوا الزوارق وساروا إلى مَكيتو. وهناك تجمعوا على الشاطئ وكان تعدادُهم ألفًا من الرجال. صفَّهم هانوي وقسَّمهم بينه وبين أخويه الآخرين، لكنه لم يُعط أحدًا لأخيه هاتو پاتو.

فسأل، «ولكن أين رجالي؟ لقد أثبتُّ أنني محاربٌ ومن حقي أن أقود ثلةً من المحاربين».

سخروا منه وقالوا، «ما دمت معنا فأنت أخونا الصغير من جديد. لم يطلب منك أحدٌ أن تأتي. أنت لا تُحْسِن إلا الأكل. فاذهب واختبئ خلف المحاربين. هذه حربٌ، يا أخانا، وقد لا تحتملها بطنك المنتفخة من الأكل».

كان هاتو پاتو قد توقع أن يرفض إخوتُه طلبَه، لذلك ابتعد من غيرِ مجادلةٍ، آخذًا معه معاطفه الثلاثين. وبعد قليلٍ من البحث وجد فُرْجَةً في الغابة يستطيع أن ينام فيها قريرَ البال. استيقظ في صباح اليوم التالي، وعلى الرغم من الضوء الخافت رأى في الحال أن المكانَ الذي اختاره مناسبٌ جدًّا لأغراضه. كانت سفوحُ التلال مُنَقَّطةً

بأجمات السرخس وكتل الأعشاب النامية والنباتات المتسلقة. راح يعمل بسرعةٍ، ويربط الأجمات بأعواد الكتان، ويُلبِسها معاطفَ الريش حتى صارت تبدو من مسافةٍ كأنها ثلةٌ من المحاربين تتربص للقتال.

بدأت الشمسُ الآن تزحف فوق التلال. تلفَّت هاتو پاتو حوله. من بعيدٍ كان يرى التحام القبائل المعادية وهي تنسُل من قراها. كان مستطلِعٌ قد أخبرهم بالغزو الذي حل بأرض قبائلهم، وكان زعماؤهم يتقدمون للهجوم.

وأقرب من هؤلاء كان إخوة هاتو پاتو يذرعون الأرض جيئةً وذهوبًا أمام رجالهم. كان الهواء الساكن يحمل إليه أصواتهم بوضوحٍ. وحين انتهوا، وثب هاتو پاتو على قدميه وراح يحرض كتلَ أعشابِه وأجماتِه. التفت محاربو إخوته لينظروا إليه. كان شعره الطويل معقودًا في أربع خصلات، وفي كل واحدةٍ منها حزمةٌ من الريش. سرت همهمة إعجابٍ في صفوفهم، إذ إن هاتو پاتو كان محارب المحاربين: طويلًا، معتدلَ القامة، سريع العَدْوِ، طائلَ اليدِ. وهذه كلها صفاتٌ ستنفعه في أي قتالٍ.

ولما انتهى، ركض هاتو پاتو خلف الأجمات وحل ثلاثًا من خُصَل شعره، وترك واحدةً تتدلى فوق جبينه. ألقى على نفسه معطفًا من الريش الأحمر، وخرج، ثم خاطب مقاتليه الوهميين.

بدا للمحاربين على الشاطئ وكأن زعيمًا آخر كان يحرض الثلَّة القليلةَ. جلس أرضًا، ثم ما لبث أن قام من مكانٍ آخر وهو لابسٌ

معطفًا كتانيًا وقد أرخى شعرَه. ما أكثر ما جلس هاتو پاتو وما أكثر ما قام. وكان في كل مرةٍ يلبس شيئًا مختلفًا. كانت معاطفه مصنوعة من جلد الكلب والريش والكتان، وبيده كان يلِّوحُ بمضربٍ وسلاحٍ وعصًا. وأخيرًا نهض عاريًا، مستعدًّا للقتال، وبيده مضربٌ من عظمٍ أبيض.

«آه»، نَفَث محاربو إخوته، وكذلك فعل رجال روماتي الذين اقتربوا. كانوا رجالًا شجعانًا تواقين للقتال، ولكنهم تجنبوا ثلة المقاتلين القليلة ذات الزعماء الأقوياء الكثيرين.

انقضّوا على رجال هانوي، وحين اقتربوا أطلقوا رماح المانوكا حتى بدا الجو مليئًا بالأسلحة المتطايرة. أراد رجال روماتي أن يستغلوا الموقف لصالحهم. تخاذل صف محاربي هانوي وانكسر، وتغلغل بينهم رجال روماتي مثل موجةٍ متكسرةٍ على الرمال. كان رجال هارُوا وراءهم مباشرة واشتد الدفاع. كان صفّان من المحاربين ينتظرون الهجوم، ولكن روماتي ورجاله اكتسحوهم حتى بلغوا الصف الثالث بقيادة كاريكا. وهنا صمد إخوة هاتو پاتو صمودهم الأخير. صمد الصف، واندفع كاريكا في وسط المعمعة، وراح رجال يتقدمون قليلًا، وشعر محاربو روماتي بالضغط. ثم راحوا يتقهقرون. عندئذٍ علا صوت روماتي يناديهم ليضاعفوا مجهودهم. كانوا محاربين متمرسين، وكانت استجابتهم فوريةً. مرةً أخرى جاشوا، فاخترقوا محاربي كاريكا الذين انكسروا وهربوا إلى الغابة طلبًا للنجاة بأرواحهم.

وبينما هم يُطاردون قواتِ موكويا المتقهقرة، سمع روماتي ورجاله صوتًا عاليًا يُنشد أنشودةً حربيةً. التفتوا وراءهم ورأوا من بعيدٍ الثلة الصغيرة بالقرب من الغابة وقائدها واقفًا أمامها يلوِّح بمضربه.

جاء صوتُ هاتو پاتو مُدوِّيًا، «ارتدُّوا عليهم، ارتدُّوا عليهم».

نادى روماتي رجاله الذين تقدموا بحذرٍ نحو القواتِ عديدةِ الزعماء. غابوا عن الأنظار للحظةٍ، لأن الأرض كانت تهبط وتعلو. وقبل أن يبلغوا قمة المرتفع الأخير، أزاحوا الشجيرات جانبًا فإذا هاتو پاتو واقفٌ أمامهم. كان قد خلع معطفه، وكان شعره بلا زينةٍ، ويحمل مضربه بيمينه. وثب زعيمٌ للأمام من ثلة المحاربين المتقدمة وسدد ضربةً لو أنها أصابت هدفها لأنهت القتال فورًا، إلا أن هاتو پاتو صدها بمضربه. انقضَّ على الزعيم، وخلال مدةٍ لا تزيد على ما يستغرقه أَخْذُ نَفَسٍ عميقٍ، كان رجل روماتي ممددًا على الأرض ميتًا.

دبَّ الذعر بين المحاربين، إذ إن الزعيم كان مقاتلًا طبقت شهرته الآفاق. ولَّوا الأدبار وفرُّوا أسفل السفح. تنفَّس هاتو پاتو الصُّعَداء وارتفع نشيده، نشيد النصر، فوق ضجيجِ المحاربين المتقهقرين. سمع إخوته المتربصون في الغابات البعيدة صرخةَ الابتهاج. نظروا من خلال الغياضِ فرأوا رجال روماتي يتقاطرون نحوهم. نادوا رجالهم على عجلٍ وانقضُّوا على فُلول الهاربين، بينما كان هاتو پاتو يطير هنا وهناك يبحث عن زعيمٍ يحمل علامات الوشم التي تعلَّمها من والده.

في موكويا ازدحم الشيوخ والرجال والأطفال عند حافة الماء



ادّعى كلُّ أخٍ أنه يُمسك برأس روماتي.

لرؤية المحاربين العائدين. تعالى نشيدُ النصر عبر البحيرة بينما كان المجدفون يدفعون الزوارقَ فوق الماء لترسُوَ حتى نصفِها على الشاطئ الحاضن.

وقف الشيخُ، أبو هاتو پاتو، منتصبًا على الشاطئ مواجهًا أبناءه.

«لقد انتصرتم، يا أبنائي»، قال لهم حين انتهى النشيد.

ردَّ هانوي، «لقد انتصرنا وهَلَك العدو. وهذه مأثرةٌ عظيمة لأبنائك هانوي، هارُوا، هاريكا التي سيتغنى بها أولادنا في القادم من الأيام».

وقف هانوي على الزورق، ثم قال وهو يمسك برأس أحد المحاربين، «لقد هلكَ روماتي على يدي».

لكن هارُوا كان يُمسكُ برأسٍ ثانٍ، وكاريكا بثالثٍ.

قال هانوي بعنفٍ، «هذا هو روماتي. لقد كان يقود قومه، وقد قتلته بيدي».

فصاح هارُوا، «بل هذا روماتي!»

فقال الثالث، «أنت من سيحكم يا أبي. إن كاريكا هو من انتقم من روماتي».

التفت إليهم أبوهم الواحد تِلْوَ الآخر، ثم حنى رأسه، ونظر إلى الأرض، وقال، «آو! آو! ما كنتم لِتعرفوه. لقد نجا روماتي».

عندئذٍ وقف هاتو پاتو الذي كان في هذه الأثناء جالسًا بين المحاربين بحيث لا يراه أحدٌ. أخرج يدَه من تحتِ معطفه وهو يمسك برأسٍ موشومٍ.

قال بصوتٍ خافتٍ، «أجل، يا أبي، أنت من سيحكم»، لكن الجميع سمعوه في السكون الذي خيَّم عليهم. «هل هذا هو رأس عدوِّك؟»

رفع أبوه ناظريه، فعاد إليهما بريقُهما، وقال، «أجل! أجل، هذا هو روماتي. الآن لنا أن نزهُوَ بالنصر. إن هاتو پاتو، ابني الأصغر، هو الذي أخذ بثأر قومنا ومسحَ الإهانة. وهاتو پاتو هو الذي سيُكرَم».

تراقص ضوء النار على وجوه القوم وقد نذروا أنفسهم للاحتفال تلك الليلة، ومن بين جميع الحاضرين كان هاتو پاتو، الأشجع والأصغر، هو الزعيم المكرَم. أما بالنسبة إلى هانوي وهارُوا وكاريكا القابعين في ظُلُمات منازلهم، فقد كان للأغاني والمرح طعمُ العلقَم.

14

وَكاتاو پوتيكي

نظر وَكاتاو پوتيكي بفخرٍ عبر المرفأ إذ كان هناك ما لا يقل عن ألفِ زورقٍ تطفو على المياه الراكدة. لقد اجتمعت فرقةٌ حربيةٌ كبيرةٌ لتثأر لموت أخيه تُو وَكارارو على يدي الغادر آتي هَپاي. أُعِدَّت كمياتٌ من طعام جذر السرخس، وغنَّت نساءُ القبيلةِ ليُلْهِبْنَ حماسةَ المحاربين قبل أن يخرجوا للقتال.

قام وَكاتاو باستعداداته بعنايةٍ. ظلت الزوارق تُبحر طوال النهار حتى وصلت إلى مصبِّ جدولٍ. نزل المحاربون وقيل لهم أن يعبروا الجدول. حاول بعضهم أن يقفز فوقه لكنهم فشلوا، وقال آخرون إنه لا أمل من خوضِ مثل هذا الجدول سريع الجريان. انتقى وَكاتاو مجموعةً من الرجال وقادهم إلى الضفة، ثم قفزوا قفزةً هائلةً حملتهم إلى الطرف الآخر من الجدول.

أدرك القائد أن الأرقام لا قيمةَ لها في بعض الأحيان. لعلَّه يجدر به أن ينتقي بضعةَ محاربين قادرين على فعل أيِّ شيءٍ يطلبه منهم بدلًا من جيشٍ هائلٍ ينقصه التدريب.

ولما حلَّ الليلُ انتقى رجاله وأعطاهم أوامره. تسللوا بهدوءٍ من زورقٍ إلى زورقٍ، وراحوا يسحبون السُّدادات منها جميعًا ما عدا زورق القائد.

في صباح اليوم التالي صدر أمرُ الصعود إلى الزوارق، وانطلق الأسطول مبتعدًا عن الشاطئ. وسرعان ما لوحِظ أن الزوارق بدأت تمتلئ بالماء. استدار المجدفون بسرعةٍ وعادوا إلى الشاطئ، ولم يبقَ إلا زورق وَكاتاو عائمًا. لم ينتبه الطاقم للمحاربين المتروكين، بل واصلوا التجديفَ حتى وصلوا إلى قرية آتي هَپاي. كان وَكاتاو قد صبغ أحد جانبي زورقه باللون الأبيض والجانب الآخر بالأسود. ما لبث أن جاء أهل آتي هَپاي إلى الشاطئ. أشار أحدهم إلى زورق وَكاتاو، وكان يطفو على مسافةٍ، وسأل إن كان زورقًا أم فَقْمَةً. راح بعض الرجال يسبحون باتجاهه كي يتبينوا الأمر. اندفع أقوى السبَّاحين في المقدمة حتى اقترب بما يكفي ليرى أنه زورقٌ طافٍ على الماء. نهض فوق الماء وقال للرُّبّان، «ارجِع! ارجِع!»

ثم غاص وراح يسبح تحت الماء حتى صار تحت مقدمة الزورق، وكان ينوي أن يُغافل وَكاتاو، إلا أن وَكاتاو قتله برمحه وهو لا يزال تحت الماء. ظل السبَّاحون يقتربون من الزورق الواحد تلو الآخر، فقتلهم جميعًا وَكاتاو ومحاربوه. ولم ينجُ منهم أحدٌ سوى مونغوتيپي الذي عاد إلى الشاطئ وأخبر قومه أن في الزورق محاربًا عظيمًا، وأن عليهم أن يأخذوا حِذرَهم.

كان بين قوم آتي هَپاي رجلان ذوا صيتٍ عظيم. كان لأحدهما القدرة على الطيران في الهواء، وللآخر القدرة على السير على الماء. وما إن سمع الرجل الطائر ما قاله السبّاح، حتى قفز في الهواء وطار نحو الزورق. رآه وَكاتاو قادمًا، فصنع له على عَجَلٍ مَجْثَمًا كالذي تحط

عليه الطيور. وحين رأى الرجل الطائر المجثم، هبط ووقف عليه، وهو يلوِّح بسلاحه. لكن، كالمجثم الذي يُنصَبُ بجانب جدول في الغابة، كان المجثم الذي على زورق وَكاتاو فيه مَصْيَدة. أُمْسِك بالرجل الطائر من قدميه، ثم ما لبث أن انضم إلى السبّاحين الذين أرسلهم وَكاتاو ورجالُه على عَجَلٍ إلى راروهِنغا (عالم الأرواح الراحلة السفلي).

حين رأى السائرُ على الماء ما جرى لصديقه الرجل الطائر، جاء مسرعًا إلى الزورق. ملأ وَكاتاو حَوْجَلة بزبدةٍ شهيةٍ وتركها تطفو على الموج. فما لبث السائر على الماء أن اشتمَّ الرائحة اللذيذة. توجَّه إلى الحَوْجَلة والتهم الزبدة، ولكن للأسف كان وَكاتاو قد أخفى فيها صنارةً، فسُحِب السائر على الماء إلى الزورق سحبَ من لا يملك حولًا ولا قوةً فقُتِل.

في تلك الليلة تسلل وَكاتاو ورجالُه بهدوءٍ إلى الشاطئ. تنكَّر وَكاتاو بزي عبدٍ، فدخل تي أورو أومانونو، بيتَ قبيلةِ آتي هَپاي المستدير المشهور. لم ينتبه أحدٌ إلى العبد المغمور الذي كان يُصغي إلى الناس وهم يتحدثون بحماسةٍ عن مُجْرَيات اليوم. كانوا يتساءلون من أين جاء الزورق الغريب وعن الزعيم الجبار الذي يقوده.

وهم يتحدثون، صدر صوتُ خشخشةِ عظامٍ من سقفِ المنزل. إنها عظام تو وَكارارو تطالب بالثأر.

سأل أحدُهم مونغوتيپي، الذي كان قد رأى رُبّان الزورقِ الغريبِ قبل أن ينجو، عن هيئته.



وقع الرجل الطائر في مصيدة المَجْثَم الذي شدَّه وَكاتاو إلى الزورق.

قال مونغوتيپي، «إنه عظيمٌ لا أستطيع له وصفًا. إنه زعيم الزعماء».

سأل عددٌ منهم، «هل يشبهني؟» لا، إنه لا يشبه أحدًا من قوم آتي هَپاي.

اعتدل وَكاتاو ووثب على قدميه وسأل، «هل يُشبهني أنا؟»

حدَّقوا فيه جميعًا، لكن مونغوتيپي تراجع مذعورًا، ثم هتف قائلًا، «إنه هو!»

ساد الصمت للحظةٍ، ثم هبّوا جميعًا نحو وَكاتاو. التقط حَوْجَلة ماءٍ وصبَّها فوق النار، فغرق المنزل في الظلام. تهاوى الرجالُ على بعضِهم بعضًا وأمسكوا بخناقِ بعضٍ. ساد المكانَ صراخٌ وارتباكٌ، والناس يتدافعون في الظلام. تسلق وَكاتاو إلى السطح وأنزل عظام أخيه، ثم تسلل بحذرٍ من المنزل وسدَّ البابَ.

كان المحاربون الغزاة وقائدهم وَكاتاو پوتيكي خارجَ المنزلِ العظيم تي أورو أومانونو، وبداخله أعداؤهم قومُ آتي هَپاي. ناول أحدُهم مِشعلًا لِوَكاتاو، فأضرم به سقف القش الذي راحت تلتهمه النار، فكان لها سَعيرٌ وهديرٌ أغرقا صراخ أعدائهم.

كانت أم وَكاتاو پوتيكي وتو وَكاريرو تجلس تحدق من وراء البحر في الأفق البعيد نحو منزل تي أورو أومانونو. كان الظلامُ يلفُّ كلَّ شيءٍ. لم يكن هناك قمرٌ، وحدها النجوم الساطعة كانت تنقِّط السماء السوداء.

فجأةً انطلق شِهابٌ أحمرُ على الطرف الآخر من الماء، ولما كانت

السماءُ المظلمةُ تعكس ألسنةَ اللهبِ المتقافزةَ، علمت الأمُّ الثكلى أن ابنَها الميتَ قد أُخِذَ بثأره.

15

هِينامو وتوتانِيكاي

في غمرةِ حكايات المعارك والموت المفاجئ والولائم العملاقة والوحوش الخرافية وجِنِّيات الغابات تأتي حكاية الغرام البسيطة هذه بين هِينامو وتوتانِيكاي.

على جزيرة موكُوِيَا، القابعةِ مثل جوهرةٍ على سطح روتوروا اللامع، كان يعيش توتانيكاي مع أمه وزوجها وإخوته من أمه. ولما كانوا في عزلةٍ من الناس في البر الرئيس، فقد عاشوا في جزيرتهم عيشةً هادئةً لا تكدِّرها حروب القبائل المستعرة بين أهل ساحل البحيرة. لكنهم لم يكونوا في عزلةٍ تامةٍ. فبين الحين والآخر كانت الزوارق التي تزور البر الرئيس تحمل إليهم أنباء العالَم الخارجي. وبهذه الطريقة سمع توتانيكاي وإخوته بهينامو الحسناء، صاحبة الحسب والنسب، ابنة أُوهاتا. كل من تحدث عنها حكى عن رِقَّتِها وجمالها وقوة شخصيتها. وكان من شأن هذه الأخبار أن جعلت الإخوة يعشقونها قبل أن يروها. تبجَّح كل واحدٍ من إخوة توتانيكاي أنه سيتخذها زوجةً، أما توتانيكاي نفسه فلم يقل شيئًا. كان يخرج إلى شرفة بيته على سفح الرابية ليلًا وينظر نحو أُوهاتا على الطرف الآخر من المياه، فيتنهَّد، ثم ما يلبث أن يُخرِجَ مزمارَه ويبثَّ فيه لحنًا من ألحان الغرام.

كانت الموسيقى لا يَحول بينها وبين هينامو حائلٌ من الماء، فتُصيبُها بالوجومِ وهي جالسةٌ بين صاحباتها. كان البخار بجانب البحيرة تدفعه الرِياح فوق أشجار المانوكا، فيتناثر قَلِقًا ضائعًا مثل أفكار هينامو. كانت قد سمعت بإخوة موكويا، فتبتسم في سرِّها وتقول، «هذه أنغامُ توتانِيكاي».

وذاتَ يومٍ كان هناك اجتماعٌ عظيمٌ للقبائل على البر الرئيس. كانت هينامو مع قومها، وكانت عيناها تفتشان عن توتانيكاي. حدَّثها قلبُها أن الشاب الوسيم الطويل هو عازف المزمار في الليالي المقمرة. أما توتانيكاي فقد رأى كثيرًا من فتيات روتورا الجميلات المجتمعات في بيت الاجتماعات، لكنه لم ينجذب إلا إلى هينامو. وهكذا أصبحا عاشقَيْن، لكن لا هو صرَّح بهذا الحب ولا هي صرَّحت. كانت ابنةُ أُوهاتا الشابَّةُ ذاتَ حسبٍ ونسبٍ من سلالة الزعماء، وهي عزباء، وعلى الرغم من محبته لها إلا أن توتانيكاي خشي أن ترفضه. ومع ذلك كان يبحث عنها في كل لقاءٍ ويتودَّد إليها بالحديث. وأخيرًا قرر أن يرسل إليها برسالةٍ مع صديق. وحين أخبرها هذا الصديق عن حب توتانيكاي، ردت هينامو ببساطة، «إيهو! هل أصبح أحدُنا يحب الآخر بالمثل؟»

في اجتماع القبائل التالي، التقى العاشقان خارج بيت الاجتماعات. لم يفتقدْهما أحدٌ، لأن البيت كان مكتظًّا بالناس. وبينما كانت ضحكات الراقصين وصيحاتهم تتناهى إلى أسماعهما، كانا يجلسان معًا في الظلام، فأفصح توتانيكاي لهينامو عن غرامه. ثم سألها،

«كيف سنلتقي؟» جاءه صوتُ هينامو بجوابٍ رقيق، «أنا سآتيكَ، يا توتانيكاي، يا حبيبي. عليَّ أن أذهب حين لا يرتاب بي أحدٌ، وعليك أن تكون مستعدًّا لقُدومي. لكن كيف سأعرف أنك بانتظاري؟»

فكر توتانيكاي للحظةٍ ثم قال، «لقد حملتْ الأنغامُ حُبِّي إليكِ من قبل عبر مياه روتوروا. فَلْتَحْمِلِ إليك رسالةً أخرى الآن، رسالةً مفادُها أنني بانتظارك. فحين تسمعين عزفي في هدأة الليلِ، فاعْلمي أنني أترقب زورقَك وهو يتسلل عابرًا البحيرةَ المظلمةَ».

في الليلة التالية سمعتْ هينامو عزفَ مزمارٍ بعيدٍ، فتسللت إلى شاطئ البحيرةِ حيث ترسو الزوارق. كانت جميعُها موجودةً هناك، لكن، وأسفاه، سحبها أحدُهم بعيدًا على رمال الشاطئ. لم يكن في الماء ولو زورقٌ واحدٌ. كانت الموسيقى تأتيها واضحةً عبر مياهِ جزيرةِ موكويا التي كانت تقبعُ نائمةً في البحيرة الهادئة.

كان المزمار ينادي، «هينامو! هينامو! هينامو!» كان قلبُها مُثْقَلًا بالشوق لحبيبها. قَفِلَتْ راجعةً. لا بد أن أهلها لاحظوا كيف كان توتانيكاي ينظر إليها في بيت الاجتماعات. أو لعلَّ شخصًا سمعهما يتهامسان في الظلام، لأنه من غير العادة أن تُسحَبَ الزوارق جميعًا على الشاطئ في الوقت ذاته.

في الليلة التالية ذهبتْ إلى شاطئ البحيرة، فوجدتْ الزوارق مسحوبةً على الشاطئ، فتحول شكُّها إلى يقين.

ظل مزمار توتانيكاي يناديها كلَّ ليلةٍ. هَلَّ القمر وامَّحَق وحبُّها لحبيبها يجيش في صدرها جيشانًا منعها من النوم، وكان المزمار

من بعيدٍ كأنه يُدَوّي في أُذُنَيْها. وحتى وهي مُغْمِضةٌ عينيها، كانت تستطيع أن ترى توتانيكاي على شُرفةِ منزله وهو ينفخ في مزماره الطويل، ثم يضعه ويُجْهِد عينيه لعله يرى هيئةَ زورقٍ أشدَّ حِلْكةً من الظُّلُمات.

ثم جاءت الليالي اللامُقمِرة فلم تعُد تطيق صبرًا. كانت أرتال الزوارق تسخر منها كل ليلة، فلم تُعِرْها ولو نظرةً عابرةً. كانت قد أعدَّت ستَّ يقطيناتٍ كبيرةً يابسةً، وضمَّتها معًا بخيوطٍ من الكتان كي تحملها في الماء.

وحين توجَّهت إلى الشاطئ الصغير، صدحت موسيقى توتانيكاي مرةً أخرى، فزادتها عزيمةً وإصرارًا. خلعت ثوبها الوحيد، وهو رداءٌ من الكتانِ الجيدِ الحبكِ، وربطت اليقطينات تحت إبطَيْها، وخاضت في الماء حتى رفعها الموج. فراحت تسبح بجرأةٍ. شعرت كأنها عصفورٌ نجا من قفصٍ.

وسرعان ما أغرقت ضرباتُ الموجِ صوتَ المزمارِ. لعل تيارًا هوائيًا جرف الصوت بعيدًا عنها، ولكن ذُعرًا انتابها للحظةٍ. أحست بوطأةِ الظلام عليها كأنه جدارٌ لا يتزحزح. حاولت أن تنهض لعلها ترى الجزيرةَ قريبةً، ولكن الظلام أطبق عليها. لم تَعُد تعي الاتجاهات. لم تعد تعرف أين موكويا، ولا الشاطئ الذي غادرته. تعبت ذراعاها، وبدا كما لو أن اليقطينات فقدت قدرتها على الطفو، فكانت المُويجاتُ تصفع وجهَها صفعًا عنيفًا بمائها البارد.

صاحت صيحةً يائسةً حين لامس وجهَها شيءٌ ما. لكنها ما لبثت



أحست هينامو بالقاعِ يلامس قدميها.

أن تنهدت تنهيدةَ ارتياحٍ حين تشبَّثت به واستراحت عليه. كان هذا الشيء جذعَ شجرةٍ يطفو في الماء. ولما تشبثت به ونهضت قليلًا فوق الأمواج، حملت الريحُ صوتَ المزمار إلى أسماعها مرةً أخرى. اندفعت مبتعدةً عن الجذع وراحت تسبح نحو الأنغام لا تحيد عنها.

خفَّ الظلام وصار بإمكانها أن ترى كتلة الجزيرة في ضوء النجوم الخافت. كانت أحيانًا تتعب، فترتاح، لكنها لم تعد خائفةً. في إحدى المرات جرفها التيارُ بعيدًا عن الجزيرة، لكنها راحت تسبح بقوة أكثر وشعرت بالماء يتدفق من تحتها. كان الوقتُ يمر بطيئًا، وصار الماءُ باردًا. توقف عزفُ المزمار، ولم يبقَ إلا صوتُ الأمواجِ وهي تضرب صدرَها. توقفت وأصاخت السمعَ. في البداية لم تسمع شيئًا. ثم جاء صوتٌ ضئيلٌ: ارتطامٌ وهَسيسٌ مثل موجةٍ تضرب الرمال وهي تصعد الشاطئ. ثم هسيسٌ آخر وهي تنحسر حاملةً معها آلافًا من حبات الرمل. وبعد لحظةٍ شعرت بالأرض تحت قدميها.

صعدت الشاطئ متعثرةً، وكانت شِبْهَ متجمدةٍ. خدَّر الهواءُ الباردُ جسدَها أكثر من ماء البحيرة. وهي تتلمس طريقها بيديها صادفت بعض الصخور. وكانت هذه دافئة، وصار بإمكانها أن تشتمَّ بخارَ البركةِ الحارَّةِ المشبَّعَ بالكبريت. لقد زارت الجزيرة من قبل، لذلك عرفت أين هي. فهذه حَمَّةُ وايكي ميهيا الكائنة تحت منزل توتانيكاي مباشرةً.

نزلتْ في الماء نُزولَ مُمْتَنٍّ وشعرت بالدفء يسري في جسدها المقرور.

أَمَا وقد وصلت إلى بيت حبيبها وزالت مخاطر الرحلة، فقد شعرت فجأةً بالخجل وعدم الاستعداد للظهور أمامه. ظلت ملابسها على الشاطئ البعيد عند أُوهاتا. ثم سمعت وقعَ أقدامٍ تسلك الدربَ المؤدي إلى وايكي ميهيا. وفي طرفة عينٍ، انزوت نحو الضفة وربضت تحت صخرةٍ مُشْرِفَة.

توقف وقعُ الأقدام، وارتمى شيءٌ في البركة، وسمعت الماء يبقبق في حَوْجَلةٍ قريبةٍ منها. موَّهت صوتها، وقالت بنبرةٍ عميقةٍ، «من أنت؟ وإلى أين تأخذ الماء؟»

أجفل واردُ الماءِ من الصوتِ القادم من الظلام.

«أنا عبدُ توتانيكاي، وأنا آخذٌ الماءَ إليه».

وثب قلبُ هينامو، فقالت وهي لا تزال تتظاهر بأنها رجل، «أعطني الحَوْجَلة». تكلمت باعتدادٍ جعل العبد يُناولها الحَوْجَلة من غيرِ اعتراضٍ. رفعت الحَوْجَلة إلى شفتيها وشربت. ثم رفعت ذراعَها وقذفت الوعاءَ الفارغَ فتحطم على الصخور على طرف البركة الأبعد.

صاح العبدُ، بين خائفٍ وغاضبٍ، «لماذا فعلتَ هذا؟ هذه حَوْجَلة توتانيكاي!»

لم تُجِب هينامو، بل انزوت أكثر تحت ظل الصخرة. تطلَّع العبدُ بعنايةٍ فوق الأحجار، لكنه لم يرَ شيئًا. نادى بصوتٍ حادٍّ، «من أنتَ؟» لكنه ولّى راكضًا إلى المنزل حين لم يأتِهِ جوابٌ.

سأل توتانيكاي عبده لما رأى وجهه، «ما خَطْبُك؟ ما الذي

حدث؟ وأين الماء الذي قلت لك أن تأتيني به؟»

«لقد انكسرت الحَوْجَلة».

«مَن كسرها؟»

«الرجل الذي في البركة».

نظر إليه توتانيكاي بإمعان وسأله، «ألا يمكنك أن تتحدث بوضوحٍ أكثر؟ من كسرها؟»

كرر العبدُ قولَه بإصرارٍ لا يحيد، «الرجل الذي في البركة».

فكَّر توتانيكاي للحظةٍ أن يذهب بنفسه ليتبين جَلِّية الأمر، لكنه غير رأيَه. ظل ليلةً بعد ليلةٍ يعزف على مزماره، ولكن هينامو نسيت. أدار وجهَه نحو الجدار، وقال مُتَمَلْمِلًا، «خذ حَوْجَلةً أخرى وائْتِني بالماء».

ذهب العبد لمهمته مرة أخرى. تطلع حوله بحذرٍ، فلم يجد أثرًا للغريب، لكن ما إن غمس الحَوْجَلة في البركة حتى ناداه الصوت العميق، «إن كان الماء لتوتانيكاي، فأعطني إياه».

ارتجفت ساقا العبد، لكنه مدَّ ذراعه إلى أقصاها ليُناوِل الغريبَ الحَوْجَلةَ. امتدت يدٌ من الظُلُمات، ومرةً أخرى ارتطمت الحَوْجَلة بالصخور وتكسَّرت.

هذه المرة لم ينتظر العبدُ ليحتجَّ، بل ركض في الدرب المتعرِّج بأقصى ما تستطيعه رِجْلاه من سرعة.

قال وهو يلهث، «لقد كسر الرجلُ الذي عند البركةِ الحَوْجَلة الثانيةَ».

أغمض توتانيكاي عينيه وقال بنبرةٍ باردةٍ، «خذ حَوْجَلةً أخرى».

ثم ما لبث أن عاد العبدُ خاليَ اليدين مرةً أخرى. أخيرًا شعر توتانيكاي بالغضب يجيش سريعًا في نفسه. لقد نسي اشتياقَه لهينامو. بحركةٍ سريعةٍ واحدةٍ، هبَّ واقفًا على قدميه، وحمل مِضْرَبه، وراح يعدو نحو البركة.

سمعتْه هينامو قادمًا فعرفت أنه حبيبها. كان وقع قدمي العبد ثقيلًا وبطيئًا؛ أما توتانيكاي فقد جاء يعدو بخفةٍ وسرعةٍ. انزوت أكثر تحت الصخور وحبست أنفاسَها حين توقف وقعُ الأقدام عند حافة البركة. كان القمر ينهض، فرأت ظلَّه يمتد على الماء. كان الظلامُ تحت الصخور شديدَ الوطأة عليها.

نادى توتانيكاي، «أين أنت، يا مُحطِّم الحوجلات؟ اخُرج كي أراك. كن رجلًا واخرج بدلًا من الاختباء مثل السلْطَعون في الماء».

لم يأتِهِ جوابٌ. حدَّقت هينامو من خلال شعرها، فرأت الظلَّ يتحرك على الطرف الآخر من الماء، ويقترب أكثر فأكثر.

امتدت يدٌ ولامست شعرها. صاح توتانيكاي، «آه، لقد وجدتُكَ. اخرج أيها الوغد». اشتدت قبضتُهُ. «دعْني أرَ وجهَك».

نهضت هينامو. صعدت الضفة بتُؤَدَةٍ، ثم واجهت حبيبَها، جميلةً وخجلةً مثل طائر البَلشون الفضي الذي لا يُرى إلا مرةً كلَّ مئة عامٍ. همست له قائلةً، «أنا هينامو».

تلاشت القسوة من وجه توتانيكاي كما تتلاشى سُحُبُ الصيف أمام الشمس.

«هينامو!»

تصاعد الدخان من مواقد الطبخ عاليًا في الهواء والناسُ يتناولون إفطارهم صباحًا.

سأل أحدُهم، «أين توتانيكاي؟»

لم يُجب أحدٌ حتى تقدَّمَ عبدُه وقال، «لم أرَه منذ أن هبط إلى الغريبِ عند البركة ليلًا».

سألوا العبدَ، «غريب؟» فأخبرهم قصة تحطيم الحوجلات، وكيف ذهب توتانيكاي بنفسه لملاقاة الغريب.

قال أحد كبار السن، «هذا خبرٌ غريبٌ أسمعه. لعلَّ مكروهًا أصاب توتانيكاي. إنه محاربٌ جسورٌ، لكن حتى أشجع الشجعان يمكن أن يمكر به في الليل حين تخبئ ظُلُماتُه طعنةَ سلاحِ غادرٍ. أسرِعْ إلى بيته وانظر إن كان بخير».

تبعت أعينُهُم العبدَ وهو يحثُّ الخُطى إلى منزل توتانيكاي. كان صوتُ البابِ المنزلِق في السكون وهو يرتطم بالإطار مثل هزيم الرعد.

حدَّق في الظلام ثم عاد إلى الناس المجتمعين في الساحة، وصاح، «لقد رأيت أربعة أقدامٍ. لقد بحثت عن توتانيكاي ورأيت أربع أقدامٍ بدلًا من اثنتين».

سَرَتْ همهمةٌ بين الرجال والنساء. سأل الشيخ بصوت عالٍ كي يُسمَع صوتُه، «من معه؟»

لم يُجب العبدُ، بل عاد راكضًا إلى البيت لينظر. عاد وهو يصيح من

فرط الانفعال، «إنها هينامو!»

ردد الناسُ صيحتَه، «هينامو هنا مع توتانيكاي!»

غارَ إخوة توتانيكاي لأن كلًا منهم ظنَّ أن هينامو ستختاره زوجًا لها، فصاحوا غاضبين، «لا يمكن أن تكون هينامو. لا يوجد زورقٌ على الشاطئ، لذلك لا يمكن أن تكون قد أتت ليلًا. إن العبدَ يكذب».

عندئذٍ خرج توتانيكاي من المنزل وهو يقود هينامو من يدها. كانت تنتصب باعتدادٍ وهي ترتدي معطفًا لزوجها وتمشي إلى جانبه. صدرت من الناس صيحةُ ترحيبِ عظيمةٌ، فأغرقت احتجاجاتِ الإخوة الغاضبين. «إنها هينامو حقًّا. فأهلًا ومرحبًا بهينامو!»

هذه هي قصة غرامِ هينامو ورحلتها الجريئة عبر البحيرة إلى حبيبها، وهي قصةٌ سيظَل يرويها قوم أراوا ما داموا يعيشون بجانب مياه روتوروا المتبخرة.

16

تورا وَوِيرو

ارتكب الزعيم العظيم ويرو فعلًا شنيعًا أسخطَ عليه قومَه.[19] شَقِي شقاءً أذهبَ عنه متعةَ الحياة، فقرر أن ينتحر. تصادق مع زعيم آخر اسمه تورا، فاقترح عليه أن يقوما برحلة بحرية في زورق. لَم تكن لدى تورا أدنى فكرةٍ عن مأربِ ويرو الحقيقي، فتحمَّس لها أيّما حماسةٍ.

ترك زوجته وابنه الرضيع، وانطلق مع صديقه في الرحلة، فما لبثت الأرضُ أن غابت عن أنظارهما. وفي عرض البحر شاهدا نقطةً سوداءَ في الأفق. وحين اقتربا فوجئا بأنه زورقٌ آخر. حيَّاهما تو تاتا هاو، رُبَّان الزورق، قائلًا، «زورق! زورقُ مَن أنتم؟»

أجابه أحد رجال ويرو متغطرسًا، «ألا ترى؟ إنه زورق الآلهة».

غضب تو تاتا هاو، فقذف الرجل برمحه فأرداه قتيلًا.

فأعاد السؤال، «من أنتم؟ هل أنتم طاقمٌ من البشر؟»

ردَّ عليه مُجدِّف آخر، «لقد سمعتَ الجواب. إنه زورقٌ للآلهة».

قذف تو تاتا هاو رُمحًا آخر، ومع أن المجدف رآه قادمًا ومال عنه جانبًا، إلا أنه لم يكن سريعًا بما يكفي، فشَكَّهُ الرمحُ الثقيلُ وألصقه بخاصرة الزورق.

مرةً أخرى جاء السؤال، «لِمن هذا الزورق؟»

همس ويرو لتورا، «هذا زعيمٌ مُتَجَبِّرٌ مُهاب، فما العمل؟»

قال له تورا، «دعِ الأمرَ لي». ثم نهض ورفع صوته قائلًا، «هذا زورقُ ويرو. إنه زورق الأسلافِ أهلِ الضِرابِ والطِّعانِ».

ارتعد تو تاتا هاو حين سمع هذه الكلمات، فأمر رجاله أن يضربوا الموج بمجاديفهم، وراح الماء يفور من تحتهم حين استدار الزورق وولّى مبتعدًا.

ثم ما لبث أن رأى ويرو وتورا ساحل بلادٍ جديدةٍ فاتَّجها نحوه. دفعَ الزورقَ تيارٌ جارفٌ من الماء وتيارٌ ثابتٌ من الهواء بمحاذاة الشاطئ بسرعةٍ أخافت تورا الذي اطَّلع على شيءٍ من طبع ويرو في أثناء رحلتهما القصيرة معًا، فظنَّ أن الزورق مُقبلٌ على كارثة. كانا قريبَيْن جدًّا من الساحل إلى درجة أن أغصان الأشجار كانت أحيانًا تلامس رأسيهما. قفز تورا فجأةً وتشبَّث بغصنٍ، ثم قذف بنفسه على الأرض قبل أن يتمكن ويرو من منعه. واصل الزورقُ اندفاعَه للأمام وتوارى عن الأنظار بسرعة.

تنهَّد تورا تنهيدة ارتياحٍ، لكنه كان وحيدًا ومرتبكًا. خطر له أنه لو أوغل في اليابسة قليلًا فقد يصادف أناسًا يعطونه طعامًا ومأوىً. ظل يمشي بقية يومه، ولم يصادف أحدًا، وفي الليل اضطجع لينام، مُرهقًا، جائعًا، عَطِشًا. وفي نهاية اليوم التالي كان أكثر إرهاقًا، إلا أنه عثر على بيتٍ مُتهالكٍ بحلول الظلام. لم يكن يقطن في البيت إلا عجوزٌ أطعمته فاكهةً وسقته ماءً وأعطته حصيرةً ليستلقي عليها. مكث عندها عدةَ أيامٍ، وبسبب وحدته وتوقه للعشرة، عرض على

العجوزِ الزواجَ.

فقالت له المرأة، «لا، فأنا عجوزٌ لا نفعَ بي، وقد جِيء بي إلى هذا المكان لأحرسه. وهناك الكثير من الفتيات اللاتي يتمنين أن يتزوجن منك».

ثم أخذته إلى القرية، وكانت غير مُسَوَّرة، فدُهش تورا حين وجد الناس جميعًا يعيشون في الأشجار. كانوا أناسًا غريبي الأطوار يُدعَوْنَ آيْتانغا آنوكو ماي توري. لهم أجسام ضخمة ورؤوس صغيرة. اختار منهم زوجةً له، ولمّا كان لا يعرف لغتها جيدًا، سمّاها توراكي هاو، وقال إن اسمه هو واي رانْجي. وضعت زوجتُه أمامَه طعامًا، فلمّا هَمَّ بأكله، انكمش قَرَفًا، حيث لم يجد إلا لحمًا نيئًا، وعشبًا أخضر، وجذورًا غير مطبوخة.

قال في نفسه وقد أوجَس فيها خيفةً، «لا يمكن أن يكون هؤلاء القوم بَشَرًا. لا بد أنهم آلهةٌ أو توريهو.[20] وعليَّ أن أحذر».

لحسن حظه أنه قد جلب معه أدوات النار. جعل زوجته تضع قدمها على اللوح المستوي وراح يحكُّ الأُخدود الذي في اللوح بعودٍ مدبَّبٍ جيئةً وذهوبًا. ولما رأت زوجته الدخانَ يتلوّى صاعدًا، بدأت ترتعد من الخوف. وحين شبَّتِ النارُ في الوقيدِ المدخِّنِ، اختبأت وراء شجرة. وحين رفع تورا ناظريه كان الغرباء قد اختفوا عن بكرة أبيهم. عَمِل موقدًا، وأوقد النار تحت الأثافي، وأمسك برداءِ زوجته. ولما أيقن أنها لن تهرب على الرغم من خوفها، طبخ الطعام الذي كانت قد أعدته. وبينما هما يأكلان، فاحت رائحةُ الطعامِ اللذيذةُ

بين الأشجار، فتسلل الآيْتانغا عائدين بين الأشجار ليروا بأنفسهم عجائبَ ما صنع واي رانجي. قدم لهم بعض الطعام الناضج، فتذوَّقوه بحذرٍ في البداية، ثم أقبلوا عليه بنهمٍ متزايدٍ حين عرفوا طِيْبَ مَذاقِهِ.

شيئًا فشيئًا، تعوَّد تورا على عاداتهم وزادت معرفته بهم. اقترب الموعد الذي تلد فيه توراكي هاو. فبنى لها زوجها بيتًا خاصًّا بها، وجلب لها أقرباؤها الهدايا: كتان ناعم ممشَّط ورقائق حادة من السَبَج تشبه السكاكين.[21]

اندهش تورا لما رأى الهدايا تُعطى قبل ولادة الطفل، فسأل عن السبب. نظر إلى زوجته فإذا دموعُها تسيل على خدَّيْها.

فسألها، «لماذا تبكين؟»

«لأنه آن أوانُ رحيلي عنك، يا واي رانجي».

«لماذا ترحلين عني؟ ألستِ سعيدةً معي؟»

«أنت تعلم أنك جلبت السعادة إلى حياتي، لكن طفلي سيولد قريبًا، وعليَّ أن أموت».

صُعِق تورا، فقال، «ولكن عندما يولد طفلُك، فهو بحاجةٍ إلى رعايتك».

صُعقت مثله تمامًا. «لكن لا شك أنك تعلم أن الأمهات يجب أن يمتن حين يلدن؟»

تبسَّم تورا وقال، «لا، لا أعلم. لدى قومِك عاداتٌ غريبةٌ، وقد صار لزامًا عليَّ الآن أن أعلِّمك عاداتِ قومي. ثقي بي ولا تخافي».

خرج وأرسل النساء إلى منازلهن في الأشجار. بنى بيتًا آخر، ونصب فيه عمودين متينين. واحدٌ سمّاهُ پو تاما تاني، والآخر سمّاه پو تاما واهيني.

قال لها، «هذا عمود الصبيان. أسندي ظهرك عليه. وذاك عمود البنات. تمسَّكي به وسيكون كل شيءٍ على ما يُرام. وإن لم يولد الطفلُ قريبًا، فقولي هذه الكلمات». ثم علَّمها الترنيمة التي تردِّدها نساءُ بلادِه.

«إن لم يولد الطفلُ بعد، قولي 'واحدٌ من أجل تورا!' وستجدين أنك أنت وطفلك بخير».

حينها عرفت توراكي هاو اسمَ زوجها لأول مرةٍ. وهذا أمدَّها بقوةٍ، وفي الحال وُلِدَ صبيٌّ؛ واندهش أقرباء توراكي لما رأوا أنها تستطيع أن تحمل طفلها بين ذراعيها وتغني له تهويدةً.

مرت سنةٌ وصار الطفل ولدًا صغيرًا يستطيع المشيَ من غير مساعدة. وذاتَ يومٍ كان تورا يستلقي على ظهره وزوجته تمشط له شعره، فصاحت صيحةَ اندهاشٍ.

فسألها، «ما الأمر؟»

«انظرْ! هناك شعرٌ أبيض بين الأسود».

ضحك تورا وقال، «إنها علامةٌ على الكِبَر والزوال، لكن لا يزال أمامي عمرٌ طويل».

نظرتْ إليه نظرةَ جِدٍّ وسألت، «هل تعني أن الرجال في عالمكم يشيخون ويموتون؟»

«أجل. هذا مصيرنا جميعًا».

«لا، يا تورا. لا يُعرَف الموتُ في عالمنا إلا حين تموت الأمهاتُ من أجل أطفالهن».

ثم نهضت ودخلت المنزل راكضةً. تفكَّر تورا وهو يجلس تحت الأشجار، فأدرك لأولِ مرةٍ أن زوجته تنتمي حقًّا للآيْتانغا وليست بشرًا فانيًا مثله. حمل طفله وبكى عليه، وتساءل إن كان سيغدو رجلًا مثل أبيه، أو سيصيرُ مثلَ قومِ أُمِّه.

أدرك أنه لم يعد باستطاعته أن يبقى معهما، بل عليه أن يحاول العودة إلى رجالِ عالَمِه ونسائه. ظل يبكي على طفله يومين، وظلت توراكي هاو تبكي على زوجها يومين.

حَزَم أمتعتَه القليلةَ التي جاء بها، ولامس أنفَ ابنه الصغير بأنفه مودِّعًا وقال، «وداعًا. عِشْ عيشةً طيبةً هادئةً، يا ولدي، وإيّاك والشر».

ظل يسير عبر الغابة ثلاثةَ أيامٍ حتى وصل إلى الشاطئ. تمعَّن في الماء لعلَّه يرى زورقًا لقومه، لكن البحر كان خاليًا. لقد جاء من موطنه من قبلُ مع ويرو، لذلك هناك أملٌ ضئيلٌ في رؤيةِ زورقٍ. تنهد وبكى قليلًا لأنه لا يستطيع أن يعيش مع الغرباء، وليس لديه رُفَقاء.

بنى مخزنين للطعام على عمودين متينين. كان أحدهما طويلًا، والآخر بناهُ قريبًا من الأرض، ذُخرًا لشيخوخته حين يعجز عن صعود سُلَّمٍ. وأخيرًا بنى منزلًا وخرج ليأتي بطعامٍ. لم يضطر للبحث



ودّع تورا أُسرته.

بعيدًا، إذ وجد حوتًا قد جنح على الشاطئ. ثم قطَّع لحمه وجففه. ادَّخر قسمًا في المخزن العُلوي، والبقيةَ في المخزن السُّفلي.

مرت السنون والأيام. تكاثر الشيبُ حتى غزا شعرَه كله. هَرِم تورا وانحنى ظهرُه وصار يمشي بصعوبةٍ. أقعده وهنُ الشيخوخة، فلم يعد قادرًا على الاعتناء بنفسه. هزل هُزالًا شديدًا، واتَّسخَ، وطال شعرُه وتشعَّث. عادت به الذاكرة إلى أيام شبابِه وعيشِه الرغيدِ مع زوجته الأولى في بلاده. تذكَّر ابنه الأوَّل الذي أنجبته له امرأةٌ من البشر.

«أوه، إيرا تو روتو! إيرا تو روتو!»[22] صاح وهو يظن أن الصبيَّ ما زال طفلًا كما رآه آخر مرةٍ.

لكن إيرا تو روتو، الساكن بعيدًا وراء البحار، أصبح الآن رجلًا ولديه أطفال. في تلك الليلة رأى إيرا رؤيا جَليَّة. وحين استيقظ قال لزوجته وأولاده، «لقد رأيتُ أبي تورا الذي ضاع منذ زمنٍ بعيدٍ حين أبحر مع ويرو. وقد رأيته في المنامِ شيخًا عاجزًا، وكان ينادي، 'أوه، إيرا تو روتو! إيرا تو روتو!'»

قالت زوجته، «ما هذا إلا حلم. لقد مات أبوك منذ سنين بعيدة».

وفي تلك الليلة عاودته الرؤيا أقوى من ذي قبل. نهض من جانب زوجته وتوجَّه إلى أمه وقال لها ببساطةٍ شديدةٍ، «إنه أبي، وهو بحاجةٍ إليَّ».

هزَّت العجوز برأسها وقالت، «افعل ما تراه واجبًا عليك، يا بُني».

قال إيرا، «أعطيني من زيتِك الحلو المعطَّر».

دهن نفسه من رأسه إلى قدميه، وأخذ الزيت معه. وبهدوءٍ أيقظ عبيده وبعض أصحابه، وتسللوا خارجين من المنزل. كانت أم إيرا تو روتو هي المرأة الوحيدة المستيقظة. لم تقل شيئًا بل شيَّعتهم بنظراتها، وهي تجلسُ على حصيرتها بلا حراكٍ. دفعوا الزورق على الحصى في ضوء النجوم وأنزلوه في المياه الجارية. كانت المجاديفُ تَشُقُّ الماء شقًّا، واتَّجه الزورقُ شرقًا، وتوارى عن الأنظار حين بزغت الشمس. ظل إيرا تو روتو يسمع صوتَ أبيه كل ليلةٍ، يقترب أكثر ويضعف أكثر فيما يبدو.

بلغوا مكانًا كان التيارُ فيه يجري سريعًا بمحاذاة الشاطئ، وبينما كان التيار يجرف الزورق شاهدوا منزلًا صغيرًا ومخزنين للطعام، واحدٌ طويلٌ والآخرُ قصيرٌ.

غاصت المجاديف عميقًا في الماء مرةً أخرى، فَدُفع الزورق بالقوة بعكس التيار نحو خليجٍ محميٍّ.

كان أوه إيرا تو روتو أول من دخل المنزل. وحين اعتادت عيناه على الظلام رأى شيخًا مستلقيًا على حصيرة بالية. كانت عظامه بارزةً من تحت جلده الذاوي، وكانت خصلات شعره المتناثرة تتدلى على كتفيه وصدره، وكان يتمتم في منامه. كان جسدُه مُتَّسِخًا ومُهمَلًا.

انحنى زائرُ الليلِ وأدنى أُذنَه من فم الشيخ، فسمعه يهمس لآخرِ مرةٍ، «أوه، إيرا تو روتو! إيرا تو روتو!»

حمله برفقٍ، ونادى عبيده، فجاؤوا بماء وطعام. فتَّتوا بطاطا حلوة

مجففة في الماء وألقموها في فمه. غسله إيرا ودهنه بما تبقى من زيت أمه. كان الشيخُ ضعيفًا جدًّا لا يقوى على الجلوس في الزورق. فصنعوا صندوقًا، وبطَّنوه بالطحالب، ووضعوه في الزورق، ومدَّدوا الشيخَ فيه.

كان تورا في النهار يرى السماءَ الزرقاءَ والسحبَ التي تطاردها الرياحُ، وفي الليل يرى النجومَ السائرة. وكان يسمع رشقَ الماء على جانبي الزورق. وشعر بإيقاع الزنود القوية والمجاديف وأنشودة الزعيم، أنشودة ابنه إيرا تو روتو. إنه عائدٌ إلى وطنه!

17

مَعْشَرُ الجِنّ

رُوَا رانجي والتوريهو

تُروى الكثير من الحكايات عن معشر الجن ذوي البشرة الفاتحة الذين يعيشون في غابات آوْتِيارُوا، ويُطلِق عليهم الماوري تسمية التوريهو أو الپاتو پاياريهي. إنهم جنسٌ غريبٌ ما هو بجنس البشر لكن لهم هيئة البشر. كانوا يحبون الأرياف ذات الغابات الكثيفة، ويألفون التلال، ويعيشون في مجاهل الغابات النائية.

على سفوح پيرونجِيا، الذي يحرس الوايكاتو، كان يعيش رُوا رانجي وزوجتُه. وفي أثناء غياب الزوج في سفرٍ، تسلل أحد التوريهو من الغابة واختطف زوجته.

وحين عاد المسكينُ رُوا رانجي إلى بيته ولم يجد زوجته طاشَ صوابُه. كان يعلم علمَ اليقين أنها لم تهرب، كما أوحى إليه بعض أصدقائه، لأنهما كانا سعيدين في زواجهما. فأخذ رمحه ومضربه المصنوع من الحجر الأخضر، وراح رُوا رانجي يبحث عنها في طول البلاد وعرضها. بل إنه تسلق شِعابَ پيرونْجِيا شديدةَ الانحدارِ حيث تلتف شعانينُ الأشجار وتتعانق من فوقٍ، ومن جذوعها ذاتِ العُقَدِ الكثيرةِ المغطاةِ بالطحالب تتدلى حبالٌ طويلةٌ من المتسلِّقات، بينما شِراكُ الأوراق الخضراء تتلقَّفُ ضوءَ المساءِ الخافتَ وتحتجزه.

إنها حقًّا بلادُ الجنِّ، لكن عيني رُوا رانجي كانتا تقدحان شَرَرًا، ولم يكن في قلبِه خوفٌ، بل حقدٌ على أنصاف البشر ذوي البشرة الفاتحة الذين يعتقد أنهم اختطفوا زوجته.

وبينما كان يستلقي على فراشٍ من الطحالب الرطبة بعد أن تناول طعامَه ذاتَ يوم، تمامًا حين راح النور يخفت من الغابة عند الغَسَق، فرك عينيه وهبَّ واقفًا صائحًا. لقد رأى زوجته على الطرف الآخر من النُّهَيْر، ومعها أحد التوريهو المرعبين.

وما أشدَّ دهشتَه حين رأى زوجته تنظر إليه ثم تصد عنه وتهرب بين الأشجار. لم يصدق رُوا رانجي عينيه للوهلة الأولى، لكنه عرف بعد ذلك أنها مسحورةٌ لا محالة. لم يتوقف إلا ليلتقط أسلحته، ثم راح يركض خلف الهاربَيْن.

كان رجل التوريهو يركض ركضًا لا صوتَ له، إلا أن رُوا رانجي كان يسمع زوجتَه وهي تخترق أماليدَ الأغصانِ. وسرعان ما عرف أنه يلحق بها لأن الأصوات صارت تتعالى. وصل إلى مكانٍ فيه أشجارٌ متساقطةٌ والعشبُ يغطي الأرضَ المستويةَ كالسجادةِ. كان التوريهو يحض زوجته على أن تتوجه إلى ملجأ الأشجار.

توقف رُوا رانجي وسدَّد تسديدًا دقيقًا. أزَّ رمحُه الرشيقُ في الهواء وهو يتجه نحو نصف الآدمي، إلا أن قوةً ما حَرَفَتْه، فتجاوز هدفه وانغرس في الأرض وهو يهتز.

سيولِّي الهاربان في لحظةٍ. وراح الضوء يتخافت، وخشي رُوا رانجي أن يفقدهما في الظلام. كان لا يزال يحتفظ ببقية طعامه

المطبوخ، فأطبق يدَه على بطاطا حلوةٍ مسلوقةٍ بالبخار. صارت زوجته وجِنِّيُّ التوريهو على حافة الغابة، ولكن القذيفة لم تَحِد عن هدفها، بل أصابت الزوجة على ظهرها.

وَثَبَ قلب رُوا رانجي لأنه يعلم أن الطعام المطبوخ سَيَفُكُّ السحر الذي عمله الجِنِّيُّ. تسمَّرت في مكانها لحظةً، ثم انتزعت يدها من يد آسِرِها، واستدارت إلى حيث كان زوجها ينتظرها. وبصرخةِ فَرَحٍ ركضت إليه وألقت نفسها بين ذراعيه.

أسرع الزوجان بأقصى استطاعتهما عبر مجاهل الغابة، فكانا يرتطمان بالأشجار أو يتعثران بالجذور، وهما يتلهَّفان للهروب من موطن التوريهو المخيف. وأخيرًا خرجا من الغابة وشاهدا سُفوح بيرونْجِيا الدنيا تسترخي هادئةً غيرَ خائفةٍ تحت أشعةِ القمر الفضية.

ما كان رُوا رانجي في البداية ليستمع لزوجته وهما يسلتقيان في المنزل، بل راح يهدِّئ خاطرها ويُواسيها بكلماته. لم تستطع أن تتذكر كثيرًا عن حياتها مع التوريهو. بل كانت ترتعد حين تسمع ذلك الاسم المرعب، فقرر رُوا رانجي ألا يتحدث عنهم. وفي صباح اليوم التالي بدا أنها عادت كما كانت، فقالت، «علينا أن نحذر حذرًا شديدًا. سيعود جِنِّيُّ التوريهو من أجلي».

فسألها رُوا رانجي، «وكيف نمنعه؟ هل هناك شيءٌ يخافه التوريهو؟»

فكرت زوجته لحظةً وقالت، «نعم، إنهم يخشون كوكو واي! إنهم يخشون لونَ المُغْرَة الحمراءِ المقدس».



كان التوريهو يتقافز كالمسعور من مكان إلى مكان
ليتجنب المُغْرة الحمراء.

مرت عدة أيام ولم يكن هناك أثرٌ لسكان الغابة ذوي البشرة الفاتحة. وبدأ الرَّوْعُ يذهب عن زوجة رُوا رانجي. وذاتَ مساءٍ كانا يقفان أمام المنزل، فصاحت فجأةً، «انظُر!» كان التوريهو نصفُ الآدمي متَّجِهًا نحوهما بخطًى واسعة.

دخل الزوج وزوجته بيتَهما مسرعَيْن. أخذ رُوا رانجي المُغرة الحمراء بسرعة ولطخ زوجته بشيءٍ منها. في تلك اللحظة بالذات وثب نصف الآدمي داخل المنزل. بدا ضخمًا في الضوء الخافت. كان مُكَشِّر الأسنانِ وكان جلدُه الأبيض يتوهج ويُشِعُّ منه إشعاعٌ بارد. بدا كأن البرد يدخل المنزل معه.

دهن رُوا رانجي نفسه بالكوكو واي وصرخ، «لا يمكنك أن تلمسنا».

انكمش نصف الآدمي لما رأى اللون المقدس. ثم مسح رُوا رانجي الباب بالمغرة. أنَّ الجنيُّ الزائرُ أنَّةً خافتةً، ثم قفز من النافذة. تبعه الزوج الغاضب، وهو يرشق الأرض بالكوكو واي، بينما كان رجل التوريهو يتقافز هنا وهناك. لم يمضِ إلا وقتٌ قصيرٌ حتى خلت الساحةُ من مكانٍ يقف فيه. ولما رأى أن كل شيءٍ مُحصَّنٌ باللون المقدس الذي لم يجرؤ على لمسه، قفز إلى سطح بيت رُوا رانجي في قفزةٍ واحدةٍ، ثم جال بناظريه في القرية نظرةً حزينةً وراح يودِّعها بأغنية، لأنه أيضًا كان يحب امرأة رُوا رانجي. زحف أهل القرية من بيوتهم خائفين من ذلك الصوت الشَّبَحي. كان صوتًا مَشوبًا بالنشيج، فلم ينسوا قطُّ أغنية الوداع التي غناها أحد التوريهو لواحدةٍ من الماوري.

ثم قفز إلى الأرض وتَمَوَّسَ مثل طيفِ فراشةٍ في ضوء القمر.

آه، يقولون إن هذا صحيح. وإن مَغَرْتَ بابَك بالمُغْرة الحمراء، فلن يؤذِيَك في بيتِكَ أحدٌ من التوريهو أو الپاتو پاياريهي.

كيف تعلم الرجال فن الحفر

جاء أولاد القرية إلى رُوا پوپوكي، والماء يتقاطر منهم على الأرض. قالوا له وهم يلهثون، «ابنُك!»

رفع رُوا پوپوكي رأسه بحدَّةٍ وسألهم، «ابني؟ ماذا عندكم تقولونه عن ابني؟»

قال له أحد الأولاد، «كنا نسبح حين اختفى فجأةً. لم يصرخ وكان البحر هادئًا. كنا نلعب في الماء، وحين نظرنا وجدناه قد اختفى».

هبَّ رُوا واقفًا على قدميه ثم خلع رداءه عن كتفيه وهو يعدو نحو الشاطئ ثم بمحاذاة سلسلة الصخور التي كانت تمتد حتى أعماق البحر.

سألهم، «أين رأيتُموه آخر مرة؟»

فأشاروا إلى المكان. غطس رُوا بصمتٍ في الماء وغاب عن الأنظار. انتظر الأولاد ظهورَه، لكن لم يحرك سطحَ الماء شيءٌ، وتلاشت الدوّامات.

ظل رُوا يغوص ويغوص إلى العالم السفلي المظلم كأنه سمكة. كان كاهنًا وزعيمًا جبّارًا. وحتى وهو يركض كان يجهِّز نفسه لرحلته، فنادى قَرينَه من عالم الأرواح لأنه كان يعلم أن ابنَه اختطفته

الپوناتوري، أو جِنِّيّات الماء أو عفاريته التي تعيش في قعر البحر.

وما لبث أن تراءت له هيئةُ منزلٍ تتمايلُ سابحةً نحوه. لم يكن للمنزل هيئةُ منازلِ البشرِ البسيطةِ في ذلك الزمن القديم. فكل لوحٍ كان مزخرفًا بأشكالٍ رائعةٍ محفورةٍ عليه، وبدلًا من العيون كانت الزخارف مرصعةً ترصيعًا بارعًا بقواقع أُذُن البحر الفضية المتلألئة. أما جَمَلون المنزل فكانت تعلوه هيئةٌ كهيئة البشر نُصِبَت بمثابةِ تيكوتيكو.[23] وكان هذا هو ابنه.

لم ينتبه إليه رُوا بل دلف عبر المدخل الغني بالزخارف. لم يكن في الداخل إلا عجوزٌ تلألأت عيناها حين رأته.

قالت له، «كنت أعلم أنك ستأتي. أنت رُوا پوپوكي».

سألها رُوا، «أين الپوناتوري؟»

«إنهم في عملهم. لكن إن ساعدتني على سدِّ الثقوب في الجدران، سنمنعهم حتى يطلعَ الضوء ويموتوا».

بلا ترددٍ راح رُوا يساعد العجوز في سّد كلِّ الشقوق في الألواح. ولدى حلول الظلام اندفع الپوناتوري داخل المنزل ولهم جَلَبَةٌ كهديرِ شلالٍ هادرٍ.

وخلال الليل رفع رُوا ابنَه من مكانه على جملون المنزل، وسبحا معًا نحو السطح، وأخذه إلى القرية. ثم عاد إلى منزل الپوناتوري.

وحين ارتفعت الشمسُ وتحول لون الماء إلى ذهبي مائلٍ للاخضرار، سحب رُوا والحارسة سقف القش وأدخلا أشعة الشمس. أشعل رُوا نارًا ثم أضرم بها المنزل. اشتعل الخشبُ وقصبُ

الجدران تحت الماء بضراوة حتى هلك آلاف اليوناتوري من البخار وأشعة الشمس.

وبينما كانت النار تُطقطق وتَزْأر، كان رُوا ينتزع ألواحَ السقف المزخرفة، والدعامات الجانبية، والرافدة، وإطارات الباب والنوافذ، فأخذها معه وراح يسبح نحو الشاطئ. ثم سحبها على اليابسة ووضعها في بيته لتكون للبشر على مرِّ العصور نموذجًا يُحتذى في حِرْفة زخرفة الخشب.

18

كاهوكورا والجِنّ

صيادو السمك

كان كاهوكورا زعيمًا، لكنه لم يكن كغيره من الرجال. فبشرتُه فاتحةٌ مثل رمل الشاطئ الذي تحت قريته. كان شعره مَشوبًا بوهج الشمس النحاسي، وكانت في عينيه الواسعتين نظرةٌ غريبةٌ بعيدةُ السَّمت.

كان شيوخ القبيلة يتحدثون عن هذه النظرة حديثَ المحاربين القدماء بدَمْدَمةٍ خافتةٍ حين يقصُر الظلُّ على الأرض ويكون الشباب يعملون في حقول البطاطا الحلوة.

قال توهي المحارب القديم الذي كان خدُّه يحمل أثرَ جرحٍ يتقاطع مع دوائر الوشم فيه. «انظروا إليه الآن. حُقَّ للشيوخ الآنَ أن يرَوْا أيامَ شبابِهم من جديدٍ. وحين يأتي ميعادُ رحيلنا إلى تي راينْغا، سنرى رؤىً غريبةً في أحلامنا. ولكن كاهوكورا شابٌّ. فما الذي يراه وراء محيط كِيوا ولا تراه أعيننا؟»

ساد السكون بين الرجال، وتطلَّعت أعينهم من فوق القرية وسياجها الطويل إلى الرأس البرّي البعيد حيث يقف شخصٌ له هيئة سمراء عند الأفق.

كان كاهوكورا يحلم. كانت عيناه مفتوحتين، وقدماه ثابتتين في الأرض، في مواجهة البحر والأمواج المتكسرة التي كانت تتحطم على الصخور تحته. ضربت موجةٌ عاتيةٌ أسفل الجرف، فتجاوزه رذاذُها، لكنه لم يأتِ بحركة. كانت روحه تتجول في أرض الشمال البعيد، إلى بلاد الروابي والغابات، بلاد الأنهار والرمال الجميلة حيث تُحَلِّق النوارس وتزعق، وأرواحُ الموتى تُغِذُّ السيرَ إلى تي رايْنغا، إلى شجرة پوهوتو كاوا العملاقة التي تُطل على بوابة الموت.

عاوَده هذا الحلم مرةً بعد أُخرى، حلمٌ عن شيءٍ غريبٍ ينتظره في أرض الشمال البعيدة، شيءٍ يناديه، ويحضه على المغامرة إلى تلك البلاد حيث مُنتهى الأرض، ولا شيء ينتظر محاربي آوْتِيارُوا سوى أمواج المحيط العاتية.

تنهد الزعيمُ وأدار ظهره للبحر. حين يكبر سيسير على ذلك الدرب يرافقه عبيدُه. لكن إلى أن يحين ذلك الأوان، سيذهب بمفرده ما دام في مَيْعَةِ الصبا، ونَفَسُ الحياةِ مِلْء أنفه. وحين عاد إلى القرية رأى الشباب يتفقدون حبال صيدهم ويفرزون صنانيرهم العظمية. في قرية كاهوكورا الساحلية كانت هناك أفواهٌ كثيرةٌ بحاجةٍ إلى طعامٍ، فكانت الزوارق تخرج في كل الأنواءِ تجر وراءها حبالَ الصيد لعلَّهم يُضيفون إلى وجباتِ جذورِ السرخسِ والبطاطا الحلوةِ والطيورِ والجرذانِ لقمةَ سمكٍ شهيةً.

في تلك الليلة رقص الشباب في بيت الفَرح ولعبوا الألعاب بينما كان الشيوخ والعجائز يتفرَّجون، ويستذكرون أيامَ الشباب الخوالي

حين كانت أجسادُهم طيِّعَةً. لم يشترك كاهوكورا في حلقات الرقص، بل انزوى في الزاوية ساهِمَ البصر. ففي وسط الضحك والضوضاء أوحى له فجأةً هاتفٌ غريبٌ في أُذُنِه أنِ «اذهبْ شمالًا، يا كاهوكورا. اذهب وحيدًا. اذهب إلى رانجي أوهايا، إلى رانجي أوهايا، إلى رانجي أوهايا».

حين انتهت الألعابُ واستلقى قومه على حصائرهم نائمين، نهض كاهوكورا برفقٍ وتخطى النائمين. لم يكن إلا توهي مستيقظًا. راقبت عيناه المتلألئتان الزعيم المرتحل وهو يقف للحظةٍ في ضوء القمر ثم يغادر. كان توهي حكيمًا. لم يقل كلمةً واحدةً حتى عندما راح أبناءُ قبيلته يبحثون بلا طائلٍ في الصباح عن زعيمهم المفقود. لقد بدا له أن كاهوكورا يعرف ما يصنع، فارتأى أن من الأسلم ألا يتدخل.

ظل كاهوكورا يسافر شمالًا يومًا بعد يوم، ولا يتوقف إلا حين يغلبه الإرهاق. كان يأوي إلى الصخور أو رُقَع الطحالب في الغابة أو بين الأعشاب الطويلة ويرتاح. كان أحيانًا يتجمد من المطر، وأحيانًا يسير تحت أشعة الشمس اللاهبة وهي تعبر السماء ببطءٍ بعد أن قيدها ماوي وإخوته بالحبال. كان القمرُ، مَراما، ينظر أحيانًا فيبتسم لهذه الهيئة المتناهية الصغر وهي تسير متثاقلةً لكن بثباتٍ باتجاه نهاية الأرض.

جاء كاهوكورا إلى مكانٍ كانت فيه رياحُ الخريف تُطوِّح أوراقَ نباتاتِ الكتان الطويلة. كانت بعض هذه الأوراق معقودةً مع بعضها بإحكامٍ، فعرف أن أرواحَ الموتى تعبر من هنا. وفي الليل بدا

له أنه يسمع أنّاتِ الراحلينَ، فتعلو فوقها همسةٌ مُلِحَّةٌ زاجرةٌ، «إلى رانجي أوهايا».

ثم أتت ليلةٌ لم يعد يسمع فيها الصوتَ. كان هناك خُلوٌّ من الصوتِ عظيمٌ، وكان حفيفُ الأمواج على الرمال مثل صدى من عالمٍ للأرواح فيه حركةٌ وحياةٌ لكنه يكاد يخلو من أيِّ صوتٍ. أغمض رانجي أوهايا عينيه لكن لم يأته النومُ. ارتعد إذ سمع أنغامًا خافتةً تأتيه من الطرف الآخر للماء. راحت الأنغام تقترب وسمع صوتَ مجاديف، ثم أصواتًا تضحك وتغنّي. نظر إلى الطرف الآخر من الشاطئ ورأى في الظلام أنوارًا ساطعة: أنوار التوريهو، سكانِ آوتِيارُوا من الجِنِّ ذوي البشرة الفاتحة. كانت الزوارق تنساب على الماء الذي كان يتكسر على شكلِ مصابيحَ صغيرةٍ متراقصةٍ. كان التوريهو يصطادون السمك.

تذكر هاكوكورا أنه في العتمة، حين استلقى لينام تلكَ الليلةِ، كان قد رأى قطعًا من السمك متناثرةً على الشاطئ، لكنه لم يرَ أثرًا لأقدامٍ بشريةٍ تدل على وجود صيادين. لا بد أن هذه رانجي أوهايا، الأرضَ التي يرتادها الجن لصيد السمك.

زحف إلى حافة الماء. حجبه الليلُ الخَفِيُّ به عن أعينهم. اقتربوا من الشاطئ الآن، وسمعهم يقولون، «الشبكة هنا! الشبكة هنا!» لم يفهم كلامهم. ما هي «الشبكة»؟ لم يكن هاكوكورا يعرف من وسائل صيد السمك إلا الصنارة والحبل والرمح. أما هذه فمن كلمات الجن، ولا بد أن تكون هذه من سحر الجِنِّ.

اقتربت الزوارق من الشاطئ أكثر. وكانت متباعدةً عن بعضها وكان بينها على شكلِ هلالٍ عظيم حبلٌ متألقٌ تومِضُ داخلَه ومضاتٌ من النار تنطلق ذهابًا وإيابًا في الظلام بينما كانت الأسماك تتقافز في الماء. لامست الزوارق الشاطئ ووثب الجنُّ منها. أدرك هاكوكورا أن الحبلَ المُبَقبِقَ الغريب لا بد أن يكون هو الشبكة. كانت الأسماك تتقافز في كل مكان، وكان يسمع أجسامها وهي تلطم الماءَ طالعةً منه وراجعةً إليه. كانت الجن تجمع أطراف الشبكة. اقترب هاكوكورا منهم واختلط بهم. كانت بشرته مثل بشرتهم، ولم ينتبهوا في الظلام أن بشرًا فانيًا كان يساعدهم. كان هاكوكورا يسحب الحبل الكتاني، فشعر بعُقَدٍ رطبةٍ من الأَسَل تمُرُّ من بين يديه.

اندفع الجن اندفاعتهم الأخيرة على الشاطئ وكان هاكوكورا في وسطهم. كان هلالُ الشبكة الصغير مُفعمًا بكتلةٍ فضيةٍ تُصارع. كانت في الشباك غنيمةٌ هائلةٌ من السمك. ألقى الجنُّ طرفَ الشبكةِ على اليابسة وعادوا يركضون إلى حافة الماء.

أمسكوا بالأجسام المضطربة وأخذوا يَنْظِمونها في حبالٍ، وكان كل واحدٍ منهم يعمل بمفرده على عجلٍ مخافةَ أن يطلع الفجر قبل أن ينتهوا. كان هاكوكورا يَنْظِم حبله بالأسماك، لكنه لم يعقد الحبل من نهايته، لذلك حين رفع حبلَه انزلقت الأسماكُ فوقعت على الرمل. رآها جِنّيٌّ تنزلق فألقى حِمْلَه وجاء لمساعدة هاكوكورا وعقدِ الحبلِ بشكلٍ صحيحٍ. ولمّا ابتعد الجني، حلَّها هاكوكورا مرةً أخرى. عندئذٍ رفع حِمْلَه، فسقطت الأسماك على الرمل. جاء جنيٌّ لمساعدته.



بقيت شبكة الجن في يدي كاهوكورا.

ظل يمارس هذه الخدعة على التوريهو الذين لم يشتبهوا بشيءٍ. كان يراقب السماء الشرقية، فرأى بصيصَ ضوءٍ خافتٍ. راح هذا البصيصُ يتعاظم حتى رأى الأجمة على الشاطئ وصخرةً كبيرةً تنتصب في البحر كأنها حارسةٌ له. أسرع الجنُّ راكضين إلى زوارقهم بأحمالِهم من السمك، ولكن أسماك كاهو ظلت تتساقط من حبله غير المعقود، وظل الجنُّ يساعدونه. كان الضوء يتعاظم. كان الجنُّ سيأخذون الأسماك كلها لولا أن هاكوكورا أَخَّرَهُم.

أشرق شعاعٌ من الضوءِ ساطعٌ فوق المحيط، فأنار الغيوم. دوَّت من التوريهو صرخةُ فَزَعٍ. وأخيرًا أدركوا أن معهم رجلًا. اندفعوا نحو زوارقهم عند الشاطئ ولكن بعد فوات الأوان. كانت تاما نْوِي تي را، الشمس الساطعة، ترسل أشعتها على امتداد المحيط. وصار لون الرمل ذهبيًا في الضوء. تبعثر الجِنُّ واختفوا؛ انكمشت الزوارق وتفتتت حتى لم يبقَ إلا حُزَمٌ من الأَسَل وسُوق الكتان. وتلاشت أصواتُ الجن.

وقف كاهوكورا وحيدًا على الشاطئ المتلألئ. كانت الأسماك قد ذهبت، ولم يبقَ إلا شيءٌ واحدٌ. كان يُمسك بيديه حبالًا من الكتان المحبوكِ بأنماطٍ عجيبةٍ والمسترطبِ بماء البحر. تذكر صيحة التوريهو، «الشبكة هنا!»

كان توهي هو أول من رآه يعود، توهي الحكيمُ الذي حيَّاه قائلًا، «مرحبًا بالزعيم الذي سَرى في الليل لغايةٍ في نفسه، وقد عاد في النهار بعد أن ضربَ في الأرض وجاء بكنزٍ ثمينٍ».

التمعت عينا كاهو. كان يحمل على كتفيه شبكةً من الكتان المحبوك. التمَّ الناس على ندائه، لكنهم خافوا أن يكون قد جُنَّ، لأنه لم يرد على تحيتهم إلا بقوله، «الشبكة! الشبكة!»

ذهب الشباب بالشباك الطويلة التي علَّمهم كاهو كيف يصنعونها، إذ كان قد درس كيفية ربط العُقَد وهو عائدٌ إلى موطنه. فبدلًا من سمكةٍ واحدةٍ تتلوّى على صنارةٍ أو شوكةِ رمحٍ، صار الشبابُ الآن يغنمون كمياتٍ من السمك، فصارت هناك وفرةٌ منه للزعيم والمحارب، للنساء والأبناء، للبنات بل حتى للعبيد.

وهذه كانت الأُعطية التي غَنِمها كاهوكورا من صيادي السمك من معشر الجنِّ في رانجي أوهايا في سالف الأزمان.

19

شَبَحا الغربِ الهامِسان

هذه قصةٌ عن الآيتانغا آنوكو مايْ توري، أنصاف البشر الذين عاش بينهم المغامر تورا.

ذهب صديقان هما پونغاريهو وكوكو موكا هاو ناي لاصطياد سمك الباراكودا. هبَّت عاصفةٌ فجأةً فساقتهما إلى عرض البحر. ظلت الريح تسوقهما يومًا بعد يومٍ. وحين هدأت الريح وهدأ البحرُ، كان شراعهما قد تمزق، وكادت مؤونتهما تنفد. لحسن الحظ ما لبثا أن وصلا إلى مكانٍ ضحل عنده الماء، فبلغا وَهْدَةً من الأرض.

سحبا الزورق على الشاطئ وبحثا عن حطبٍ ليجففا على ناره ملابسهما المسترطبةَ وليدفئا جسديهما من البرد. لم يجدا سوى بعض نباتات العُلَّيْق وبعض الشجيرات، ولكنهما كانا واسِعَيْ الحيلة. فقد انتزعا خشب الصنارات، ووضعاه تحت آباطهما لكي يجف. ثم أشعلا نارًا في أغصان صغيرة، ووضعا الخشب عليها وطبخا عليها ما تبقى لديهما من طعامٍ قليلٍ. وبعد أن استعادا طاقتهما، انطلقا يستكشفان البلاد.

ثم ما لَبِثا أن عثرا على آثار أقدامٍ غريبةٍ في التربة الطرية. وبدا أنها لرجلٍ أفْحَجَ كان يسير متوكئًا على عصا. تبعا الآثار حتى وصلا إلى غابةٍ وسمعا أصوات فؤوسٍ. تقدَّما زحفًا ونظرا من بين الغياضِ.

كان الآيْتانغا يقطعون الأشجار ويُشذِّبون الأغصان. وكلما غاصت فأسٌ في الخشب وطارت كِسْرة في الهواء، تبعها حامل الفأس بعينيه.

قال پونغاريهو لصاحبه كوكو موكا، «يا رجل، إن عيون هؤلاء القوم لا تغفل عن المراقبة، فحَذارِ!»

ردَّ عليه، «لم يَرَوْنا حتى الآن على الرغم من بصرهم الحاد».

زحفا على بطنيهما مثل السحالي حتى وصلا إلى مكانٍ كان فيه واحدٌ من الآيْتانْغا يعمل بمفرده. تقدَّما نحوه ببطءٍ، ثم وثبا على أقدامهما. طوَّقه پونغا من خصره ثم سحبه تحت غطاء الشجيرات، بينما كمَّم كوكو فمه ليمنعه من الصراخ. وحين صارا في مأمَنٍ بعيدٍ من الفسحة المقطوعة الأشجار، فكّا قيده وجلسوا.

نظر إليهما رجل الآيْتانغا بعينين متسائلتين وقال، «من أين أنتما؟»

قال له پونغا بشيءٍ من المرح والظرَف، «أوه، لقد أتينا من الداخل على أجنحة الريح».

نظر إليهما الرجل نظرةً ثابتةً وسألهما، «من أين أنتما؟»

أجابه پونغا، «لقد أتينا كلينا من هَوايْكي من وراء بحارٍ بعيدةٍ، من بلادٍ لا تعرفها. أين تسكن؟»

«عليكما أن تتبعاني وسأُريكما. عودا معي إلى قومي».

عادوا إلى الفسحةِ المقطوعةِ الأشجارِ والتقوا بالعمال الآخرين الذين احتشدوا حولهما، وراحوا يلمسون بشرتهما ويتحسسون ملابسهما. ثم انطلقوا جميعًا على أحد دروب الغابة. لحق بپونغا وكوكو أحدُ الزعماء وقال لهما، «إننا نقتربُ من مساكننا. يبدو أنكما

رجلان وَدودان، لكن عليَّ أن أحذركما. إن جاءكما أيٌّ من قومنا مُكَشِّرًا وجهَه وراح يرقُص، فتجاهلاه. وإن ضحكتما سيقتلكما».

وحين وصلوا إلى المساكن شاهدا القوم الغرباء في منازلهم الكائنة في قمم الأشجار. صعدوا إلى أحد هذه المنازل وُوِضع أمامهم طعامٌ. وكان من لحم الحوت النيِّئ الفاسد الذي أكله الآيْتانْغا بشهيةٍ. تمكن كلٌّ من پونغا وكوكو من إخفاء اشمئزازه، ثم وضع جانبًا حصته غير المأكولة من غير أن ينتبه إليه أحدٌ. ظلا يتحدثان إلى مُضَيِّفيهما طيلة فترة العصر، ثم جيء إليهما على العَشاء بذات الطعام كما من قبل.

أُخِذا إلى بيتٍ آخر في شجرةٍ أخرى ثم بدأت ليلةُ السمر. كان الراقصون يحملون أسلحةً، وهذا من شعائر الرقص عندهم، وكانت هذه الأسلحة مصنوعةً من حجر الصَّوّان ومن الخشب المرصَّع بأسنان القِرْش. ثم بدؤوا رقصةً غريبةً وأنشدوا بعض الأشعار التي كانت تحذيرًا مفيدًا للزائرَيْن.

الآن اضحكا،
الآن لا تضحكا.
الآن اضحكا،
الآن لا تضحكا.

ورافق هذه الأشعار طعناتٌ مخيفةٌ بالأسلحة الحادة المصنوعة

من الصوان وأسنان القرش، ولم يجد پونغا وكوكو صعوبةً في كبت ضحكاتهما.

بحلول اليوم التالي، كاد أن يُغمى عليهما من الجوع. فأشعلا نارًا، وحين انتشر الدخان هنا وهناك، اجتمع القوم في دائرةٍ كبيرة ليروا ما يصنع الغريبان، فأنشدوا فجأةً:

شَبَحَيْ الغربِ الهامِسَينِ
مَن جاء بكما
إلى بلادنا هذه؟
هيا انهضا واذهبا.

لم يأبه لهم پونغا وكوكو. بل حفرا حفرةً، ووضعا النار فيها، ونصبا فوقها أحجارًا، وحين توهجتِ الحرارةُ، وضعا الطعام على أوراق خضراء، وغطَّيا الموقد.

وحين رُفِع غطاء الموقد وفاحت الرائحة الذكية اقتربت منهما الدائرة. قدَّم الشبحان الهامسان الطعام للآيْتانْغا الذين زالت شكوكهم حين أقبلوا جميعًا على الطعام.

قالوا لهما، «أنتما صديقان لنا. أنتما كِيْهُوا. أنتما شبحان جباران وقد جئتما لمساعدتنا في الشدائد».

رد پونغاريهو، «بل أنتم الأشباح. أو على الأقل، لستم بشرًا. فكيف نساعدكم؟»

كرروا طلبهم، «أنتما شبحان جبّاران. ساعدانا، يا شبحَيْ الغرب الهامسين».

سألهم پونغاريهو، «ما هي مصيبتكم؟»

قالوا، «إن مصيبتنا هي پُواكايْ، آكل البشر. إنه طائرٌ يأكل قومنا».

«أين يعيش؟ هل يأتي إلى قريتكم؟»

«لا، إنه يعيش عند النهر، وحين نذهب لنجلب الماء لنروي به عطشنا، يأسُر قومَنا ويطير بهم».

«هل تستطيعون رؤيته حين يُقْبِل؟»

«نعم».

«إذًا، سنحاول أن نساعدكم. خذونا إلى مكان ظهوره، وساعدونا على بناء منزلٍ على الأرض».

زحفوا إلى البركة المظلمة في النهر في الصباح الباكر. وبينما بقيت نجمةٌ أو نجمتان ساطعتان ترعاهما، نصبا العوارض بصمت وثبتاها بالكتان ونسجا الجدران والسقف من أغصان الأَسَل. لم يكن هناك بابٌ بل نافذةٌ واحدةٌ. تسلل پونغاريهو وكوكوموكا داخل المنزل وأمرا الآيْتانغا أن يعودوا إلى القرية وأن يرسلوا واحدًا منهم عند بزوغ الفجر.

جلسا صامِتَيْنِ داخل المنزل وهما يرتجفان في الهواء المشبَّع بالرطوبة ويراقبان النجوم تخفت وتأفل. سطعت في السماء حُزَم الضياء وبدأت الطيور تشدو لِمَقْدَم الفجر.

سمعا شخصًا يُجَرجِر قدميه وهو يحمل حَوْجَلة إلى الماء. توقف

نشيدُ الفجر، فسمع پونغا وكوكو خفقَ أجنحةٍ بطيئًا أعلى من صوت بقبقة الماء في الحَوْجَلة. بدا البُوا كاي من فوق قمم الأشجار مثل ظلٍّ داكنٍ في ضوء الشمس المشرقة. انقضَّ صائلًا فدهمت المنزلَ هَبَّةٌ من هواءٍ نَتِنٍ. كانت رقبةُ الطائرِ العملاقِ القبيحةُ ممدودةً، ولما تجاوز نافذةَ المنزلِ كان منقارُه بارزًا مثل لسانِ الرمحِ الحادِّ المدبَّب. برز پونغاريهو من النافذةِ وسدَّد ضربةً قويةً من فأسه الحجرية حطَّمت جناحَ المخلوق الرهيب. خرَّ الطائر مائلًا، وكان منقارُه يطعن الهواءَ وعيناه تُحدِّقان في المنزل الهَشِّ المُهَلْهَل لكنه لم يستطع أن يكتشف ما فيه من أعداء. وحين استدار نصفَ دورةٍ، استغل كوكو موكا الفرصةَ، فضرب جناحَه الآخر، فأسقطه على الأرض عاجزًا.

قفز الصديقان بخفةٍ من النافذة. قفزا فوق المخالب التي كانت تخمش الهواء، ونجيا من المنقار الحادِّ، وحطَّماه حتى الموت. أطلق الشيخُ صيحةَ انتصارٍ مرتجفةً، فجاء الآيْتانغا أفواجًا أفواجًا لِيَرَوْا عدوَّهم الهالِك، وراح بعضهم يرقص حوله رقصًا ساخرًا وتجرأ آخرون وذهبوا إلى عرينه ليتعجّبوا من كومةِ عظامِ البشرِ الهائلةِ، وليعجبوا من جرأة شبَحَي الغربِ الهامِسَيْن.

لو رغب پونغا وكوكو أن يبقيا، لَعاشا مثل إلَهَيْن إلى آخر أيامهما، ولكن الآيْتانغا كانوا، كما اكتشف تورا من قبلُ، غريبةً أطوارُهم للبشر. راح كلاهما يفكر في موطنه وزوجته وأطفاله وساعةِ السرور بعد وجبة المساء في ساحة القرية حين يتسامر الرجال والنساء ويُحيي الشبابُ الليلَ بالرقص والغناء.



استلقى الطائرُ العملاقُ على الأرض بلا حولٍ ولا قوة.

عادا إلى زورقهما وأصلحا الأضرار التي لحقت به جرّاء العاصفة وغادرا شواطئَ أرضٍ لا يمكنها أن تكون لهما وطنًا أبدًا وعادا إلى وطنهما.

لم يكن هناك من يستقبلهما حين سحبا الزورق على الشاطئ. صاحا فكانت صيحتهما بائسةً مثل نداءِ نورسٍ وحيدٍ. ذهب كلاهما إلى بيته ليجد الحشائش والأعشاب قد نمت عليه بكثافةٍ، واهترأت الجدران وتكسرت في بعض الأماكن، وحين دخلا وجدا رائحةَ عفونةٍ من قلة الاستعمال.

همس پونغاريهو قائلًا، «لقد هَرِمْنا، وماتت عائلاتُنا!»

خرجا وآنَسَا من مسافةٍ منزلًا آخرَ تتصاعد من فتحةٍ في سقفِهِ فتيلةُ دخانٍ ضئيلةٌ. ذهبا إليه على رؤوس أصابعهما، وفتحا الباب برفقٍ، وانسلَّا داخِلَيْن. كانت هناك عائلاتٌ كثيرةٌ، فكان هناك من الدفء ورائحة الأهل والعشيرة ما يُتَعزّى به. طافا يتفحصان وجوه النائمين، زمرةً فزمرةً.

انحنى پونغاريهو على امرأةٍ ذات وجهٍ أليفٍ، فتحركت في نومها وهي تُتَمْتِم:

حين يأتي المساء

يعود حبيبي

ها أنا أسمع صوتَه

في البعيدِ البعيدِ

وراء ذُرى الجبالِ
وراء البحارِ المُفَرِّقةِ للمُحِبّين
هناك حيث الصدى ينادي
نداءَ العابثين.

وحين جاء الصباحُ ومدَّت الشمس أصابعها الفضولية من خلال الباب والنافذة، استيقظ النائمون ورأَوْا غريبَيْنِ يضطجعان عند رماد الموقد.

ذهبت إليهما امرأتان، فقالت إحداهما للأخرى، «هذان زوجانا الأولان اللذان ظننا أنهما ماتا منذ زمنٍ بعيدٍ. لقد عادا إلينا بكامل شبابهما ورجولتهما».

وقفت العجوزان، وقد شبَّكت كلٌّ منهما يديها، والدمع يفيض على خديها المتجعدين ويتساقط على رماد النار الخامدة.

20

پيها والعفاريت

شق پيها آني تونغا طريقَه عبر الغياضِ المُلتفّة وهو يحدق في الأشجار الطويلة. كان يبحث عن شجرةٍ قويةٍ يصنع منها مؤخرةَ زورقِه. وجد ما كان يبحث عنه في فُرْجَةٍ صغيرةٍ مُظللة. كانت تحيط بشجرته التي انتقاها أشجارٌ أطول، لكن كان لديه مُتَّسَعٌ يَنُوشُ فيه فأسَه من أي جانبٍ شاءه. قعد على زَندٍ خشبيٍ واقعٍ على الأرض، وراح يتفحص الشجرة. أجل، ها هو يرى مؤخرةَ زورقِه ترتسم في مخيلته، وتتحول إلى زخرفةٍ غيرِ مرئيةٍ من المنحنيات والدوائر الدقيقة. ثم امتقع وجهه. لقد تذكَّر عَدُوَّهُ پاروكاو من القرية التي عند النهر. كان پاروكاو بارعًا في فنونِ السحرِ وعدوًّا خطرًا، لكنه كان وضيع الأصل. كان پيها قد سمع أنه يتبجَّح ويقول لقومِه إن زورقَه سيكون أفضلَ زورقٍ في الساحل كلِّه حين ينتهي منه.

نهض وأبعد پاروكاو من فكره. أمسك بمقبضِ فأسِه بإحكامٍ، وراح النصل المصنوع من الحجر الأخضر يَفُتُّ في الخشبِ الصلبِ، لكن الشجرة بقيت صامدةً. وقف پيها مثل حجرٍ. صدر من الشجرةِ صريرٌ مخيفٌ. أصاخ السمع لكن الغابة كانت صامتةً كما كانت من قبل. كانت الطيور صامتةً والريحُ في الأشجار قد خمدت حتى لكأن الأوراقَ قد تخشَّبت بلا حراكٍ تتوجَّس من شيءٍ واقعٍ. كان الهواء



حدَّق بِها في وجه العفريت مذعورًا.

باردًا على جسده، فأدرك على الفور أنه يقف على أرضٍ مقدسةٍ لا ريب.

ثم وقعت الواقعة! دوَّت في فُرجةِ الغابةِ ضحكةٌ جوفاءُ ساخرةٌ. التفَت وراءه، وراحت عيناه تفتشان في مُلْتَفِّ الغِياضِ، لكن ما من أحدٍ. دوَّت القهقهة الساخرةُ مرةً أخرى، فتطلع إلى الشجرة فوقه. انكمش من شدة الرعب، إذ رأى على بُعدِ أقدامٍ فوقه على غُصنِ شجرةٍ أجردَ وجهًا مستديرًا أصلع. كان حيًّا لأن جلدَه تغضَّنَ وضاقتْ عيناهُ حتى صارتا مثل شِقٍّ لمّا قَهْقَهَ ثانيةً. لم يكن يجثمُ على غصنِ الشجرةِ إلا رأسٌ بلا جسمٍ أو ذراعين أو ساقين تحملانه.

تلا پيها بعض التعويذات ودعا أسلافه ليُنجدوه. فما لبث أن شعر بالدم يسري دافئًا في عروقه من جديدٍ وزال عنه الرَّوعُ من الرأس المخيف. لكنه ما إن لامَس فأسَه حتى دوَّت الصرخةُ الغريبةُ من جديدٍ. هذه المرةَ تَبِعتْ الصرخةَ قهقهةٌ ساخرةٌ آتيةٌ من كلِّ جانبٍ، ولم تكن قهقهةً واحدةً، بل قهقهاتٌ كثيرةٌ. اقتربت الأصواتُ أكثر فأكثر حتى بدت كأنها على بُعدِ بوصاتٍ فأصَمَّت أُذُنَيْهِ. نهضت من الأرضِ رُقاقةٌ من خشبٍ، ترفعها أصابعُ خفيةٌ. نُتِرَت إلى الوراء ثم قُذِفت عليه مثل سهمٍ. ارتدَّت عن كتفه، وتبعها سيلٌ من رُقاقاتٍ وشظايا تنهالُ عليه من كل صَوْبٍ، بينما واصلَ الوجهُ المُكشِّرُ تحديقَه فيه من الغصنِ، والقهقهة الغريبةُ تعلو وتهبط من حوله. أصابته قطعةٌ حادةٌ من الخشب في وجهه وشعر بالدمِ يجري على خدِّه.

عندئذٍ تأهَّبت لديه روحُ القتال. فأمسك غصنًا غليظًا كان مُلقىً

بجانب الشجرة، ولوَّح به فوق رأسه. فدوَّى في أذنيه استهزاءٌ ضاحكٌ. هجم پيها بالهِراوَة الخشنة بكلِّ ما أُوتي من قوةٍ باتجاه مصدر الضحك. توقف الضحك فجأةً وحلَّ محلَّه أنينٌ، وشعر أن الهِراوةَ ترتطم ثم تغوص في لحم لا يُرى. واصل هجومَه وكان للعصا على العظام واللحم وقْعٌ مكتومٌ، وشَعَر بتنميلٍ في أصابعه. تلاشى الضحك وأيقن أنه بات لوحده ما خلا الرأس الذي كان يومئ ويغمِز له من الشجرة.

التقط پيها فأسه وخرج من الغابة. سمع الضحكَ من جديدٍ، لكنه كان أكثر خُفُوتًا. كان الرأسُ يرافقه، قافزًا من شجرةٍ إلى شجرةٍ، مرةً أمامه ومرةً وراءه، إلا أن عينيه كانتا لا تفارقانه لحظةً واحدةً.

تنهَّد تنهيدةَ ارتياحٍ حين تضاءلت كثافة الأشجار وخرج إلى السهل المفتوح. كانت قريته تقبع على مسافةٍ ووراءها تقع القرية النهرية التي يعيش فيها پاروكاو. وكانت أمامه مباشرةً قريةٌ مهجورةٌ قديمةٌ يستخدمها الناس منذ سنين كثيرةٍ لدفن موتاهم.

أصدر الرأسُ صوتًا أشبهَ بالنعيق وتجاوزه مسرعًا، وكاد يلامسه فشعر بِهَبَّةِ ريحٍ باردةٍ جَرّاءَ مروره. تَلَبَّث فوق المقبرة قليلًا ثم انقضَّ إلى الأرض فانفتحت له وتَمَوَّس فيها.

كان پيها لا يزال يمسك بعصاه في يده. أسرع إلى المقبرة، فتَسَوَّر أسوارَها التي تآكلت بفعلِ عوامل الجو وراح يُقلِّب التربةَ بِهراوته. فما لبث أن وجد جثةَ رجلٍ مدفونٍ تحت الأرض وهو منتصبُ القامة. راح يحفر التربةَ الطريةَ من حول الجثةِ حتى حررها وصار

بإمكانه انتشالُها.

خطر لپيها هذا الخاطر، «هذه من حِيَلْ الجِنِّ، وما أنا بِعبْدٍ تخدعه مثلُ هذه السخافات».

وقفت الجثةُ الهامدةُ متصلبةً على قدميها. تراجع پيها ثم ضربها بهراوته. اضطربت هيئةُ الرجلِ وتغيرت أمام ناظريه. بدت له هذه الهيئة وكأنها مألوفةٌ. حدَّق فيها پيها مشدوهًا. فالرجل الذي انتشله من باطنِ الأرض لم يعد موجودًا، بل اتَّخذ هيئةَ عدوِّه پاروكاو الذي يعيش في القرية النهرية. نظر إليه پاروكاو، ثم استدار وطَفِقَ يعدو في غيهبِ الغسق. شعر پيها بقوةٍ مُضافةٍ تجيشُ في داخله.

في اليوم التالي، توجَّه إلى القرية النهرية. رأى پاروكاو من بعيدٍ لكنه تجاهله. وحين أقبل الليلُ انضم إلى الآخرين في المنزل الكبير.

سأله زعيم القرية، «لماذا تأتي لزيارتنا يا پيها آني تونغا؟ هل سَئِمْتَ قريتك؟»

هَبَّ پيها واقفًا على قدميه، ثم راح يَذْرُع الأرضَ بين الرجال والنساء المصطفّين في المنزل ثم عاد إلى أصل العمود الذي كان يجلس عنده.

«كنتُ في الغابة أقطع شجرةً، وكان المكانُ مسكونًا..». كانت عيناه تقدحان شررًا وهو يروي قصةَ مغامرتِه. «فلأي سببٍ تظن أنني جئتُ قريتَكم، أيها الزعيم؟»

أومأ إليه الزعيم وقال، «قِفْ بجانبي، يا پيها، يا سليلَ المحاربين. وما پاروكاو إلا جسدُ رجلٍ خاوٍ. لقد أُشْرِبْتَ قُوَتَه فيك، وأنت الآن

لك روحُ رَجُلَيْن في جسدٍ واحدٍ».

غادر پيها المنزل، مارًّا من جانبِ پاروكاو الذي كان ينزوي عابسًا حَرِدًا عند الباب، وراح يذرُع الأرض إلى قريته على الرابية، غيرَ آبهٍ بالأرواح والأشباح التي تطوف في الليالي بعد أن صارت لديه قوةُ رجلين. لقد انضمت روحُ پاروكاو إلى روحِ پيها آني تونْغا.

21

حكاياتٌ عن تاني وا

آوْتِيارُوا مسكونةٌ بتاني وا، غرائبِ وحوش البر، ونْغارارا، غرائب وحوش البحر. وكلّاً جعلها سحرُ الرجل الأبيض تنام، لكنها تكمن مستترةً تحت الروابي وأعماق المياه. وكلُّ قبيلةٍ لديها قصصٌ عن هذه الوحوش الآكلة للبشر، لذلك علينا أن نتذكر أن الحكايات التي نرويها هنا هي حكايات السَّمَر التي يرويها شيوخ القبيلة حين ينام الأطفال ويتراقص ضوء النار على جدران المنزل المصنوعة من القصب ويزدحم الظلامُ بأشياءَ غريبةٍ من الماضي.

وإليكم حكاياتٍ لليلةٍ واحدة، لكن حكايات الضب لا تنتهي مثل ليالي حياة الإنسان.

الضّبُ تاني وا

إن رؤية كايْ وَاكا رُواكي كفيلةٌ بأن تجعلك ترتعد. كانت بشرتُه رطبةً ومبيّضَّةً من العيش في الكهف المظلم في الغابة. فحين يجرجر جسده الكريه على الأرض، تهرب حتى الطيور. بينما كان يبحث عن طعام ذاتَ يوم، باغَتَ امرأةً في الغابة. تجاهل صراخها وسحبها إلى الكهف حيث اتّخذ منها زوجةً. لم يكن يخشى أن يفقدها لأنه إذا دخل الكهف سدَّ مدخلَه بجسده، وإن خرج ربطَ شَعرَها بحبلٍ طويلٍ من



استُدْرِج التاني وا إلى المنزل.

الكتان وأمسك بطرفه الآخر. وكان بين الحين والآخر يشد الحبل ليتأكد من وجودها.

بينما كانت الأيام تمضي، كانت المرأة تفكر في خطةٍ للهرب. فهي لا تستطيع أن تغلب الوحش في الركض، لذلك لا تستطيع أن تنال حريتها إلا بالحيلة. وأخيرًا فكرت في خطةٍ ووضعتها موضع التنفيذ في أولِ سانحةٍ.

حين غادر كايْ الكهفَ بحثًا عن طعامٍ، خرجت وقطعت الحبلَ المربوطَ بشعرها بِصَدَفةٍ مَسنونةٍ. أمسكَت طرف الحبل المقطوع بيديها، ثم ربطته بشتلةٍ فتيةٍ. كانت تسمع الضبَّ من بعيدٍ وهو يتخبط بين الأشجار بينما الطيور المُجْفِلة تحلق عاليًا.

وسرعان ما نَتَر الحبل وشدَّه. انحنت الشتلة مع الشد ثم استوت من جديدٍ. حبستْ أنفاسها مدةً. ثم سمعت الضبَّ يبتعد فأيقنت أنها في مأمنٍ.

هُرِعَت مباشرة إلى قريتها وحكت قصتها لأصدقائها وصديقاتها الذين قرروا أن يقضوا على الضب. عمل الرجال على بناء منزلٍ كبيرٍ يتسع لجسد كايْ وَاكا رُواكي المقرف. وحين فرغوا منه، أرسلوا أحد شبابهم ليدعو الضبَّ ليأتي ويعيش معهم.

دخل الداعي الغابةَ بحذرٍ، وأعلن دعوتَه بأعلى صوته، ثم قفل راكضًا إلى القرية غير المُسوَّرة.

كان الكل يجلسون في ساحة القرية ويراقبون الغابة التي زحف منها الوحشُ إلى أقرب منزلٍ. وسرعان ما انفرجت الشُّجيراتُ

وخرج كايْ وَاكا رُواكي. خبأ الأطفال الصغار رؤوسَهم في صدورِ أمهاتهم، بل حتى المحاربون تراجعوا قليلًا بينما كان الوحشُ المرعبُ يتهادى نحوهم، ورأسُهُ ينوفُ منازلَهم، وعيناه تقدحان مثل جمرتين.

ثم سأل في صوتٍ خشنٍ، «أين زوجتي؟»

تقدمت المرأة بجسارةٍ أخجلتْ المحاربين، وقالت له برقةٍ، «لا تخَفْ، يا كاي واكا. أنا زوجتُك».

«لماذا هربتِ؟»

قالت له، «لقد سئمتُ البردَ والرطوبةَ في كهفك. هذا موطني، وعليك أن تأتي وتعيش معي. انظر، لقد بنى رجالُ قبيلتنا بيتًا لنا».

أدار كايْ وَاكا رُواكي رأسَه ونظر إلى البيت الهائل الذي بُني للتو. بدا عليه السرور، فقال، «في البدايةِ، ظننتُكِ تحولتِ إلى شجرةٍ، لكن إن كان هذا هو موطنك، فهنا سأبقى».

رفع رأسه ونظر إلى الناس وقال، «احرصوا على إطعامي، وحذارِ من إغضابِ كايْ وَاكا رُواكي. أنا ذاهب للنوم الآن، فابعثوا إليَّ زوجتي». ثم دخل المنزل بتثاقلٍ.

همست المرأة قائلة، «آن الأوان. وأنتم تعلمون واجبَكم».

كَوَّموا أغصانًا مقطوعةً وأشجار المانوكا حول جدران المنزل.

سأل كاي بصوتٍ كالرعد، «أين زوجتي؟ ابعثوها إليَّ، فقد حلَّ الظلام».

وبينما راحت كومة الحطب تعلو، أخذوا قطعة خشبٍ، وألبسوها ملابسَ المرأة، ودفعوها إليه عبر الباب، ثم أغلقوه بسرعة. وسرعان

ما اكتملت كومةُ الخشب. دسَّ الزعيم فيها مِشعلًا، فاشتعلت النار في الأغصان الجافة وسرَتِ النارُ في الأغصان، وهي تُطَقْطِقُ وتتقافز في الظلام.

سمعوا كاي ينقلب على أحد جانبيه، إذ زلزلت الأرضُ تحت أقدامهم. فنادى، «ما هذه الضوضاء التي أسمعها؟»

«اهدأ، فهذه الريح تزأر في قمم الأشجار. هناك عاصفةٌ قادمةٌ».

في هذه الأثناء اشتعلت جدران المنزل وأدرك كايْ أنه غدر به. اندفع متخبِّطًا داخل سجنه الضيِّق ولكن ألسنة اللهب ظلت تردعه إلى أن مات بعد أن تهاوت عوارضُ السقف ببطء واندفعت في السماء كتلةٌ من اللهب.

لكن كايْ وَاكا رُواكي لم يُقْضَ عليه كاملًا، فقد نجا ذيلُه. فحين سقط الذيل عن جسده، تملَّص من تحت الخشب المشتعل وهرب إلى الغابة حيث لا يزال أبناؤه يعيشون إلى يومنا هذا على هيئة موكو پاپا، ضِبابِ الأشجار الصغيرة.

آه، هذه قصةٌ حقيقيةٌ أخرى. أَفَليس لنسل ذيل كايْ وَاكا رُواكي الصغار القدرة على فقدان ذيولهم من غير أن يتأذوا؟

وحشُ واي كاريمونا

ترقد واي كاريمونا، زينةُ البحيرات وبحرُ المياه المتموجة، هادئةً تحت سماوات الصيف، ولكن في الأيام الخوالي حدث الپوكاري تانغا (الهَيَجان) الذي أعطى هذا البحرَ الصغيرَ اسمَه.

كان ماهو ظمآن، فقال لابنته، هاو ماپوهِيا، أن تذهب إلى النبع وتأتيه بالماء. رفضت هاو أن تذهب، ورغم أنه صرخ عليها إلا أنها ظلت عنيدةً، وفي النهاية اضطر أن يذهب هو بنفسه.

وحين انحنى فوق الماء شعر بغضبه يتزايد. كان أبناؤه الآخرون قد عصَوْهُ فتحولوا إلى حجارةٍ، ولكن مصيرًا أسوأ من هذا كان ينتظر هاو. ظل عند البحيرة حتى حلول الظلام. ثم ما لبث أن سمع وقع قدمي شخص. جاءت هاو تبحث عن أبيها. وحين اقتربت منه خرج من وراء أَجَمةٍ ودفعها في الماء. ظلت الفتاة تغرق حتى غمر الماءُ رأسَها. وظل ماهو يَرْكُسُها في الماء حتى توقفت مُناجزاتُها. عندئذٍ غادر البحيرة وتوجَّه إلى البحر مباشرةً.

لكن هاو لم تمت. لقد فقدت هيئةَ الشابةِ الناعمةَ المستديرةَ. تحولت يداها إلى زُعْنُفتين كزعانف السمك والتصقت ساقاها ببعضٍ. اكتسى جسدها بالحراشف، وصار وجهُها قبيحًا، وتحول شعرُها الطويل إلى حشائش بحرية متناثرة. ظلت فترةً راقدةً في قعر البحيرة. ثم تحرك فيها الدمُ الباردُ، فطفقت تطوف في الأعماق. لقد تحولت هاو إلى وحشٍ مائي.

كان لها في البحيرة الصغيرة مجالٌ ضيقٌ تتحرك فيه. فغاصت في الأرض وشقت طريقها بين الصخور، فراحت تدفع الروابي وتُباعد بينها، وتنفض عن نفسها التربة كما يُقلِّب رأسُ الرفش التربةَ في حاكورة البطاطا الحلوة. ولم يُوقِف تقدمَها إلا سلسلةُ جبال هُو إياراو التي كانت تعترض طريقَها. اندفق الماء في القناة التي شقتها،

لكنها انعطفت وراحت تسبح فيها وتهاجم الأرضَ التي إلى جهة الشرق. باءت محاولتها بالفشل من جديدٍ، لكنها قذفت نفسها عند مَصَبِّ البحيرة عند تي وارا وارا. وبينما كانت تصارع تمددت أذرعة البحيرة خلفها وانهمر الماء هادرًا وراح يتموج في المياه الضحلة.

كانت تسمع من بعيدٍ هديرَ محيطِ كِيوا، فراحت تصارع بجنونٍ في سريرها الضيق.

راحت تزحف إلى الأمام قَدَمًا قَدَمًا، وهي تخبط الماء وتصرخ بصوتها الوحشي الذي لم تألفه بعد. سمعها ماهو فأرسل إليها سمكًا ليشبعِ جوعَها، وهذا السمك لا يزال يسبح في بحيرة واي كاريمونا الهادئة. ظلت جائعةً بعد أن أكلت، فأرسل إليها ماهو المَحارَ الذي لا يزال عالقًا في الصخور منذ ذلك الزمن السحيق إلى يومنا هذا. عندئذٍ أشرقت الشمسُ فماتت المتوحشة هاو ماپوهيا، وتدفقت مياه البحيرة على جسدها وشعرها ينساب مع المياه المتموجة.

يعتقد الپاكيها (البِيْضُ) أنها صخرةٌ، ولكن الماوري أدرى. إنها هاو ماپوهيا المتوحشة التي شقَّت قنواتِ وايْ كاريمونا المتعرِّجةَ، وجعلتها تتموج خلال ليلةِ كفاحِها الطويلة من أجل الحرية في محيط كِيوا المترامي الأطراف.

تاني وا الأليف

ذهب تو أريكي من رانجي تيكاي إلى وَكاتو (نيلسون) في رحلة صيدٍ. وحينما صارت الزوارق في المياه العميقة اصطاد تو أريكي

قِرْشًا صغيرًا. وبينما كان القِرْشُ يضرب قعر الزورق، انجذب له تو أريكي. كانت في عينيه نظرةٌ شبهُ ودودة. وطوال رحلة العودة إلى وَكاتو كان القِرشُ يستلقي على أرضية الزورق وينظر إليه بطريقةٍ جعلت تو أريكي لا يحتمل قَتْلَه.

وما إن سحب الزورق على الشاطئ حتى حمل القرشَ بين ذراعيه. ظل القرش هادئًا وتركه يحمله وهو يسير على الشاطئ إلى الصخور حيث تقوم بِركةٌ عميقةٌ تحيط بها صخور عملاقة. أنزل تو أريكي القرش برفقٍ في البِرْكة. راح يسبح داخل دائرة الصخور ببطء، ثم جاء إلى حيث يقف تو وراح يلامس حرف البركة بأنفه.

كان تو أريكي يأتيه يوميًا ويطعمه. كان القرش يُقْبلُ إليه ولا يفارقه إلا حين يغادر. وإلى أن حان موعد عودة الصيادين إلى رانجي تيكاي، كان تو أريكي قد تولَّع بقِرشِه فلم يعد يطيق فراقَه، فأخذه معه وأطلقه في النهر.

سأله الناس، «ولماذا تحتفظ بِتُوْتاي پورو پورو؟» وكانوا جميعًا يعرفون تُوْتاي پورو پورو، قرشَ تو الأليفَ.

قال لهم تو، «إن هذا القرشَ بالنسبة إليَّ كما الكلبُ بالنسبةِ إلى صياد الكيوي».

صار تُوْتاي پورو پورو كبيرًا مثل حوتٍ بفضل التغذية الدائمة، وكاد يملأ النهر. لكنه لم يكن مثل حوتٍ، ولا مثل قرشٍ. حينها أدرك تو أن تُوْتاي پورو پورو ما هو في الحقيقة إلا وحشٌ.

وذات يومٍ جاءت مجموعة محاربين إلى رانجي تيكاي من

وانغانْوِي، فقُتِل تو أريكي وأُكِل. في تلك الليلة انتظر تُوْتاي پورو پورو سيده، لكنه لم يأتِ. ظل الوحشُ قلقًا طوال الليل. وحين جاء الصباحُ ولم يأت تو أريكي، رفع تُوْتاي پورو پورو جسده المتوحش من النهر وراح يستقصي الدروب التي يمشيها تو. كانت رائحةُ البشر تزكم أنفه، فراح يتجول هنا وهناك، يحطم الأشجار، ويهرُس النباتات، ويبحث في كل مكانٍ لكن بلا طائل.

رمى نفسه في النهر حُزنًا على سيده، وعامَ مع تياره إلى أن بلغ البحر. وحين أحس بالأمواج تحته أخرج رأسه من الماء، وأداره يمينًا وشِمالًا وهو يتشمَّم النسيم. في جهة الشمال لم يكن هناك شيءٌ، وفي الغرب لا توجد إلا رائحةُ البحر المفتوح الذكية، ومن الجنوب، آه، من الجنوب جاءت رائحةُ الدمِ حادةً قويةً. بضربةٍ واحدةٍ من ذيله، استدار وانطلق جنوبًا بأقصى سرعة حتى وصل وانغانْوِي. هناك كانت الرائحة أقوى، واستعر الغضب في قلبه. سبح عكس تيار النهر حتى وصل إلى بركةٍ عميقةٍ، فاستقر فيها تحت ظلِّ تاوْ ماها أوتي.[24] لم يعد تُوْتاي پورو پورو ذلك الصديق الذي أَلِفَهُ تو أريكي، بل تُوْتاي پورو پورو، سوط العذابِ المسلَّط على الوانغانوي. لم يجتز زورقٌ قطُّ مخبأه. فما إن يتردد صدى المجاديف بين جدران الوادي السحيق، حتى ينهض توتاي من قعر النهر ويبتلع الرُّكاب.

في البداية لم يكن أهل الوانغانوي يعرفون شيئًا عن الوحش في أعلى النهر، لكن سرعان ما تكاثر عدد الزوارق المفقودة، فأرسلوا فِرَقَ بحثٍ. وحين اكتشفوا حقيقة الوحشِ آكلِ البشر، هربوا من قُراهم.

عندئذٍ طار تاما أهوا، الذي يملك ريشةً سحريةً، إلى قريته عند واي توتارا وتوسَّل إلى قاتلِ وحوشٍ شهير اسمُهُ آوْ كيهو. قال له، «لقد أقفرت الأرضُ من ساكنيها بسبب الوحش. الأولاد يندبون آباءهم، والزوجات يندبن أزواجَهُن».

قال آو كيهو، «سآتي».

وبعد بضعة أيامٍ وصل مع سبعين من قومه، وجلب معه سلاحَيْه القاتِلَيْن للوحوش، تاي تيمو وتاي پارو، اللذين كانا يشبهان المناشير، وكانت أطرافُهما مرصعةً بأسنان القِرْش.

من غير إضاعةٍ للوقت، جعل آو كيهو قومه يصنعون صندوقًا ذا غطاءٍ محكمٍ وطويلًا يتسعُ له ولسلاحيه. أُخِذ الصندوق إلى أعلى النهر. دخل آو كيهو فيه مع تاي تيمو وتاي پارو وأُغلق الغطاءُ ورُبِط بإحكام. سُدَّت الفتحاتُ والشقوقُ في الخشبِ بالطين ليمنع نفوذ الهواء، ثم حُمِل الصندوق إلى الماء، وأُلقي في النهر.

ولما بلغ تاو ماها أوتي، شمَّ توتاي پورو پورو رائحةً بشريةً. كان الناس يراقبون من السلسلة المواجهة للجرف، فرأوا توتاي پورو پورو ينهض من الماء مثل صخرةٍ عظيمةٍ تآكلت بسبب عوامل الجو. انفتح فمه وابتلع الصندوق العائم، ثم غارَ لا يدل على عبورِه إلا الأمواج التي راحت تفور تحت الصخور.

كان آو كيهو رابضًا في صندوقه ويدعو الآلهة ببعض التراتيل. أحس بارتجاجِ الصندوقِ حين التقمه توتاي پورو پورو فجأةً وغاص إلى قعر النهر. حمل أسلحته، ثم نشر غطاء الصندوق، وهاجم جسدَ



نجا آو كيهو من بطن التاني وا.

الوحش من جوفه. هاجَ الوحشُ وماجَ، وانقذف آو كيهو هنا وهناك داخل جوفه المظلم، لكن الوحش سقط ميتًا في النهاية.

وما لبث المنتظرون أن رأَوْا جسده يجرفه النهر، فتبعوه حتى بلغ الشاطئ. راحوا يعملون من فورهم، ففتحوا بطن الوحش وأخرجوا آو كيهو، ثم استخرجوا أجساد الذين قتلهم الوحش ودفنوها كما يليق بها.

أما توتاي پورو پورو فقد تركوا لحمه طعامًا للطيور، وفرح الجميع لمقتله. لكن من يدري: لعلَّ تو أريكي في مُستقَرِّه في عالم الظلمات السفلي عَلِمَ بالأمرِ وحزن لموت صديقٍ وفيٍّ.

22

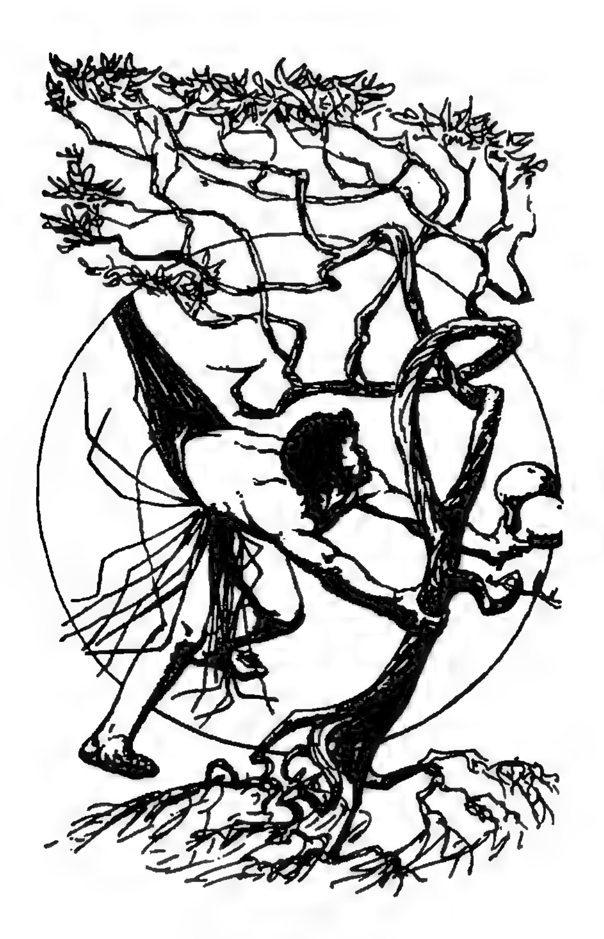
حكاياتٌ عن القمر والنجوم

رونا والقمر

عاش رونا وزوجته وأولاده وأطفاله الثلاثة بجانب أرضٍ منبسطةٍ رطبةٍ قربَ نبعٍ دافئٍ في منطقة الكائيپارا. لم يكن زواجُهما سعيدًا، وبعد خصامٍ تركته زوجتُه وذهبت لتعيش مع قومها في تلال پايْرو الرملية، وتركت الأطفال مع زوجها.

ولأنه كان رجلًا، لم يعرف رونا كيف يعتني بأطفاله. فذاتَ ليلةٍ بدأ الأطفال يصرخون ويطلبون الماء. كان رونا قد نسي أن يأتي به إلى المنزل خلال النهار. وظل الأطفال يصرخون، «الماء، يا رونا. نريد بعض الماء لنشرب!» إلى أن سئم الأبَ سماعَ صراخهم.

نهض من فراشه وحمل حَوْجَلة في كل يدٍ، ولكنه من غبائه وقلة عقله لم يأخذ قَبَسًا من نار لينير به دربَه. وهو ذاهبٌ إلى النبع ارتطمت قدمُه بجذر شجرةٍ نابتةٍ في دربه، فآذى نفسه. ثم أصاب قدمَه من جديدٍ. فجلس وأمسك قدمه بيده ليخفف من الألم. وكان لا يزال يسمع أطفاله ينادون، «الماءَ، يا رونا!» فتطلَّع إلى السماء ورأى النجوم، لكن سطوعها لم يكن يكفي لإنارة دربه.



انتزع القمرُ رونا من الأرض.

جعله الألم سيئَ المزاج، فصاح، «أيها القمر، يا مطبوخَ الرأسِ!» وكانت تلك شتيمةً شنيعةً جدًّا. «أين أنت الآن، يا مطبوخَ الرأسِ؟ لقد تركتني في الظلام لكي أُوذي قدمَيَّ بالجُذوع والحجارة. ألا طُبِخَ رأسُك أيها القمر لأنك لم تُنِرْ دربي!»

ثم نهض وتابع مسيره، ولكن القمر سمع شتيمته. فغادر مكانه في السماء واندفع نحو الأرض. وقبل أن يتمكن رونا من الركض، أمسك به القمرُ وطوَّح به في الهواء. ولما شعر بقدميه ترتفعان في الهواء، وضع كلتا الحوجلتين في يده اليسرى، وتمسك بغصنِ شجرةِ نْغايو سميكٍ،[25] ولكن محاولاته باءت بالفشل. سحبه القمر إليه، فاقتُلِعَت الشجرةُ التي تَمَسَّك بها رونا من جذورها.

ظل الأطفال يصرخون من أجل الماء، وكان رونا يسمعهم حتى من تلك المسافة البعيدة. وبعد أن جفَّت حلوقُهم من العطش، خرجوا من المنزل ونادوا، «أين أنتَ، يا رونا؟ أين أنت؟ لقد تأخرت كثيرًا في جلب الماء».

نادى رونا من مكانه على القمر، «أنا هنا مع النجوم والقمر. لا ماءَ هنا. أنا هنا، في الأعلى!»

تطلَّع الأطفال وحدقوا في القمر، لكنه كاد يصل إلى مكانه في السماء، وراح صوت رونا يخفت أكثر فأكثر حتى اختفى تمامًا. فخافوا أن يذهبوا ويجلبوا الماء بأنفسهم. وفي اليوم التالي ذهبوا إلى أمهم وأخبروها كيف لعن أبوهم القمرَ فصار في السماء التي سيبقى فيها إلى الأبد. عادت الأمُ مع أطفالها إلى بيتها السابق واتخذت زوجًا

جديدًا، لكنها لم تقل له كلمةً غاضبةً واحدةً مخافةَ أن يأتي رونا والقمر ذات ليلةٍ ويأخذاه أيضًا.

وهي تعيش مع زوجها الجديد ما كانت لتخرج من بيتها في الليالي المُقمرة، ولاسيما في وقت راكو نوِي، لأنه في هذا الوقت يُمكنها أن ترى رونا وحَوْجَلَتَيْهِ وشجرة نْغايو في القمر.

العيون الصغيرة

لقد عرفت وأحبَّت كثيرٌ من شعوب الأرض النجوم السبع الساطعة المتلألئة التي يعرفها الپاكيها باسم الثُّريا. فالإغريق القدامى سمّوها بناتِ أطلس وپْليون، وسكان أستراليا الأصليون سموها الأخوات السبع. أما الماوري فقد تطلعوا ولفتوا انتباه أولادهم إليها وقالوا لهم إنها العيون اليسرى لسبعة زعماءٍ كبارٍ. الثريا موضع ترحيبٍ دائمٍ في كل جزر البحار الجنوبية، وحين ظهرت لأول مرةٍ في الغرب بدأتَ السنة الجديدة بالاحتفالات والرقص والغناء.

هناك قصة حول هذه النجوم السبع، وهي لا تأتي من بلاد الماوري بل من جزيرةٍ أخرى في المحيط الهادي. وهي تُروى هنا لأنها عن آلهة بلاد الماوري القدامى.

في سالف الأيام كانت هناك نجمةٌ تتلألأ بشكل ساطعٍ إلى درجة أن النجوم الأخرى لم تجرؤ على الاقتراب منها مخافةَ أنَ ينكسف جَمالُها بسبب تألُّق تلك النجمة. كانت مثل قمرٍ آخر يُضاهي جمالُه جمالَ جميع النجوم الأخرى مجتمعةً، وكانت كل كائنات الأرض

الحية تحبها وتنتظر ظهورها كل ليلةٍ لتنير كل شيء ببهائها الرقيق.

في التلال البعيدة كانت هناك بحيرةٌ صغيرةٌ تحب هذه النجمة. مر اليومُ الحارُّ بطيئًا حتى ظهرت النجمة في السماء الغربية. عندئذٍ ارتعشت البحيرة قليلًا حين رأت جمالَ النجمة. وطوال الليل ظلت مياهُها الرائقة تعكس جمالها كأنها مرآة.

وذات يومٍ دَهم البحيرةَ الصغيرةَ نعاسٌ خلال ساعات النهار المشمس حينَ سمعت صوتَ تاني. أنتم تذكرون أنه في سالف الأزمان كان تاني قد جلب جميع النجوم في قُفَّة درب التبّانة ونثرها على الرداء الأزرق الذي يرتديه والدُنا السماء. غار تاني من هذه النجمة التي صارت تتألق أكثر من جميع المنيرات اللاتي أعطاهن لرانجي، فقرر أن يدمرها.

سمعت البحيرة الصغيرة بخطة تاني. فظلت طيلة تلك الليلة تراقب النجمة وتتمنى لو تستطيع أن تخبرها بالخطر الذي يتهددها. وحين نهضت هينا آتا، بنتُ الفجرِ، وأشرقت الشمس على البحيرة، همست النجمة بسرها لرانجي. غضب والدنا السماء، الذي لا يملك حولًا ولا قوةً أمام تاني. لكنه جعل الشمس تشرق بشدةٍ على مياه البحيرة حتى تحولت إلى ضبابٍ وارتفعت فوق الأرض. حملتِ الريحُ الضبابَ على ظهرها بعيدًا فوق الجبال حتى بلغت النجمة التي بدأت تتألق بجمالها مع قدوم الليل. لفَّت مياهُ البحيرة الضبابية النجمةَ حتى خَبَا ضوؤها.

ولما أتى تاني وأتباعه يكتسحون السماء، كانت النجمة مستعدة،

فهربت في السماوات. ظل تاني طوال الليل يلحق بالنجمة لحاقًا بطيئًا، وحين بدأ ضوءُ المنيرات يبهت في النور المتعاظم، هربت من يأسها إلى طريق تاني لعلها تخبئ ضوءها في ضوئه. عندئذٍ نزع تاني إحدى المنيرات من قبة السماء ورمى بها النجمة. عندئذٍ حدث ارتطامٌ دوّى صداه في السماوات وتفتَّت النجمةُ كِسَرًا كِسَرًا. غَرَفَها تاني بيده ثم قذفها بعيدًا.

ومع أنه قذفها بمنتهى اللامبالاة، إلا أنها لا تزال موجودة. يسميها البشرُ العيون الصغيرة. أما الماوري فيسمونها مَتاريكي، أي العيون الصغيرة التي يعشقها البشر وتظل تومض إلى الأبد في السماوات الصامتة.

المنيراتُ التي تخر من أمكنتها

يُطلق الماوري على النجوم تسميةَ وَناو مَراما، أي أبناء النور، وأحيانًا يسمونها راري ريكي، أي الشموس الصغيرة. وعلينا نحن الذين نعرف الكثير عن الكون الذي نعيش فيه أن نتذكرَ أنه، قبل سنين عديدة حين ظن آباؤنا أن العالم منبسطٌ وأن الشمسَ تدور حول الأرض، تطلَّع واحدٌ من الماوري إلى سماءٍ ليلةٍ صافيةٍ متفكرًا متسائلًا. رأى الأنوار المتلألئة التي تُرصِّع ثوبَ رانجي وتوجِّه أشعتها نحو الأرض عبر الفضاء اللامتناهي. أحس أنها لا يمكن أن تكون أطفال أورو العابثين فقط، ولأنه كان أحكم مما يدرك فقد سمّاها الشموس الصغيرة.

لكن الأطفال الضاحكين، والأمهاتِ المشغولات، والمحاربين الأشدّاء من الآباء، لم يكن لديهم وقت ليتوصلوا إلى مثل هذه الأفكار العميقة. كان بإمكانهم أن يروا تاني وهو دائبٌ ينثر أبناء النور على جسد والده. رأوا القُفَّة الطويلة التي كانت تتألق برفقٍ وتمتد على جسد رانجي وتحرس المنيرات الصغيرات. رأوا أبناء النور يلعبون معًا كما كانوا في قديم الزمان عند سفح مونغان وي. كان الأطفال يتدافعون، فيسقط واحدٌ منهم بين الحين والآخر من بين ثنايا ثوب رانجي، فيخلف سقوطُه شِهابًا طويلًا في السماء.

حين نرى نيزكًا يسقط نحو الأرض وينفجر ملتهبًا وهو يندفع عبر الأجواء الشديدة الانحدار، نقول، «ها هو نجمٌ يخر». أما الماوري فينظر إليه ويفكر في ابن النور الذي سقط من أثواب السماء بينما كان يلعب مع إخوته وأخواته.

أضواء الجنوب الساطعة

في الشمال البعيد تنير السماءَ أحيانًا تلك الظاهرةُ الغريبةُ المعروفة باسم الشفق القطبي. وفي الجنوب حين يتغضَّن النور القطبي البارد ويومض من بعيدٍ، نسميه الشفق الأسترالي.

وهذا ما يطلق عليه الماوري تسمية تاهو نُوِي آرانجي، أي توهُّج السماء العظيم.

قبل ألف سنةٍ حين كان الماوري يُبْحِرون بزوارقهم بين هَوايْكي وآوتِيارُوا، تجرأ بعض البحارة وأوغلوا جنوبًا إلى أن وصلوا إلى

أرض الثلج والجليد الذي لا ينتهي. وهناك أقاموا على مرِّ السنين في تلك الأرض الكئيبة الموحشة. وحين يتذكرون دفء موطنهم في الجزر، يضرمون نيرانًا عظيمةً يسطع وهجُها عبر البحار، وتنير كل سماوات الجنوب. عندئذٍ يتطلع الماوري من بيوتهم ويرون الوهج البارد فيسمونها بلغتهم الموسيقية تاهو نُوِي آرانجي، أي توهُّج السماء العظيم.

كان هناك مستكشفٌ عظيمٌ آخر أذهلته الأضواءُ الخافقةُ التي تتألق على الأفق الجنوبي. فهل هي فعلًا نارٌ أضاءت سُجوفَ الظلام في تلك البلاد البعيدة الباردة؟ هذا ما تساءل عنه تَماري ريتي. لذلك أشرف على بناء زورقٍ بحريٍ كبيرٍ مصنوع من شجرةٍ حراجيةٍ واحدةٍ، له عوارضُ جانبيةٌ طويلةٌ، ومقدمةٌ ومؤخرةٌ مزخرفتان بشكلٍ جميلٍ، ومرصعتان بأصداف أذن البحر المشعة ومزينتان بريشٍ طويلٍ زاهي الألوان. وحين فرغ تَماري ريتي من بنائه سمّاه تي رُوا أوماهو. تطوع شبابٌ في ميعة الصبا للقيام بهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر. اختار ريتي طاقمًا من سبعين محاربًا وكاهنين مشهورين بحكمتهما ومعرفتهما بالطقوس المطلوبة لنيل حماية الآلهة ورضاها. أبحر ريتي جنوبًا ترشده نجوم صليب الجنوب. ظل يبحر حتى خلفوا الشمس وراءهم ولم تبق إلا النجوم تعزيهم وحزم النور الخافقة تخيفهم. وأخيرًا سمعوا صوت الأمواج المتكسرة تتلاطم على شاطئ صخري، وحين اقتربوا سدَّت طريقَهم أجرافٌ من الجليد. شكلَ ألقُ الشفق الأسترالي الخلفيةَ التي ترتسم عليها ذرى الجليد،

وقد أطلق تَماري ريتي على هذا الشفق اسم نْغا كورا كورا أوهينا نْوِي تي پو، أي سناء سيدة الليل العظيمة الشمسي.

ظل الزورق يطوف بمحاذاة خط الأجراف جيئةً وذهوبًا، وهو يبحث عن مكان يرسو عنده، بينما كان الجو مشحونًا بفرقعة نارٍ وصوتٍ كصوت الكتان المحترق. لم يجدوا مكانًا يرسون عنده. كانوا يتغذون على ما يجود به البحر من طعام، وبينما كان ريتي يأكل سمكةً صغيرةً استُخرجت من بطن سمكة أكبر، اختنق ومات. لذلك يقول مثلٌ قديمٌ، «اختنقَ تَماري ريتي بسمكةٍ صغيرةٍ». وكان ذلك يومًا حزينًا على رجاله الذين حنَّطوا جثة قائدهم وقفلوا عائدين في رحلة العودة الطويلة إلى آوْتِيارُوا.

كاد المستطلعون في قرية ريتي يقنطوا من رؤية تي رُوا أوماهو، ولكنهم رأوه ذاتَ ليلةٍ عاصفةٍ تدفعه الأمواج نحوهم. تجمع الناس بسرعةٍ على الشاطئ، لكن الزورق ارتطم بصخرةٍ وانقلب. قذف الموجُ الجثثَ إلى الشاطئ، فراح الأصدقاء والأقارب يتفحصونها. مزقت الصخورُ الحادةُ إحدى الجثث شرَّ ممَزَّقٍ، وكانت تلك جثة تَماري ريتي. انطفأت شعلة الحياة في الكل إلا اثنين، وحتى هنا ظلت الشعلة تتخافت. بقي على قيد الحياة شابٌّ وأحد الكاهنين، وعاشا طويلًا ليرويا ما قاسوه من حرمان وما اكتشفوه في بحار الجليد.

حين قذف الموجُ الزورق المحطَّم على الشاطئ، ملأه الناس بالأغصان المقطعة وأكوام الحطب. عندئذٍ أُجلِست فيه جثثُ الرحّالةِ الأموات كأنهم أحياء ويَرْئِسُهُم تَماري ريتي الذي أُلبس أجملَ حُلَّةٍ،

وجعلوا في يده سلاحًا عزيزًا عليه. وعند حلول الظلام أُضرمت النارُ في أكوام الحطب، وسار الرجالُ الذين ضحوا بحياتهم بحثًا عن نيران سيدة الموت في رحلتهم الطويلة الأخيرة.

يعيش الزورق للأبد في سماء الليل. أما النجوم التي يسميها الپاكيها صليبَ الجنوب فما هي إلا مقدمة الزورق المرصعة بأصداف أُذن البحر، «علبة جواهر تَماري ريتي الصغيرة». أما دربُ التبانة الذي تترامى أطرافه في السماء فهو الزورق نفسه، تي واكا أو تَماري ريتي، الذي يُزين عمودَ مؤخرته نجم آوْ تاهي، نجم سهيل. ونجوم صليب الجنوب هي حبل المرساة، والوهدة المظلمة التي تعرف أحيانًا باسم الثقب الأسود مرساة زورق تَماري ريتي الحجرية.

كيف صُنع القمر

في سالف العصور وقبل أن يُغلَقَ الطريقُ إلى العالم السفلي في وجه البشر الفانين، دفع الفضولُ امرأتين لمعرفة ما يجري في رارو هِنْغا. فملأتا زَوَّادتينِ بالبطاطا الحلوة المجففة، وانطلقتا في الرحلة الطويلة إلى رائنغا، أرض الأرواح. تعلقتا بجذور شجرة پوهوتو كاوا القديمة وبحذرٍ نزلتا من بين الأعشاب البحرية. وجدتا نفسيهما في كهف مظلم يمتد إلى أعماق الأرض. تلمستا طريقهما بأيديهما، وتابعتا مسيرهما إلى أن شاهدتا على مسافةٍ ضوءًا ضئيلًا وخافتًا مثل حشرة سراج الليل.

وحين اقتربتا توسع الوهجُ، فتبين لهما أنها نارٌ تتحلق حولها ثلاث

أرواحٍ مُسِنَّةٍ شائبةِ الشعر.

همست إحدى المرأتين، «إنها نار الأرواح. لو أخذنا منها قَبَسًا لأدفأ بيوتنا إلى الأبد، ولكني لا أجرؤ على الاقتراب».

ولكن الأُخرى كانت أجرأ. فتوجهت إلى الرجال الثلاثة الذين حدقوا فيها باندهاشٍ. وضعت أمامهم قُفَّة البطاطا الحلوة وخطفت زندًا مشتعلًا من النار ولما يفيقوا من ذهولهم.

انطلقت المرأتان عائدتين ركضًا إلى راينغا، وكان الرجال يطاردونهما في الإثر. للوهلة الأولى ظنّتا أنهما نجتا، لكنهما حين اقتربتا من سطح الماء، أمسكت إحدى الأرواح بكعب المرأة التي كانت تحمل الجمرة المشتعلة. ومن شدة خوفها رمت الزند بعيدًا وحررت نفسها.

في خضم الرعب الآني، جاء الخوفُ ليمنح ذراعها قوةً إضافيةً. طار الزندُ المشتعلُ عاليًا في الجو، وظل يتصاعد حتى عَلِق بثوب رانجي، فصار مَراما القمر الذي يتألق إلى أبد الآبدين.

لم نطّلِع على كل معارف الماوري عن النجوم، والآن فات الأوان. لقد كان الماوري في سالف الأيام يراقب شروقَ النجومِ وغُروبَها، وكان يزرع محاصيله حين تكون النجوم مواتيةً، واستدل بها في رحلاته البحرية الطويلة على متون الزوارق. لقد أحبوا را ريري كي، أبناء النور الجميلين في نصف الكرة الجنوبي.

23

حكاياتٌ عن الطيور

طائر رُوا كَپانغا العظيم

كان تي مانو نْوي أرُوا كَپانغا هو الاسم الذي أطلقه الماوري على المُوا، ومعناه طائر رُوا كَپانغا العظيم. مرت عهودٌ منذ أن تبخترت الموا فوق روابينا وسهولنا، ولكن في الأزمنة السحيقة كان هناك الكثير من بناتِ تاني الطويلة الساق هذه.

كان رُوا كَپانغا من أوائل الرجال الذين أتوا إلى آوتِيارِوا. تجوَّل في أدغال منطقة خليج الوفرة مع رفاقه، وكانوا يصطادون الطيور البرية ويعيشون على الثمار اللُّبية وجذور السرخس. ثم جاء يومٌ رأى فيه من بعيدٍ طيورًا هائلةً كان بوسعها أن تصطاده بكل بساطة. لم يرَ رُوا كَپانغا ورفاقه مثل هذا المنظر من قبل. لعلَّهم شاهدوا الحيتان في رحلتهم على متن الزورق من هَوايْكي، إلا أنهم لم يحلموا قط أن مثل هذه المخلوقات الهائلة تعيش على اليابسة.

تغلَّب رُوا كَپانغا على خوفه، فأعدَّ مصيدةً لطيور المُوا. عمل هو ورفاقُه بِجِدٍّ، وهم يلفّون ويجدلون النباتات المعترشة لاصطياد العمالقة. زُوِّدت المصيدة بطُعْم، ولما غامر أحد طيور الموا ودخل، علت صيحةُ النصر من رُوا ورفاقه، وليتهم لم يفعلوا. راحت الموا ترفس الشراك بأرجلها التي تشبه الأشجار حتى مزقتها، ثم خرجت

متبخترةً. أعاد رُوا تطعيم المصيدة بأناةٍ، بعد أن أصلحها، ولكن الموا الثانية نجت بسهولةٍ كالأولى. وما أكثر المرات التي نصب فيها مصيدةً للموا، ولم يتمكن من صيدٍ واحدةٍ.

عندئذٍ نادى رُوا رجاله، فصنعوا مصيدةً قد يقنط حتى الحوت من تمزيقها. وحين وقع أحد طيور الموا فيها، غارًّا غافلًا، والتفت غاضبًا من صرخات الصيادين وجد أنه لا يستطيع أن يشق طريقه إلى الحرية. وما لبث المحاربون أن غرزوا رماحهم في جسده فمات.

وهكذا سُمِّي پُواكي - الذي نعرفه باسم الموا، ويعرفه العالِمُ باسم دينورنِس - طائرَ رُوا كَپانغا العظيم، الصياد الجسور.

پو والطائر العظيم

كان لدى پو رانْغاهْوا القوي، الذي عاش في تورانْغا حيث تقوم مدينة غِزبورن الآن، ولدٌ صغير يحبه حبًا جمًّا. كان پو رانْغاهْوا مستعدًا للحصول على أيِّ شيءٍ تمتد إليه يدُ صغيره مهما كان الثمن. وحين كبر ولده، لاحظ پو أنه دائمًا يُخرِج لسانه ودائمًا في ذات الاتجاه. فحين يستلقي على ظهره، كان يستدير ليُخرج لسانه، وإن كان واقفًا كان يلتفت كي يشير به بذات الطريقة.

ناقش پو الأمر مع زوجته واقتنعا أن الصبي الصغير جائعٌ وكان يشير إلى ناحيةٍ يعرف أن فيها طعامًا طيبًا.

قال پو رانْغاهْوا القوي، «إذًا سأبحث عنه من أجله». توشَّح

بأسلحته، وأخذ معه شيئًا من الطعام، ودفع زورقه نحو الأمواج المتكسرة. كانت زوجته تراقبه وهو يُجدِّف مبتعدًا، فرأت عضلات ظهره العريض تبرز وهو يلوح بالمجداف. رأت الزورق الصغير الوحيد يتضاءل حجمه كل دقيقةٍ، ولمعانَ راحةِ المجداف وهي تعكس أشعة الشمس مع كل ضربةٍ. صار الزورق نقطةً ضئيلةً فقط، ثم توارى عن الأنظار. كان پو رانْغاهْوا يواجه بحرًا مفتوحًا لا تُحصى ولا تُعدُّ فراسِخُه، كل ذلك من أجل طعام لابنه.

ظل يبحر في ظلمات البحر المترامي الأطراف يومًا بعد يومٍ، إلى أن احتك الزورق أخيرًا بشاطئ بلادٍ بعيدةٍ. قفز پو إلى الشاطئ، وهو سعيدٌ بأن تلامس قدماه أرضًا صلبةً تحتهما. وسرعان ما تصادق مع أهل البلاد الذين تقاسموا معه وجبة المساء. وضعوا أمامه قُفَّةً فيها خضارٌ ينبعث منها بُخارٌ، فصاح مبتهجًا لما تذوَّقها. كانت أحلى من أي جذرِ سرخسٍ تذوقه من قبل. إنها البطاطا الحلوة التي لم يسمع بها من قبل، إذ لم تكن تنبت في البلاد الطويلة الساطعة التي أتى منها. وعرف فورًا أن هذا هو الطعام الذي كان ابنه يشتهيه.

مكث في البلاد الجديدة مدةً قصيرةً، ولكنه ظل دائمًا يتوق للعودة إلى موطنه في تورانغا ليرى وجه ابنه حين يتذوق البطاطا الحلوة. لكن زورق پو اختفى للأسف. لعل العاصفة حطمته على الشاطئ، أو لعل المدَّ ظل يرفعه برفقٍ ويزحزحه إلى أن سحبه بعيدًا. لم تكن لدى پو وسيلةٌ للعودة إلى بلاده. كان الزعيم تاني صديقه، وفي تلك الليلة، وهما يضطجعان جنبًا إلى جنبٍ على فراشيهما، نظر پو إلى ذات

النجوم الساطعة التي تتلألأ في سماء بلاده البعيدة تورانغا، فبثَّ لصديقه ما يقلقه.

استند تاني على مرفقه وقال، «هناك طريقةٌ واحدةٌ فقط، وهي طريقةٌ خطرةٌ. مَن يُرِدْ موطنه بعد ترحالٍ طويلٍ لا تهمه المخاطر كثيرًا».

قال پو، «لقد واجهت الأهوال، وعرفت مخاطر ركوب البحر وأنا أُبحِر في محيط كِيوا. فأي خطرٍ أجده أكبر من مخاطر البحر حين لم يكن عندي إلا قطعةُ خشبٍ مُجوَّفةٌ تحول بيني وبين المياه التي لا نهاية لها؟»

قال تاني موافقًا، «إذًا، لقد واجهت الأخطار، وستواجهها في رحلة العودة. عليك أن تسافر على ظهر طائر رُوا كَپانغا العظيم».

قبضَ پو يديه حتى بدت براجمها البيضاء تحت بشرته السمراء. همس قائلًا، «تي مانو نْوي آرُوا كَپانغا. ولكن كيف سيأخذني يا صديقي؟»

قال له تاني، «لقد قلتُ إن الرحلة لا تخلو من المخاطر. يمكنك أن تمتطي ظهره إن كنت تملك الجُرأة وتتشبث به. وسيحملك إلى موطنك سريعًا. وفي منتصف الطريق يعيش الغول تاما على رابيةٍ عاليةٍ تُدعى هيكو رانجي تنهض من أعماق المحيط. وعليك أن تحذره، لأنك إن وقعت في براثنه فلن تنفعك قُوَّتُك».

«وكيف لي أن أتجنب هذا الوحش؟»

«عليك أن تنتظر حتى تبدأ الشمس بالغروب. وقبل أن تندس

في المحيط مباشرة ستُعمي الأشعةُ المستويةُ الغولَ، وإن كنت جريئًا يمكنك أن تتجاوزه قبل أن يُمسك بك».

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، أخذ پو رانغاهْوا قُفَّتَيْن وامتطى ظهر المُوا. في تلك الأيام كان طائر رُوا كَپانغا يستطيع الطيران. صفق بجناحيه وحمل پو وحمله الثقيل بلا عناءٍ. اتجه جنوبًا، وهو يصفق بجناحيه بتراخٍ. نظر پو إلى قامات أصدقائه الصغيرة البعيدة في الأسفل. كان تاني يقف على جرفٍ قريبٍ، مظللًا عينيه وهو يراقب پو يبدأ رحلتَه المحفوفةَ بالمخاطر.

ما كان يقطعه پو في زورقه في يوم صارٍ يقطعه الآن في ساعة، ولما بدأت الشمس نزولها المداري السريع، رأى پو رابيةَ هيكو رانجي. جرَّ پو رقبة المُوا، فراح يتباطأ حتى لامس طرفُ الشمسِ السفليُّ البحرَ. وحين صار للشمس ألقٌ يُعمي الأبصار، طارا مُسرعَيْن فتجاوزا الرابية. زأر تاما لما سمع خفق الأجنحة العملاقة، لكنهما تجاوزاه قبل أن يتمكن من رؤيتهما، فزال الخطر.

ولما برزت شواطئ آوتِيارُوا من بعيدٍ، قفز قلبُ پو وقد عنَّ له أنه سيرى زوجته وطفله من جديدٍ وأنهما سيفرحان بالكنز الذي أتى به. وبسبب توقه للوصول إلى بيته، ارتكب فعلين شنيعين. أولًا، نتف اثنتين من ريش المُوا، وهذا إثمٌ عظيم. ثانيًا، أجبر المُوا على حمله إلى بيته تمامًا، مع أن تاني كان قد حذَّره وأمره أن ينزل ما إن يبلغ بلاده. ولكن پو كان مشتاقًا لبيته، وهذا جعله أنانيًّا، وهذا من طبع البشر أحيانًا.



استعدَّ پو رانْغاهُوا لرحلة الإياب إلى موطنه.

لقي پو ترحيبًا كبيرًا، كما كانت هديته إلى آوْتِيارُوا، ففي كل قرية مُسوَّرة أو غير مُسوَّرة صار لدى الرجال ما يدعوهم لمباركة پو رانغاهاو والطعام الجديد الذي جاء به إلى تورانغا.

مرت الأيام بطيئةً على طرف البحر البعيد حيث كان تاني ينتظر عبثًا عودة الطائر الذي أعاره لپو. لقد احتبس طويلًا حيث أمسك به تاما صاحب رابية هيكو رانجي بسحره في هجير الظهيرة وأهلكه.

لقد مات تي مانو نْوي آرُوا كَپانغا. ولم يبق ليذكِّرنا به إلا بقايا من قشورِ بيوضٍ عملاقةٍ وعظامٍ - فقط هذه وأخوه الصغير طائر الكيوي وشجرة راتا المائلة التي قد نراها ونتذكر بالصدفة أن طائر مُوا قد داسها قبل سنين عديدة.

هوكي أُويْ والصقر

في الليلة الظلماء حين تغيب الشمسُ وتبتلعُ الغيومُ القمرَ مراما، وحين تتلألأ نيران المواقد على أعمدة المنازل، ويخبو الحديث والضحك، تسمع أحيانًا حفيفَ أجنحةٍ. لا ترى شيئًا، لكنك تسمع صرخةً، وضحكًا مرعبًا هابطًا من الأعالي. «هوكي أُوي - هوكي أُوي» هي هذه الصرخة، وحين تتوقف تسمع ذلك الصفير الذي تقشعر له الأبدان بينما ينقضُّ طائرٌ صائلًا ثم يحلِّق ثانيةً في السماءِ الساكِنِ ليلُها الأَسود.

هكذا ينادي هوكي أُوي، الطير غير المرئي، اسمَه مزهُوًّا بنصره لعلَّ الصقرَ كاهو يسمعه ويشعر بالخزي. وإليكم القصة.

في قديم الزمان اختصم كاهو وهوكي أُوي.

قال كاهو، «أنت ضخمٌ وأخرق، فعلى الرغم من حجمك وقوتك، فكل ما تستطيعه هو الرفرفة هنا وهناك بين الأشجار مثل تِيتي پونامو، جَلَم الماء، السيَّافِ الصغير».[26]

صرخ به هوكي أُوي، «ما أنت إلا متبجِّحٌ، ومتبجِّحٌ تافه. وأنا أستطيع أن أطير أعلى منك بكثيرٍ، بل بإمكاني أن أطير بلمح البصر».

كاد الغضب يُعميه. فصاح به ثانيةً، «هيَّا، هيَّا». كانت عيناه برّاقتين وقاسيتين وهما تنظران إلى كاهو. «أتحداك. لنبدأْ فورًا وبإمكان الطيور جميعًا أن ترى أيّنا الأخرق».

رأى كاهو أن كل الطيور كانت تستمع، فلم يجد بُدًّا من قبول تحدي هوكي أُوي. صفَّق كل منهما بجناحيه وحلَّق في السماء. ظل هوكي أُوِي يتطلع نحو الأعلى، وهو يشد عضلاتِه ليطير أبعد وأسرع من كاهو. أما الصقر فقد كان يطير وعيناه تنظران إلى الأسفل، كعادته دائمًا، فما لبث أن رأى سحابةَ دخانٍ تتصاعد من الغابة، وألسنةً من اللهب الأحمر تتطاول فوق قمم الأشجار. وسرعان ما نسي تحدي هوكي أُوي، فأطلق صيحةَ فرحٍ وانقضَّ إلى الأسفل على جناح الريح، قاصدًا حافة الغابة لينتظر الجرذان والسحالي التي سيُخرجُها الحريقُ من جُحورها هاربةً.

لم يعلم هوكي أُوي أي شيءٍ عن هذا. ظلت عيناه تركزان على السماء الزرقاء، وظل جناحاه اللذان لا يَكِلّان يخفقان في الأجواء وهو يواصل صعوده. طار بعيدًا إلى درجة أن الطيور التي كانت

تراقب لم تعد تراه. انقضى النهار وحلَّ الليلُ، وظهرت جميع النجوم، لكن هوكي أُوي ظل يواصل طيرانه. وحين تورَّدت السماء بأشعة الصباح، توقف ونظر إلى الأسفل. لم يَر أثرًا لكاهو، بل الأرضُ ذاتها اختفت.

لهذا السبب لم يَرَه بشرٌ فانٍ قطُّ؛ ولكنه في الليالي المظلمة يطير منخفضًا من جديدٍ ويسخر من كاهو بترديد اسمه هو:

«هوكي أُوي - هوكي أُوي!»

البومة پوپويا

حين أنقذ مَتاوْرا زوجته من الأرض التي تنيرها المشاعل وانتشلها إلى عالم النور، كانت تِيْواي وَكا، الحمامة ذات الذيل المروحي، هي زعيمة طيور العالم السفلي. كان الدرب الذي سار فيه مَتاوْرا وزوجتُه طويلًا وخطِرًا، فأرسلت تِيْواي وَكا البومة پوپويا والخفّاش پيكا ليرافقاهما ويدلاهما على الطريق.

كان على مَتاورا أن يشق طريقة بقوة ذراعه، وخشي أن يُقتَلَ دليلاه، لذلك كان يخبئهما في كل أجمةٍ تتدلى، وكهفٍ، وفي كل مكانٍ مظلمٍ لا تمكن رؤيته بسهولةٍ. لهذا السبب تحب پوپويا وپيكا الظلام. لقد اعتادا الظلام فما عاد بإمكانهما أن يريا بوضوح في النهار. فحين ترى البومة پوپويا ترمش ناعسةً في النهار، فاعلم أنها لا تستطيع أن ترى بشكلٍ جيدٍ في أشعة الشمس، أو لعلَّها تفكر في الفئران التي ستأكلها حين يعود الليلُ الودود من جديدٍ. وتذكَّرْ كيف ساعدت

هي وبِيكا مَتاورا ونِيوا ريكا ليصلا فضاءات العالم الذي تنيره أشعة الشمس وتجول فيه الرياح.

ميرو ميرو أبو الحِنّاء

أبو الحناء عصفورٌ مرحٌ صغيرٌ، أبيضُ الصدر، حادُّ البصر، وهو دائمًا يترقب الحشرات. لذلك حين يرى واحدٌ من الماوري شخصًا يبحث عن شيءٍ مفقودٍ، يقول، «ما تي كانوهي ميرو ميرو»، أي «ليت له عينًا مثل عين أبي الحِنّاء».

يحب الأب ميرو ميرو زوجته، فحين تنشغل ببناء عشٍّ للبيض المُبقَّع بالبني، يعتني بها أشد العناية، فيأتي لها بالأعشاب والأغصان الصغيرة الناعمة ليساعدها في البناء ويؤمِّن لها الطعام.

لهذا السبب يُرسَل لإعادة الهاربين من الأزواج أو الزوجات. فأحيانًا يسأم الرجالُ والنساء بيوتهم، فيهربون. ولهذا يُرسَل ميرو ميرو الصغير الممتلئ الخدَّين، الذي يطير وراءهم أيًّا كانت المسافة التي قطعوها. ومتى وجدهم وحط على رؤوسهم اشتاقوا إلى بيوتهم من جديدٍ.

فَلَبَّيْكَ وسعْدَيْكَ، يا ميرو ميرو الصغير، يا رسولَ المحبة!

ما سرقه كاكا من كاكا ريكي

في سالف الأيام، كان لِلببغاء الجميل كاكا ريكي صدرٌ أحمر. كان طائرًا جميلًا بصدره القُرمزي ومعطفه الأخضر. غار كاكا، الببغاءُ

البني، من ذلك الصدر الأحمر، إذ كان ريشه بُنيًّا كئيبَ المنظر، فتاقت نفسُه إلى ألوان كاكا ريكي المتألقة.

فقال له، «أيها الطائر الأحمق، أيها الأحمق، عليك أن تخبئ صدرك الأحمر».

زقزق كاكا ريكي ساخطًا وسأل، «ولماذا عليَّ أن أخبئ ألواني؟ إنها حمراء كحُمرة دم كاي تانْغاتا،[27] والكل معجبٌ بها».

قال كاكا، «آهٍ، ما أقلَّ عقلَك أيها الصغير! حين أعطاني تاني ريشي البني، فقد أهدى إليَّ أحسن هديةٍ عنده. فالبني هو لون أمنا الأرض، والحشراتُ لا تراني إلا وقد داهمها منقاري وأودى بحياتها. إن البني هو اللون المفضل لدى تاني».

أجابه كاكا ريكي، وهو يقترب منه، «ولكن تاني كسا أمنا الأرض بأثوابٍ خضراء، والأحمرُ هو لون السماء عند الغروب. لا شك أن الأخضر والأحمر هما المفضلان لدى تاني».

«ليس الأمر كذلك، يا كاكا ريكي. قد تحزن، ولكنه لم يكن يُحبُّك، وإلا لَما أعطاك تلك الألوان البراقة».

نظر كاكا ريكي إلى صدره الأحمر خَجِلًا، وحاول أن يغطيه بجناحيه، فسأل بحزنٍ، «وكيف بإمكاني أن أتخلص من ريشي الأحمر؟»

قال له كاكا، «هناك طريقةٌ واحدةٌ فقط، وهي أن تُعطيني إياها. فمن أجل حبي لك سآخذ ريشاتك الحمراء وأخبئها تحت جناحيَّ حيث لا يراها أحدٌ».

تجرَّد كاكا ريكي من ريشاته الحمراء، وربطها كاكا بجناحيه. ثم أطلق صيحةَ فرحٍ بصوته الأجَش، ونشر جناحيه وحلَّق فوق قمم الأشجار. ثم اتجه نحو ألق الشمس الغاربة. عندئذ رأى كم صار كاكا جميلًا، فأدرك أن كاكا سلبه ميراثَه بكلامه المعسول. معطف كاكا ريكي الآن أخضر، ولكن كاكا يتألق بريشه الأحمر الزاهي على مرأىً من العالم أجمع.

وبإمكانكم أن تسمعوا أنشودة كاكا ريكي وهو يبكي على ريشه؛ ولكنه يُقَهْقِهُ أيضًا حين يزقزق مع رفاقه في الأشجار. لعله يظن أن تاني يهتم به الآن أكثر من ذي قبل لأنه لم يعد أحمر.

كاواو والتيارات الرادَّة

حين أتى كوپيه إلى آوْتيارُوا جلب معه الحمامة كيريرو والغاق كاواو. أُوكِلت إلى كيريرو مهمة إيجاد البذور والنباتات في البلاد الجديدة، بينما أُرسل كاواو للتحري عن التيارات النهرية والمَدِّية في المرافئ.

لدى وصوله إلى مرفأ مانوكاو، أرسل كوپيه كاواو أن يسبقه لاستطلاع كل ميناءٍ من مانوكاو، الذي بنى عنده البِيْضُ مدينة أوكلاند بعد ألف عام، إلى تي وان غانُوِي آتارا الذي تقع عنده مدينة وِلِنْغتون. ولدى عودته قال إن التيارات لم تكن قويةً، وهكذا أبحر كوپيه إلى المرفأ الجنوبي الذي أقام عنده معسكره. وبعد مدة جاءت طيورٌ من زورق ماوي (الجزيرة الجنوبية) لزيارة كيريرو وكاواو.

سألها كيريرو، «أين تعيشون؟»

«نحن من الجزيرة الأخرى».

«ما نوع الطعام الذي تأكلونه؟»

«الكثير والكثير من البذور التي تصلح لأبناء تاني».

مدَّ كاواو عنقه إلى الأمام مُتَشوقًا، وسأل، «وكيف هي التيارات في بلادكم؟ لقد رأيت راو كاوا (مضيق كوك)، ولكنه ليس عظيمًا إلا بالاسم. فتياراتُه ضعيفة».

أطلقت طيور الجنوب صيحةً تصمُّ الآذان.

«في بلادنا التيارات قوية. تعالَ وانظر بنفسك. ونحن سَنَدُلُّك».

طار كاواو وقادته الطيور الأخرى إلى المضيق الواقع بين رانجي توتو (جزيرة ديرڤِل) والبرِّ الرئيس.

صاحوا قائلين، «انظر!» نظر كاواو إلى الأسفل ورأى التيارات الرادَّة العنيفة وتياراتِ المضيق الشهير.

صاح وهو ينقض نحوها، «هذه مياهٌ جديرةٌ بالاختبار».

ولكن جَيَشانَها لم يكن رفيقًا كجيشانِ المدِّ في المحيط المترامي الأطراف، ولا أمواجُه في الوقت ذاته غاضبة كأمواج العواصف. بل كانت مثل ماءٍ هادرٍ ينحدر فوق جرفٍ. لامس أحد جناحي كاواو الماءَ فَجُرِف تحت السطح كأن يدًا عملاقةً اختطفته. وقع على ركبتيه، فنشر جناحه الآخر على أمل أن يتجاوز المأزق الذي هو فيه، ولكن الماء جرفه وقذفه في جوفه السحيق، وكسر جناحه. وهكذا مات طائرُ كوپيه الشجاعُ.

ولا يزال كاواو في المكان الذي سقط فيه، إذ توجد صخرةٌ في المضيق الفرنسي الذي يُقال إنه هو كاواو، طائر كوپيه. لو أنه تغلب على الماء، لانسدَّ المضيقُ، لكن لأن جناحه انكسر، صار بمقدور الماوري والپاكيها أن يَتَحدّوا التيارات العاتية والتيارات الرادّة في تي أوماتي، المضيق بين رانجي توتو والجزيرة الجنوبية العظيمة.

لماذا للزَقزاق صدرٌ أسود

لم تكن القُبَّرة الأرضية پيهوي هوي ولا الزقزاق كوكو رُواتا دائمًا من الطيور. ففي قديم الزمان كان كلاهما شابًّا مغرمًا بفتاةٍ جميلةٍ اسمها وانو. ولم يكونا أول من أحبها، ولكن كلما أتاها خاطبٌ أَسَرَتْهُ جدةُ وانو وحبسته.

قال پيهوي لصديقه، «علينا أن نكون حذرَيْن. اذهب أنت أولًا وانظر إن كان بإمكانك أن تفوز بها. وإن لم ترجع، سأعلم أنه خاب مسعاك، وأجرب حظي».

سُرَّ كوكو رُواتا أَيَّما سرورٍ لكرم صديقه، فتسلل بصمت نحو المنزل الذي تعيش فيه وانو مع جدَّتها، ولكن العجوز سمعته وهو قادمٌ. فأمسكت به وألقت به في بناءٍ مكينٍ لم يستطع أن يهرب منه. ثم وسمته على صدره بالفحم الحامي جزاءً لوقاحته.

ولما رأى پيهوي هوي أن صديقه كوكو رُواتا لم يعد أيقن صعوبة الأمر، ولكنه حين رأى الفتاة من بعيدٍ عرف أن الجائزة تستحق المغامرة. فذهب إلى المنزل بلا وجلٍ. مدَّت العجوز يديها لتمسك به،

لكنه ابتعد عنها برشاقة وخفة.

قال لها وهو يضحك، «انتظري لحظة. لا تكوني في عجلةٍ للإمساك بي. بل اسمعي أولًا الأغنية التي سأغنيها».

تنحى عنها قليلًا، ورفع رأسه وراح يغني أغنيةً غريبةً تنبض بالحب والمرح، وجاءت بوانو إلى الباب لكي تستمع. وما إن انتهى حتى مدت العجوز يديها ذواتي المخالب من جديد، ولكن پيهوي هوي تنحى جانبًا بكل خفة.

قال لها، «استمعي إلى المقطع الثاني من أغنيتي». وسبحت الأنغام الجميلة في الهواء. كان پيهوي هوي يقفز من جانبٍ لآخر مثل ورقةٍ في مهبِّ الريح. وقادته إحدى حركاته المُرفرِفة إلى باب المنزل. وبلمح البرق طوَّق الفتاةَ بذراعيه وحملها وهرب.

صاحت به العجوز، «ارْجِع! ارْجِع!» ولكن پيهوي هوي راح يطير مثل طائرٍ وهو يحمل عبئه الرائع. راحت هيئته تتغير وهو يطير إلى أن صار مثل الطائر الصغير الشادي الذي نعرف الآن أنه هو القُبَّرة پيهوي هوي.

أما ما حدث لكوكو رُواتا فلا نعلمه، ما خلا أنه أيضًا صار طائرًا يحمل على صدره علامةً داكنةً وضعتها جدةُ وانو.

الغاق كاواوْ

أمضى يوتا نهاره في صيد الأسماك. وقُبيل المساء سحب زورقه على الشاطئ، وانتظر زوجته لتأتي وتأخذ السمك إلى المخزن. وظل

ينتظر حتى غابت الشمس وطلعت النجوم، ثم سار على الدرب الذي يمر عبر أجمة للسرخس إلى بيته ليرى ما حدث لها.

فسألها، «لماذا لم تأتي لتحضري السمك؟ هذا عملُ المرأة».

«كان عليَّ أن أعتني بأولادك الأشقياء. سأذهب الآن».

اختفت في الظلام، ولم يكن يوتا يعلم أن زوجته، هُومِيا، غولةٌ في الحقيقة. فلو رآها في تلك اللحظة لَدُهِش. إذ قذفت بالأسماك في فمها وأكلتها نيئةً من غير أن تُزيل الحراشف. وإلى أن شبعت، كانت قد أتت على الأسماك جميعًا. جرجرت هُومِيا قدميها في الرمال، وراحت تكسر أغصان الأشجار، وتنثر أوراقها. ثم نادت زوجها وقالت إن السمك قد سُرِق. هُرِع يوتا إلى الشاطئ.

فصاح، «لا يُعقَل أن أحدًا كان هنا».

«بل يُعقَل. انظر إلى آثار أقدامهم، وانظر كيف أتوا عبر الغابة».

وبهذا اضطُر يوتا لأن يقتنع.

في اليوم التالي ذهب للصيد مرة أخرى، لكن الشكوك قد بدأت تُساوِرُه. وحين عاد، أمر أولاده أن يختبئوا بين الأشجار ليروا ما يجري. ثم ذهب إلى البيت وأرسل زوجته لتأتي بالسمك. ومرةً أخرى أكلت السمك نيئًا وبأكمله، إلا أن أولادها شاهدوها هذه المرة، فأخبروا أباهم بما رأوا. وفي تلك الليلة نشب خلافٌ عنيفٌ بين يوتا وهُومِيا. أدرك الرجل أنه متزوجٌ غولة شريرة ... ولكن لا مناصَ من الحصول على الطعام. في اليوم التالي انطلق في قاربه. وما إن توارى عن الأنظار حتى التفتت هُومِيا إلى أولادها وأكلتهم في



وهكذا مات كاواو، طائرُ كويبه الشجاعُ.

دفعةٍ واحدةٍ.

في تلك الليلة انتظر يوتا عند الشاطئ بلا طائل. لم يكن يرى أولاده في أي مكان، ولكن زوجته تنتظره في المنزل.

فسألها، «أين أولادي؟»

ردَّت عليه مُغضبةً، «لقد ذهبوا في شأنهم، ولن يطول غيابُهم».

لم يصدقها يوتا. لقد ارتاب فيما حدث، فردد ترتيلةً. فتحت زوجتُه فمها لا إراديًّا حتى فَغَر كأنه فمُ كهفٍ. وفجأةً تساقط الأولاد خارجين من فمها. طلب منهم يوتا أن يأتوا بالسمك من الزورق. ولما وضعوا أحمالهم أمامه، أزال الحراشف ووضعها في الموقد الذي أوقده. ولما نضج السمك، خرجت هُومِيا من المنزل.

فأمرها، «افتحي فمَكِ». ثم أخذ حجرةً حاميةً من أسفل الموقد وألقاها في فمها. تفحَّمت الغولة وتساقطت إربًا إربًا أمامه – ولكنها لا تزال تعيش في الغاق كاواو الذي له حلقٌ لا يشبع أبدًا مثل هُومِيا.

تِيواي وَكا الحمامة ذاتُ الذيل المروحي

ظلت تِيواي وَكا ترفرف قلقةً حول منزل ربة النار ماهْوِيكا. كانت الجدران مصبوغةً بهباب الحريق، واحترقت الغابة الخضراء عن بكرةِ أبيها. كان الدخان لا يزال يتصاعد من الأرض الخربة التي دمرتها النيران.

لم يكن هناك أثرٌ لماهْوِيكا ذاتها. كان نصف الإله ماوي قد سرق بذور النار، وحين اكتشفت ماهْوِيكا فِعْلته حاولت أن تُهلِكَه. والآن

عاد ماوي ليحاول أن يجدها. بحث عنها في كل مكان بلا طائلٍ. عندئذٍ رأى تِيواي وَكا الحمامة ذات الذيل المروحي، وقبل أن تتمكن من التملُّص منه، أمسك بها بإحكامٍ وحاول أن يُجبرها على أن تخبره عن المكان الذي ذهبت إليه جدَّتُه.

فقالت له، «لا، لن أخبرك».

ضغط ماوي على رأس الحمامة حتى جحظت عيناها، وانتشر ذيلُها وانتصب في زاويةٍ تتعامد مع جسدها.

قال لها ماوي مُعَنِّفًا، «أخبريني. أخبريني أين ذهبت».

لم تعد تِيواي وَكا تحتمل الألم.

فقالت، «لا أعرف. لا أعرف أين ذهبت».

«إذًا، أخبريني أين خبأت النار. أنا أعلم أنها خبَّأتها، وأريد أن آخذها لقومي».

أجابت تِيواي وَكا، «إن كانت أُعطيةً للبشر، فسأدُلُّك عليها. حين تعود إلى بلادك، خُذ قطعتين من شجرة الكايْكو ماكو،[28] ثم حُكَّهما ببعض. فهناك خبأت ماهْوِيكا النار. إنها هناك داخل شجرة الكايْكو ماكو. وحين تحك قطعتين من خشب تلك الشجرة، ستجد أن النار كامنةٌ فيها بانتظارِ أن تخرج وتفعل ما تأمُرُها به».

لا تزال عينا تِيواي وَكا جاحظتين في رأسها، وينتصب ذيلُها في زاويةٍ تتعامد مع جسدها لأن ماوي أمسك بها بعنف حين كان يبحث عن بذور النار. لكن تِيواي وَكا لا تهتم. فمروحة ذيلها العريضة تشبه شراع السفينة، وهي تستطيع أن تنقلب وتستدير في

الجو حين تلتقط الحشرات التي تتغذى عليها.

صياد الطيور تاوْ تورو

كان تاوْ تورو أشهر صيادي الطيور قاطبةً في غابر الأزمان. كان شابًّا وسيمًا وبارعًا في كل فنون الصيد. كان يزين الشراك التي يصنعها بالثمار اللبية والأزهار العطرية، مما يجذب إليها أسراب الطيور من مسافاتٍ بعيدةٍ. كانت الفواختُ السمينة تحط وهي لا تدري عن الأحابيل المخبأة ببراعةٍ تحت أوراق الأشجار، فتلاقي حتفها هناك. كانت تتهافت على الشراكِ طيور الببغاء وطيور القِسِّيس، وطيورٌ نادرًا ما تُرى ولا تُصطادُ أبدًا، حتى طيور البَلشون البيضاء المراوغة، وقائد السرب. يُقال إن تاوْ تورو اصطاد في يومٍ واحدٍ مقدارَ ما يستطيع حَمْلَه عشرون شابًّا. ولم تكن طيور الغابة الأرضية مثل الكيوي ودجاج الغابات والببغاء الأرضي بمأمَنٍ منه لأنه كان قد درَّب الكلاب على صيدها.

لم يعتمد تاوْ تورو فقط على براعته، بل كان مواظبًا أيضًا على الطقوس والصلوات التي تُتلى لتاني، ربِّ الغابات. كان محبوبًا من أبناء قبيلته، بل إنه فاز بحب راوْ روها، التي كانت سيدة أرواح الجو. كانت تنزل إليه كل ليلةٍ وتمكث عنده حتى الفجر تُطارحه الغرام، ولكنها كانت دائمًا تخبئ وجهها عنه. كان تاوْ تورو يتوق لرؤية وجه المرأة التي يحب، وهكذا انتهك حرمة الحظر الذي يحيط بها ونجح في رؤية وجهها لدى بزوغ الفجر.

لكن راوْ روها لم يعد بإمكانها، للأسف، أن تعيش معه. وحين أيقن تاوْ تورو أنه فقدها للأبد، ذهب إلى الغابة حزينًا. تسلَّق شجرةً باسقةً، ونصب مصيدته بين الأغصان، لكنه لم يعد يكترث. وضع قدمه بلا اكتراثٍ، فزلَّت وسقط على الأرض واندقَّ عُنُقُه.

لم يكن أحدٌ ليراه إلا زوجته المفقودة. إذ تطلعت من السماء، فذُهلت لمرأى حشدٍ لا يُحصى من الطيور تحوم وتصيح حول واحدةٍ من أشجار الغابة. فنزلت ووجدت زوجها ميتًا عند أصل الشجرة. بكت عليه، وأرسلت رسالةً إلى أقربائه تعلمهم بموت الشاب. حملوه إلى بيته على مِحَفَّةٍ بوضعية الجالس، وهو لابسٌ أفخمَ ثيابه.

وهم عائدون، حصل شيءٌ غريبٌ. فجأةً وجد حَمَلَةُ الجنازة أن حِمْلَهم قد خفَّ، حيث كانت جثة تاوْ تورو قد اختفت. وحين وصلوا البيت بالمحفة الفارغة قال الكهنة إن تاني، وهو أول من نصب الشراك للطيور، لا بد أنه رفعه إليه في السماء بسبب مآثره في الأرض. وقد بقي هناك منذ ذلك الحين على هيئة كوكبةٍ من النجوم التي يسميها الپاكيها كوكبة الجبّار، أما الماوري فيسمونه تاوْ تورو الذي يظل يصطاد الحمام في السماوات المرصعة بالنجوم. ويمُكن رؤية باقة الأزهار والمصيدة نفسها في الكوكبة، ولو أمعن المرء النظر جيدًا، لرأى الآلاف من الحمائم الصغيرة وهي تتجه نحو المصيدة.

24

حكاياتُ عن الحشرات والضِّباب

النملة وزيز الحصاد

في الصيف تضج الغابات في نيوزيلاندا بغناء كيكيهي زيز الحصاد. يرتعش الهواء بالصوت، وتشرق الشمس من خلال الأوراق حين تداعبها النسائم الرقيقة، ويبدو الشتاء بعيدًا. ذلك هو عبء أغنية كيكيهي. «مضى الشتاءُ وحلَّ الصيفُ. فلنُنشد أغانينا على لحاء الأشجار الدافئ ونمرح، فالبرد والظلام ذهبا إلى الأبد».

ولكنْ هناك أغنيةٌ أخرى لم يسمع بها إلا القلة وسط غناء كيكيهي الذي يُصِمُّ الآذان. إنها أغنيةٌ بسيطةٌ يغنيها أولئك الذين يعملون طوال أيام الصيف قريبًا من الأرض الدافئة. إنها أغنية النملة پوپو كوزْوا. تغني النملة، «الشتاءُ قادمٌ»، وهي دائبة هنا وهناك، تجمع الطعام وتخزنه. «نحن بحاجة إلى الطعام لكي نحيا في أيام الشتاء الباردة. فلنعمل لنعيش».

تمر الأيام ويأتي الشتاء، وها هي الأوراق التي كانت ترقص في الصيف ترتجف الآن في الريح الباردة، والمطر الجليدي ينساب منها إلى الأرض المشبعة بالرطوبة.

عندئذٍ يهزُل كيكيهي، الذي كان يستمتع بدفء الصيف ويمرح



كان كيكيهي يتنعَّم بأشعة الشمس بينما كانت النمل تجِدُّ في عملها.

خاليَ البال، ويتعرض للبرد وفي النهاية يموت، وهو يتشبث باللحاء الجافي. أما پوپو كورْوا فتعيش في دفءٍ وسعادةٍ في بيتها العامر بالطعام، وتتطلع من جديدٍ لمقدم الصيف.

البعوضة وذبابة الرمل

في موطنهما الذي يقع في الغابة عند بِركةٍ مظلمةٍ تظللها من الشمس أشجارٌ عملاقةٌ ونباتاتُ البردي التي تحيط بها، التقت البعوضةُ نايْرو بذبابة الرمل نامو ذات يوم.

قالت نامو، «هل لنا من سبيلٍ إلى فعلٍ شجاعٍ؟»

صفَّقت نايرو بأجنحتها الرقيقة الشفافة حتى طنَّت في الجو الساكن.

«بوُسعِنا أن نأتي بفعلٍ يجلب لنا الشهرة. دعينا نهاجم الإنسان!»

رقصت نامو في الهواء من شدة الفرح، وصاحت، «أجل، دعينا نذهب الآن. لنَذُق طعم دم بني البشر!»

هزت البعوضة نايرو رأسها وقالت، «أنتِ قليلةُ الصبر، يا صديقتي نامو. لو هاجمناه الآن لَرآنا قادمين وهَزَمنا. انتظري حتى حلول الليل. فالإنسان لا يرى في الليل. ذلك هو أوانُ الانقضاض ومصِّ دمِه».

ولكن نامو لا تطيق صبرًا، فقالت متبجحةً، «لن أنتظر، وأنا لست خائفةً من الإنسان. بإمكانكِ أن تنتظري حتى يُرخيَ الليلُ سُدُولَه على أرجاء الكون، أما قومي فسيهاجِمون في وضح النهار.

سيُقتل منا الكثير، ولكننا سنهزمه».

ثم نادت بصوتٍ خافتٍ، ونهض إخوتها مثل سحابةٍ سوداءَ وطاروا فوق الأشجار. حطت نايرو على ورقةٍ وراقبتهم وهم يذهبون.

خيَّم على البركةِ نعاسٌ بعد أن تسللت أشعة الشمس من بين الأشجار المتدلية، فنامت نايرو قريرةَ العين.

وحين توارت الشمسُ، وصارت البركةُ أشدَّ حِلْكةً بسبب ظلال الأشجار، نظرت نايرو فرأت نامو تحوم حول البركة، ثم راحت تهبط واستقرت بالقرب منها.

سألتها نايرو وفي عينها بريقٌ، «كيف سارت المعركة؟»

طأطأت نامو رأسها وأنشدت نشيد الهزيمة. ولما انتهت من أغنيتها قالت، «لقد ذقنا الدم. لم يستطع ردعَنا. ولكن الإنسان قوي جدًّا. حين صفع بيده الهائلة، مات الآلاف من إخوتي. هاجمناه ثانيةً، فصفعنا من جديدٍ، وما نجوتُ إلا أنا. لقد مات إخوتي».

قالت نايرو، «لقد أخطأتم بذهابكم في النهار. ولقد حذرتُكِ».

رفعت نامو رأسها باعتدادٍ وقالت، «لقد هُزِمنا، لكننا لم ننكسر. الإنسان عدوُّنا. سنهاجم مرةً بعد مرةٍ. لن نستسلم».

قالت نامو، «آه، ولكنكم هُزمتم الآن. إن طريقتي هي المثلى».

ثم قفزت بخفةٍ في الهواء، وبينما راحت تشق طريقها في الجو في ضوء النجوم الخافت، تبعها معشرُ البعوضِ، وهم يطيرون بصمتٍ.

لم يكن الإنسانُ على علم بمقدمها، فاستلقى في منزله وأغمض عينيه. ولكنه ما لبث أن تحركَ، وملأ الجوَّ طنينٌ حادٌّ. اقترب الطنينُ، وكان صوتًا تقشعر له الأبدان.

فجأةً توقف الطنين، وقال الإنسان، «آها، إنها نايرو. لقد حطَّت عليَّ، ولكنني سأُهلِكُ نايرو كما أهلكتُ نامو وقومها». ثم ضرب ذراعه، لكن نايرو لم تكن هناك. اقترب نشيدُ المعركةِ الحادُّ من أذنه. صفع الإنسانُ نفسه صفعةً ارتج لها رأسه، ولكن نايرو استقرت على ساقه وراحت تمتص دمه.

شعر بوخزتها واعتدل ليضربها، ولكن نايرو كانت قد ابتعدت، بينما كان واحدٌ من قومها يتسلل إلى كتف الإنسان.

ظل الإنسان يتقاتل مع نايرو ساعةً بعد ساعةٍ. وكان صمتُ نايرو مرعبًا مثل طنينِها العالي. وحين أصبح الصباح، طارت نايرو مع قومها وتركوا الإنسانَ مسحوقًا، متورمًا، ملطَّخًا بدمائه.

سمعتْها نامو قادمةً، تُنْشِدُ نشيدَ النصر، ففرحت لأنه أُخِذ بثأرِ هزيمتها.

وهكذا صارت نامو ونايرو عَدُوَّتَيْنِ للإنسان، نامو تهاجمه نهارًا، ونايرو ليلًا. ولكن نايرو هي التي يخشاها الإنسان.

الكلب والضبُّ

مات الضب كايْ واكا رُواكي، ومن ذيله أتت الضِّباب. فأينما نظر المرءُ وجد الضِّبابَ، البنية والخضراء والرمادية، تستلقي بلا حراكٍ

على الصخور الحارة تحت أشعة الشمس أو تندس تحت الأحجار ولحاء الأشجار المتفسِّخ. وهناك أيضًا الكثير من الكلاب، السوداء والبيضاء ذات الأجساد الطويلة والذيول الثخينة والفكَّين المدبَّبين. لم تكن كلاب بلاد الماوري على وئام مع ضِبابها.

لذلك حين التقى الضب والكلب ذات يوم على درب ضيقٍ محاطٍ بنبات العلِّيق، محامي الغابة الشائك، ما كان لأحدهما أن يفسح المجال للآخر كي يمر.

قال الكلب بصوتٍ عالٍ متعجرفٍ، «دروب الغابة لي». ولكن الضب ظل صامدًا في مكانه على الأرض الجرداء، ثابتَ الأرجل، رافضًا أن يخيفه الكلب. ولما رأى الاثنان أن كلًا منهما يرفض أن يتزحزح للآخر، عاد كل منهما إلى قبيلته وأعلمها بالخبر. اشتد الجدال في اجتماع قبيلة الكلاب، وكذلك في قبيلة الضِّباب، لكنهم اتفقوا جميعًا على أن الأمر يوجِب الحرب.

احتشد الجمعان والتقيا في مكانٍ مفتوحٍ. اندلع بينهما قتالٌ شرسٌ، ولكن لم يكن للضِّباب ما تُضاهي به أسنانَ الكلابِ القويةَ، فَهُزمت شرَّ هزيمةٍ.

وحين انتهت المعركة، كانت الكلاب قد أُتْخِمت من لحم الضِّباب؛ ولكن يُقال أيضًا إن خصوبة الكلاب تأثرت للأبد بعد تلك الوجبة الدسمة من لحم الضِّباب؛ ولعلَّ هذا صحيحٌ، إذ إن كلبَ الماوري يكاد ينقرض مثل طائر المُوا.

القِرْشُ والضَّبُّ

الضبُّ مخلوقٌ مُسالمٌ لا يؤذي أحدًا، لذلك نعجب من جَراءته وتحديه لمعشر الكلاب. بَيْدَ أن الضبَّ موضعُ خوفٍ لدى الماوري ربما لأنه يتصل بقرابةٍ لوحوشِ الأنهار والبحيرات والصدوع المظلمة.

أَوَليسَ الضبُّ والقرشُ من أبٍ واحدٍ؟ ففي بداية الزمان كان كلاهما يعيش في البحر. كان الضبُّ هو الأخ الأكبر. وبعد المعركة بين تاوهيري ماتيا، إله الرياح، وتانغا رُوا، إله المحيط، اشمأزَّ الضب من أخيه القرش، فغادر البحر. زحف إلى الشاطئ وتسلَّق صخرةً لكي يدفئ ظهرُه بأشعة الشمس.

سبح القرش إلى أقصى ما يستطيع للاقتراب منه ونادى، «لماذا لا تبقى معي في الماء؟»

أجابه الضبُّ، «أنا سعيدٌ هنا بأشعة الشمس والنسيم العليل. وأيُّ نفعٍ لي في البقاء معك في مياه المحيط القلقة وظُلُماته؟»

«هنا توجد حرية. لا نضطر للجوء إلى الجحور في الصخور ولا أن نختبئ من مخالب الطيور ومناقيرها الحادة».

«ولكن المياه العميقة لا تقل خطرًا، يا أخي».

فتح القِرْشُ عينيه مستغربًا. «ولكن الماء موطننا. فكيف يمكن أن يكون فيه خطرٌ علينا؟»

سئم الضب من الجدال، فشعر أن الطريقة الوحيدة للجم أخيه الملحاح هي أن يُهينَهُ. فصمت وحاول أن يفكر في شتيمةٍ تُغضِبه غضبًا لا شفاءَ منه. آه! لأُقارِنهُ بالطعام المطبوخ، عندها سيغضب

ويولّي الأدبار!

«خطر؟ طبعًا خطر! لو بقيت معك، فقد تصطادني صنارات بني البشر وأصير طعامًا لهم - وهذا ما سيحدث لك ذات يومٍ. ألا ترى أنك ستصبحُ لقمةً لذيذةً في سلة الطعام؟»

خبط القرش ذيله غاضبًا، ونهش الهواء بأسنانه المميتة.

صاح به، «إذًا، ابقَ حيث أنت. سيحترق السرخس ذاتَ يومٍ وستُشوى. أرجو أن يعجبك ذلك حينها».

هزَّ الضبُّ رأسه وضحك. «أنت لا تعرفني. سأحدق بعيني الواسعتين وأصرخ 'پو!' سيظنون أنني أبو الشياطين حين تنتصب أشواك ظهري. سَيَهابُني الإنسان وأَسُودَ الأرضَ».

حرك ذيله الطويل، ثم انعطف ونزل عن الصخرة، متواريًا بين الأعشاب والسرخس، واستعدَّ لإرهاب بني تُو.

25

حكاياتٌ عن عمالقةٍ ورجال يطيرون وجبالٍ تسير

الوحش الطائر

كانت تتمدد على الشاطئ عند پاتِيا كتلةٌ رماديةٌ تبدو كأنها صخرةٌ عند الغسق. كان صيادٌ عائدًا إلى قريته غير المُسوَّرة، فرأى ذلك المنظر الغريب على الطرف الآخر من الرمال، فذهب ليتحقق من الأمر. كانت الأمواج تندفع من حولها وتجرف الرمل من جوانبها حين تتراجع عن سفح الشاطئ. وحين لامسها الصياد برمحه، انضغطت كاللحم، ولما اعتقد أنها نوعٌ غريبٌ من السمك، غرز رمحه في جسدها. زأر الوحش النائم من الألم وقذف نفسه على مُعذِّبه. انطلق مخلبٌ صلبٌ وطوَّق خصره. ثم انتشر جناحان كأنهما شراعا زورقٍ ثم صفَّقا في الجو. ولما كان الوحش من النوع الطائر، فقد حمل الصيادَ من الشاطئ ورفعه عاليًا.

نظر الصياد إلى الرمال تنساب من تحته. وفوقه الجناحان يصفِّقان بقوةٍ، ويرتفعان أعلى فأعلى في الجو. صار الجو باردًا حين طلع القمر. انبسطت الغابة والبحيرة في الأسفل البعيد كأنهما عالَمٌ آخر. ثم ما لبثا أن خلَّفا اليابسة وراءهما ولم يعد يُرى إلا مُويجاتٌ ذات رؤوسٍ

بيضاء تلتمع في ضوء القمر، ونُدَفٌ رقيقةٌ من سحابٍ ما تلبث أن تضيع وراءهما.

ظلا يطيران طوال الليل، وحين أصبح الصباح أشرقت الشمسُ على أرضٍ أخرى، هي هَوايْكي، موطن الماوري. حامَ الوحش ثم هبط على فُسحةٍ تحيط بها أشجارٌ طويلةٌ. لم تكن لدى الصياد رغبةٌ في النظر إلى الأزهار والفاكهة المدارية الرائعة التي كانت تتدلى على الأشجار أو تنمو بكثرةٍ على الأرض. فأينما تطلَّع رأى وحوشًا هائلةً ذاتَ عيونٍ لا ترمش، وأجنحةٍ مطويةٍ، ومخالبَ قويةٍ كمخالب الطير.

بدأ الوحش الذي أسَرَه يتكلم بصوتٍ يجلجل مثل كتلةٍ ثلجيةٍ تتدحرج، ولكن الصياد استطاع أن يفهم معظم الكلمات.

«لقد جرحني هذا الشخص الوضيع، وعليه أن يموت».

سأله وحشٌ أكبر سِنًّا، «من أين هو؟»

«من بلاد كوپيه. إنه إنسانٌ يعيش على سمكة ماوي».[29]

«وماذا كنت تفعل هناك، أيها الوحش؟»

«كنتُ أرتاح».

«وأين كنت ترتاح، أيها الوحش؟»

«على الشاطئ عند پاتِيا».

«وهل كنت على الرمل أم في الماء؟»

«بينما كنت أغفو على الشاطئ أدركني الماء على حين غِرَّة».

جاهد الوحش العجوز الذي ابْيَضَّ من مرور ألفِ سنةٍ من عمره

لينهض على قدميه ويبسط جناحيه.

ثم قال بصوتٍ عميقٍ، «لقد أدنت نفسك بلسانِك أيها الوحش. الجو هو موطنك، والأرض لنا ولك حين نتعب. الجو ليس لوحوش الماء، والماء ليس لوحوش الجو. لقد أحسن صُنعًا هذا الرجل حين حاول قتلك في المكان الذي وجدك فيه».

هزَّت حلقة الوحوش رؤوسها موافِقةً.

سأل أحد الوحوش الصغار، «وماذا نفعل بهذا الرجل؟»

أشار إليه كبيرُهم بمخلبٍ صلبٍ وقال، «ستعيده أنت إلى سمكة ماوي، يا أصغر الوحوش. خذه الآن».

وهكذا أُعيد الصياد إلى موطنه. وحين اقتربا من پاتِيا، مدَّ يده ونتف بضع ريشاتٍ من جناحي الوحش. وأصبحت هذه الريشات مُلْكًا ثمينًا. أعطى واحدةً منها لتاما أهْوا صاحب وانغانْوي. وكان لدى تاما بيتٌ آخر في وايْ توتارا، ولكن الرحلة إليه كانت طويلة ومُرهِقةً. فصار بفضلِ ريشة الوحش هو ذاته نوعًا من الوحش، وراح يطير في الليالي المقمرة الباردة فوق قمم الأشجار من وانْغانْوي إلى وايْ توتارا بفضل التعويذة السحرية التي في يده.

مَتاو، عملاقُ واكا تيپو

عاشت مَناتا، وهي ابنةُ زعيمٍ، مع عشيقها مَتاكاوْري في بلاد موري هيكو المرتفعة. وكان أبو مَناتا يرفض أن يتزوج العاشقان، لأنه كان ينوي تزويج ابنته لزعيمٍ ذي سطوةٍ يعيش في سهول تايِيري.

وذات صباحٍ فُقِدت مَناتا. لم يُعثَر لها على أثرٍ، ولم تأخذ شيئًا معها. بل وُجِد فراشها ورداؤها في مكانهما حيث ألقتهما. ظل هذا لغزًا إلى أن وجد أحد الباحثين أثر قدم ضخمةٍ في الطين الطري بجانب النهر، وتذكر باحثٌ آخر أن الأرض ارتجّت في الليل.

قال الزعيم حين جاءا إليه بهذه الأنباء، «إن مَتاو هو الذي اختطفها».

اقترب الناس أكثر حينما سمعوا الاسم المرعب، إذ إن مَتاو عملاقٌ يعيش بين جبال الداخل المكللة بالثلوج، وكان مُهابًا في كل أوتاكو.

قال الزعيم بحزنٍ، «سأزوِّج مَناتا لأي رجلٍ يستطيع إنقاذها».

لم يتحرك أحدٌ سوى مَتاكاوْري. بصمتٍ هُرِع إلى الباب وبدأ يتسلق مَراقي الجبل إلى عرين مَتاوْ. وفي وضح النهار وجد مَناتا تجلس تحت أجمة كَتّانٍ بجانب النهر. وحين رأته قادمًا ركضت إليه وخبّأت وجهها على كتفه.

قالت له، «عُدْ يا حبيبي. لا أستطيع أن أهرب. وسيقتلك العملاق إن استيقظ».

ابتسم مَتاكاوْري وقال، «سينام مَتاو ما هبَّت ريح الشمال الغربي الدافئة. ولن يستيقظ إلا إذا تغير اتجاه الريح».

«لكنك لا تعلم ما حدث. انظر، لقد ربطني إلى خصره بهذا الحبل».

ضحك مَتاكاوْري وهو يرفع فأسه ويضرب الحبل، ولكن الفأس



أضرم مَتاكاوْري النارَ في السرْخَس المحيطِ بالعملاق النائم.

ارتدت عن الحبل المصنوع من جلد الكلب ذي الرأسين الذي لا يستطيع الحجر الأخضر أن يقطعه.

سالت دموع مَناتا على وجهها. سقطت إحداها على السَّيْر فتفتت كأنها بقدرةِ ساحرٍ. ابتسمت مَناتا من بين الدموع، وساعدت حبيبها على صنع طَوْفٍ من أشجار المانوكا، وربطاه بمعترِشاتٍ متينة وحبكاه بسوق الكتان ليجعلاه يطفو. ثم قفزا على متنه، وما لبثا أن عادا إلى موطنهما حيث استقبلهما أبو مَناتا كأنهما قد عادا من بين الأموات.

قال مَتاكاوْري، «لم أنتهِ من عملي. لا تزال ريح الشمال الغربي تهب، لكن سيأتي وقتٌ يستيقظُ فيه العملاق. وحينها لن نكون في مأمنٍ، ولكنه الآن يغطُّ في نومه ويمكن لأي رجل أن يأخذه على حين غِرَّة».

لم يعرض أحدٌ على مَتاكاوْري أن يذهب معه وهو يتسلق التلال للمرة الثانية. تجاوز أجمة الكتان التي كان قد وجد عندها مَناتا من قبل وتبع الحبل المصنوع من جلد الكلب الذي كان يمتد على طول السهل النهري ثم يصعد التلة التي تلقي بظلالها فوق الوادي. كان العملاقُ يقع على الطرف الآخر من الجبال، حيث كان يتوسَّد قمة جبلٍ وقدماه على جبل آخر. وعلى مسافةِ أميالٍ نحو الشمس الغاربة، كان مَتكاوْري يعمل يومًا بعد يوم بينما كانت ريح الشمال الغربي تهب، يكوِّم السرخس والأعشاب اليابسة حول العملاق النائم.

وحين انتهى عمله، أضرم النار في السرخس بوساطة مِقْدَحه. اشتعل اللهب في رؤوس الجبال، فحجبت سحابةٌ من الدخان أشعة

الشمس اللامعة.

احترق العملاق من اللهب. كانت ألسنة اللهب تضطرم بشدةٍ أحرقت الأرض ذاتها، بل أحدثت فيها حفرةً عمقُها ألفُ قدمٍ، حفرةً أخذت شكل العملاق النائم. عندئذٍ جاء المطر وصبَّت جداول الجبال مياهها وملأت الحفرة المتدفقة إلى حافتها، حيث يرقد العملاق نائمًا بهدوء عبر القرون.

هذه هي بحيرة الجنوب الباردة التي يسميها البشر وَكاتيپو. وعميقًا تحت سطحها يربض قلب مَتاو النابض. وحده قلب العملاق قاوم اللهب، وحين ينبض تعلو مياه البحيرة وتهبط برفقٍ.

العملاق والحوت

هناك علامةٌ على صخرةٍ في الرأس الشرقي تشبه طبعةَ قدمٍ بشريةٍ عملاقةٍ. على مسافةِ ثمانين ميلًا إلى الجنوب، هناك نُهيرٌ لا يبعد كثيرًا عن مدينة غِزْبورن الحالية، وفي إحدى ضفتيْهِ يوجد هيكلٌ عظميٌّ متحجرٌ لحوتٍ. وعند خليج توكومارو، الذي يتوسط المسافة بين الرأس الشرقي وغِزْبورن، توجد ثلاث هضابٍ متقاربة من بعضها كأنها زوايا مثلث.

وفي يوم من الأيام كان عملاق يعيش في الجزيرة الجنوبية. وذات يومٍ قام بزيارةٍ إلى الجزيرة الشمالية. حين بلغ المياه التي تفصل الجزيرتين، خطا خطوةً كبيرةً نقلته من هذه الجزيرة إلى تلك. كان حوتٌ يستلقي على الماء في مضيق روكاوا. رأى العملاق نفثةَ البخار

تتصاعد مع النسيم، وبلمح البرق مدَّ يدَه والتقط الحوت. دسَّ الحوتَ تحت إبطه وراح يسير على الساحل إلى أن بلغ ضفة النهير. وهناك جلس وأكل الحوت، بلحمه وجلده، ولم يترك إلا الهيكل العظمي الذي لم تَقْوَ عليه أسنانُه. ثم تمدد على فراش الأشجار الطري ونام.

لم يكن الماوري القاطنون في ذلك المكان مسرورين من رؤية العملاق. فإحدى قدميه حطمت كل نباتات البطاطا الحلوة الصغيرة، بل إن ذراعه سدت الآن مدخل قريتهم المُسوَّرة. وبينما كانت رؤوس الأشجار تتمايل من شدة نَفَسِه، راحوا يُعِدّون له مصيدةً في توكومارو. جرَّدوا شجرةً طويلةً من كل أغصانها وربطوها بالأرض بحبلٍ. وكانوا يأملون أن يقع العملاق في المصيدة إذا وضع قدمه فيها.

استيقظ من نومه، وما إن خطا بضعَ خطواتٍ حتى رأى المصيدة. ولما مرَّ بها رفسها بازدراءٍ. تحرَّر النابضُ وارتطم بهضبةٍ فشقَّها إلى ثلاثِ ذرىً منفصلة. وبخطوةٍ واحدةٍ اجتاز إلى الرأس الشرقي، حيث غاص في البحر ولم يُر بعد ذلك أبدًا.

هل القصة صحيحة؟ من يدري؟ لكن الرأس الشرقي يحمل أثر قدمِ عملاقٍ. وعند نُهيرٍ بالقرب من غِزْبورن يوجد هيكلٌ عظميٌ متحجِّرٌ لحوت. وعند خليج توكومارو هناك ثلاث ذُرى صغيرةٍ متقاربةٍ كأنها زوايا مثلث.

جبال قلقة

في زمن الآلهة، كانت كثيرٌ من الجبال تعيش عيشةً سعيدةً مع بعضها بعضًا في تاوپو في وسط سمكة ماوي. كانت تأكل وتعمل وتلعب وتعشق معًا، ولكن مع مرِّ الزمن نشأ الشقاقُ بينها. قسمٌ من الجبال الشابّة ارتحلت شمالًا وجنوبًا، وكانت تسري في الليل مسرعةً، واسعةَ الخَطْوِ إلى أن يوقِف مسيرتَها بزوغُ الشمس.

ولم يتبقَّ إلا تونغا ريرو ورْوا پيهو ونْغاوْ روهو. اتخذ تونغا ريرو من پيهانغا زوجةً له، وكانت هذه هضبةً صغيرةً متأنقةً، وتعيش في الجوار. أما أولادهما فهم الثلج والبَرَد والمطر والقِطقِط.

وقعت پيهانغا في غرام تونغاريرو ذي الرأس الأبيض، وحين حاول تاراناكي العريضُ المنكبين أن يستميلها إليه، هبَّ زوجُها غاضبًا، وطرد تاراناكي غربًا. وبينما كان هذا يندفع في البحر، خلَّف وراءه مجرى نهرٍ وانغانْوِي الضيقَ العميقَ. وحين بلغ البحر، شعر أنه صار في مَأمَنٍ من نِقْمة تونغاريرو، مع أنه ظل يرى الدخان الذي تحمله الريح من قمة الجبل الغاضب.

هزَّ تاراناكي كتفيه وتجوَّل على مهْلٍ على الشاطئ. استراح قليلًا في نْغائيري، وحين تحرك ثانيةً خلَّف في الأرض وراءه منخفضًا عظيمًا، وهو ما أصبح لاحقًا مستنقع نْغائيري.

وحين طلع النهار، بلغ تاراناكي طرف اليابسة حيث سيبقى إلى الأبد. وأحيانًا يغلفه الندى، وما هذا إلا من بكائه على پيهانغا. وفي بعض الأحيان يتذكر تونغاريرو وقاحة تاراناكي البعيد، فتشتعل

نار الغضب في صدره، وتتشكل على رأسه غمامةٌ كثيفةٌ من الدخان الأسود.

ولكن ماذا عن الجبال الشابة التي هربت شمالًا؟ كان عند پوتاواكي (جبل إدجكوم) زوجتان ارتحلتا معه. كانت إحداهما پوهاتورو، تلك الصخرةَ الشبيهةَ بالقلعة على نهر وايكاتو عند آتياموري. كانت بطيئة جدًّا في إعداد الطعام، فأدرك النهارُ الزاحفُ سريعًا پوتاواكي. تفرَّق بعضُ أبنائهما فأصبحوا جُزرًا في خليج الوفرة وصخورًا في نهر واكاتاني. كانت وَكاري (الجزيرة البيضاء) وموتوهورا (جزيرة الحوت) أيضًا مما تحجَّر بسبب شروق الشمس. رافقهما زْواواهِيا جزءًا من الطريق، ولكنه التقى بكاهنٍ شهير، فتشاجر معه. سدد زْواواهِيا ضربةً للكاهن، لكن هذا صدَّ الضربة، وردَّ عليها بمثلها، فشطرت الجبل حيث يقف الآن شطرين.

عاش مونغاپوهاتو وزوجته كَكَرامي، التي يسميها الپاكيها جبل قوس قزح، أيضًا بالقرب من شاطئ بحيرة تاوپو. أراد مونغاپوهاتو أن يرتحل شمالًا مع الجبال الأخرى، ولكن كَكَرامي أصرت على الذهاب جنوبًا. ظلا يتجادلان مدةً حتى ارتحل أخيرًا مونغاپوهاتو شمالًا مع أبنائه، مخلفًا زوجته وراءه. وظلت كَكَرامي عند البحيرة تعالج حزنها، لكنها في النهاية لم تعد تطيق البعدَ عن أبنائها. فغادرت موطنها ولحقتهم مسرعةً، ولكن الشمس أوقفتها عند وايوتاپو، جنوبَ روتورْوا، حيث تقف وحيدةً بملابسها الجميلة ذات الألوان الوضيئة، وستبقى بعيدةً عن زوجها وأبنائها إلا أن تأتي ليلةٌ سحريةٌ

أخرى لعلَّها تجمع شَتيتَ الجبال مرة أخرى.

كاكيپوكو جبلٌ وحيدٌ على حدود بلاد الملِك. وكان قد ارتحل من الجنوب حتى وصل إلى ضفاف نهر وايپا. وهناك رأى هضبةً مليحةً اسمُها كاوا، وهي ابنة پيرونجيا وتاوْپيري. وما إن رأى كاكيپوكو قوام تلك الهضبة الصغيرة الرشيق، حتى وقع في غرامها، ومكث بجانبها. ولكن كان هناك جبلان آخران يعشقان تلك الهضبة الحسناء المستديرة، وهما كارِيْوا، وهو جبلٌ صخري جَسورٌ أَشَمُّ، والآخر اسمه پيوكْتَرَاتا، وهو سلسلة جبلية مغطاة بالسرخس تقع على الطرف القصي للمستنقعات. وقد أخذتهما الغيرة من المودة التي كانت تبديها كاوا تجاه كاكيپوكو، فخاضا معه قتالًا شرسًا. ولكن پيوكْتَرَاتا سرعان ما أُصيب، فانسحب ليضمد جراحه، بينما واصل كارِيْوا كفاحه. وطلب كلا الجبلين المدَد من نيران البراكين. وانثالت من قمتيهما سحبٌ كثيفةٌ من الدخان الخانق، وسالت على جانبيهما حممٌ بيضاء متلئلئة وهما يتعاركان في عناقٍ ناري حميم. وكان الرعد يدوي من الذُّرى، بينما سحب الدخان السوداء تتخللها بروقٌ لامعة. احترقت الأشجار وجفت الأنهار، وارتجت الأرض تحت خبط أقدامهما.

وسرعان ما خارت عزيمة كاريوا وهرب من أمام كاكيپوكو، وهو يحاول عبثًا صدَّ الحِمَم الصخرية التي كانت تُلقى عليه. وظل طوال الليل يتخبط بين المستنقعات ونباتات السرخس وعبر المحيط الغربي إلى أن أوقف مسيرتَه طلوعُ النهار، فاستقر لا يتزحزح من

مكانه بعيدًا من الساحل ومن الهضبة الصغيرة التي أحبها حبًّا جمًّا. وأحيانًا تخرج من رأسه سحبٌ رقيقةٌ، فتحملها الريح، وتحط بها على كاوا، ليذكِّرها بأن قلبه لا يزال متعلقًا بها.

أما كاوا، فتحب كاكيپوكو العظيم. لذلك تدير ظهرها للرعديد پيوكُتَراتا وتمد ذراعيها إلى عشيقها على الطرف الآخر من الوادي. وحين يلفُّ الضبابُ الذكور والإناث من الجبال في عناقٍ رقيق، يقول الماوري، «هذه حقًّا ليلة عرسٍ يتزوج فيها كاكيپوكو وكاوا».

في الأيام الرمادية المظلمة في بداية الزمان كان يزور الجزيرة الجنوبية زورقٌ شِبْهُ أسطوري يُدعى أراي تي أورو. وكثيرةٌ هي الحكايات التي تُروى عنه وعن طاقمه حين أبحر على الساحل الشرقي، وتحطَّم قُربَ مو إراكي. وبإمكانكم أن تروا الزورق المتحجر في الصخور، ورُبّانَه واقفًا في وسطه باعتدادٍ، والصخورَ المستديرةَ الغريبةَ التي يُقال إنها الحوجلات التي قذفها الموج حين اصطدم الزورق بالصخور.

ومن بين من نجوا صبيٌّ يُدعى كيري كيري كَتاتا وفتاةٌ تُدعى أرورو كائيهي. ومن بين أصدقائهما كان هناك صبيٌّ صغيرٌ اسمه أوراكي. وبينما كان البحارة الذين تحطَّم زورقهم يسافرون في اليابسة، تعبت رِجْلا الصبي فحمله أحد الرجال على كتفيه. ثم ما لبثوا أن لاح لهم جبل كوك المهيب، وهو أعلى جبال الألب الجنوبية الهائلة قاطبةً.

سأل أحدهم، «ماذا سنُسمّي هذا الجبل العظيم؟»

قال آخر، «يجب أن يكون اسمه جيدًا لأنه أعلى جبلٍ رأيناه حتى الآن. دعونا نسميه باسم أطول شخصٍ هنا».

وافق الآخرون. تطلعوا حولهم ووجدوا أن أوراكي الصغير هو أطولهم جميعًا بما أنه راكبٌ على كتفي صديقه الكبير.

صاحوا، «أوراكي! ليكن هذا هو اسمه». ابتسموا للفكرة، لأن أوراكي يعني «سحابة في السماء».[30]

وهكذا أُعطي الجبلُ الاسمَ الذي نعتدُّ بتذكره. ولكنْ هناك اسمٌ آخر لخاصرتي أعظم الجبال هذا. سُمِّيت تاها تاني، خاصرةُ الرجل، كيري كيري كَتاتا، وسُمِّيت تاها واهيني، خاصرةُ الرجل، أرورو كايْهي. وهذان هما اسما صديقَيْ أوراكي، كما تتذكرون.

في تلك الأيام السحيقة، يقال إن الرجالَ والنساء كان بإمكانهم أن يخطوا من قمةٍ إلى أخرى مثل العمالقة، بل وأن يُحوِّلوا أنفسهم إلى أهرامات صخرية هائلة ويتجولوا في البلاد.

أصبح والد كيري كيري وأرورو جبلًا. كان كبيرًا وقويًا، وتحول إلى الهضبة التي نعرفها اليوم باسم جبل پيل، وصارت زوجته جبل پيل الصغير. لكننا لا نعرف إن كان كيري كيري وأرورو قد تحول كل منهما إلى جبل. وهناك من يقول إنهما تحولا إلى شجرتين على سفوح جبل پيل، وإن الأخ والأخت هذين قد تزوجا وأنجبا أربعة أطفال. وهذه هي أربع هضابٍ صغيرةٍ ابتعدت عن أبويها واستقرت وصارت أربعة جبالٍ صغيرة. بقيت عبر السنين الطويلة إلى أن جاء الرجل الأبيض إلى كانْتِبْري وسماها القمم الأربع.

26

حكاياتُ عن النباتات والأشجار

البطاطا الحلوة

من بين جميع الأطعمة التي عرفها الماوري، لا يوجد شيءٌ له قيمةٌ عُليا مثل الكومارا أو البطاطا الحلوة. لم تكن مثل جذر السرخس أو التِّفاف أو الثمار اللبية التي يمكن جمعها من منابتها في السهول أو الغابات. إذ يجب زرع الدرنات في أرضٍ مُعَدَّةٍ بعنايةٍ، ويجب أن تظل هذه الأرض على الدوام خاليةً من الأعشاب الضارة واليرقات. وهناك مراسم وطقوس يجب مراعاتها ممن يود من أرباب البطاطا أن يراقبوا محصولها ويعتنوا به.

حين أتى الماوري إلى آوتِيارُوا، جلبوا معهم هذه الدرنات الثمينة– أو أنها أتت بمعجزةٍ كما سمعنا في قصة پو وطائره العظيم.

في قديم الزمان لم تكن البطاطا الحلوة موجودةً في أي مكان على الأرض. بل كانت تعيش في السماء بحماية نجم وانْوي. في تلك الأيام كان زوج وزوجته، رونغو ماوي وپاني، يعيشان في بلاد مَتاوْرا. سمعا أن هذا الطعام الرائع موجودٌ في أقاصي السماء. غادر رونغو زوجته وتسلق إلى السماء حيث وجد النجم الإله في بيته. طلب منه أن يعطيه بعضًا من أولاده الأعزاء، دَرَنات البطاطا، ولكن وانْوي رفض.



سرق رونغو البطاطا الحلوة من الإله النائم.

قال، «إنهم لي، وسيبقون إلى الأبد معي في بيتي».

انتحى رونغو ماوي زاويةً من المنزل، واستلقى على فراش وتظاهر بأنه مرهَقٌ من رحلته الطويلة. أغمض عينيه وراح يشخر. بقي وانْوي مستيقظًا مدةً ولكنه ما لبث أن راح يغفو.

فتح رونغو عينيه ونظر إلى وانْوي الذي كان يجلس وظهره إلى الجدار وذقنه على صدره. اعتدل ببطءٍ، ولكن وانْوي لم يتحرك. نهض واقفًا، وسار على رؤوس أصابعه إلى النجم الإله، ومع ذلك لم يتحرك وانْوي. امتدت يده رويدًا رويدًا إلى السلة بجانب الإله، وقبضت أصابعُه بضع دَرَناتٍ. سار بهدوءٍ داخل المنزل إلى أن انسلَّ من الباب وأغلقه برفقٍ وراءه. أسرع عائدًا إلى الأرض في عجلةٍ محمومةٍ مخافةَ أن يستيقظَ وانْوي ويكتشفَ أن بعض دَرَناته قد أُخِذت.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تحدث فيها حادثة سرقة في البر أو البحر أو السماء، ولكنها كانت سرقةً ذات فائدةٍ كبيرةٍ لبني البشر. لكن وانْوي لا ينسى أطفاله الذين هبطوا إلى الأرض. فحين يظهر على شكل بقعة ضوءٍ تتلألأ في السماء الشرقية، يعلم حُكماء القبيلة أنه آن أوان زرع البطاطا الحلوة، وأن النجم سيبتسم لهم حين يُعِدّون الحفر لزرع الدَرَنات. لقد صار رونغو ماوي والدَ البطاطا الحلوة وپاني أُمَّهم.

كانت هناك مزارع بطاطا أخرى في السماء. كانت إحداها للإله مارو، قريبِ ماوي، الذي كان قد عاده ليمكث عنده قبل أن يعود

إلى أمه وإخوته. شبَّ ماوي من طفولته في بلاد السماء، وتعلم الكثير من الفنون التي نفعته في حياته لاحقًا. رأى أن مارو لديه محصولٌ رائعٌ من البطاطا الحلوة، لذلك نظف قطعةً أخرى من الأرض وزرع فيها محصولًا لنفسه. وذات يومٍ ذهب ليرى حقل مارو، فاكتشف أن نباتاته أكبر وبصحةٍ أفضل من صحة نباتاته هو. فغار من نجاح قريبه، فسخَّر قواه السحرية ليتسبب في سقوطٍ غزيرٍ للثلج. أدى الثلج والرياح العاتية التي تلته إلى ذبول أوراق مزرعة مارو بينما بقيت مزرعة ماوي سليمةً معافاة. رأى مارو ما حدث وعمل جاهدًا لينقذ محصوله، لكن لم تَسْلَم إلا بضع نبتاتٍ في زاويةٍ محميةٍ من المزرعة.

لقد أيقن تمامًا أن الشرَّ مصدرُه ماوي، فاستدعى إليه معشر اليرقات، وأطلقها لتعمل عملها. توجهت بالآلاف وأكلت كل نبتةٍ في مزرعة ماوي، ولم تترك له ولو نبتةً واحدةً. وكانت تلك وليمةً فتحت شهية اليرقات لأوراق النبتة، لذلك يجب على الماوري أن يحرصوا على التقاطها من الأوراق لئلا تُلاقي النباتات مصيرَ بستانِ ماوي.

الكاوري والحوت

إن أعظم سكان المحيط، باستثناء الوحش الخرافي الذي يبتلع البحار فيتسبب في دواماتٍ تُهلِك الزوارق والبشر، هو الحوت توهورا. أما على اليابسة فأعظم مخلوقٍ حيٍّ هو شجرة الكاوري،

شجرة الجزر الشمالية العملاقة، التي تنتصب مستقيمةً ومتينةً وهي تلوِّح بأغصانها العظيمة في الريح.

لو نظرت إلى جذع شجرة كاوري، لرأيت أن لها لحاءً رماديًّا صقيلَ الملمس، وأنها مليئةٌ بالراتِنج الكهرماني الذي يُدعى صمغَ الكاوري. قبل سنين كثيرةٍ كان الرجال يبحثون عن هذا الصمغ في شُعَب الأغصان ويحفرون الأرض من أجل الصمغ الأُحفوري الذي يدل على الأماكن التي ازدهرت فيها أشجار الكاوري وماتت قبل آلاف السنين.

لذلك ليس من المستغرب أن يتصادق عملاق الغابات مع عملاق البحار. وقف توهورا في المياه العميقة عند الشاطئ تحت رأسٍ برّيٍّ مغطى بالأشجار ودعا صديقته شجرة الكاوري لتأتي معه إلى المحيط.

«تعالي معي، لأنكِ إن بقيتِ هنا سيقطعك الرجال ليصنعوا منك زورقًا، ولا أمان عليك حيث أنتِ».

هزت الكاوري أذرعتها المُورِقة، وقالت باعتدادٍ، «ومن هؤلاء الرجال الصغار المضحكون لكي أكترث لهم؟ إنهم لا يستطيعون أن يؤذوني».

قال توهورا، «آه، إنك لا تعلمين. قد يكون هؤلاء الرجال صغارًا وتافهين، ولكن فؤوسهم الحادة المصنوعة من الحجر الأخضر ستقضمك قضمًا، وستحرقك نارُهم. تعالي معي قبل أن يفوت الأوان».

قالت الكاوري، «لا يا توهورا. ولو دعوتُكَ للعيش معي، لأصبحتَ بلا حولٍ ولا قوةٍ على الأرض. فلن يدعك ثقلك تتحرك على الأرض كما تفعل في المحيطات. ولو اتَّبعتُك لتقاذفتني العواصف، ولصرت تحت رحمة الماء. ستتساقط أوراقي وفي النهاية سأتهاوى إلى القاع، منزلِ تانغارو الصامت. حينها لن يعود بإمكاني رؤية الشمس المشرقة، أو أن أشعر بالمطر الرقيق على أوراقي، أو أن أنتصب لمقاتلة الريح بينما تثبتني جذوري بقوة في أمنا الأرض.

تفكر توهورا للحظة، ثم قال أخيرًا، «ما تقولينه صحيحٌ، ومع ذلك أنتِ صديقتي. أريد أن أساعدك، وأريدك أن تتذكريني. تعالي نتبادل جِلدَيْنا لكي يتذكر كل منا الآخر».

على هذا وافقت الكاوري. أعطت لحاءها لتوهورا وارتدت هي جلدَ الحوتِ الرماديَ الناعم المَلْمَس؛ والشجرة العملاقة مليئةٌ بالراتنج كامتلاء صديقها الحوت بالزيت.

أشجار السهول المتجوِّلة

كان في سالف الأيام شجرتا ملفوفٍ تحملان هذا الاسم الطويل تي واكا آوي آوي أنْغاتورو إيرانجي. قد تظنون أن هذا اسمٌ طويلٌ لشجرتي ملفوفٍ تعصف بهما الرياح على سهل كايْنغارو المنعزل. لكن استمعوا أولًا للحكاية القديمة.

قبل أن يأتي الإنسان الأبيض بمئات السنين ويزرع أشجار الصنوبر الغريبة على السهول الجرداء الواسعة، سافر نْغاتورو إيرانجي، كاهنُ

زورق أراوا الشهير، وأختاه عبر هذه السهول. جاؤوا من هَوايْكي. كانت أختاه، كْوِي واي وهونغارو، امرأتين غريبتي الأطوار تملكان بأيديهما قوى النار والظلام والسحر. كانت تتبعهم خادماتهم اللاتي يحملن طعامهم، لكنهم لم يكونوا بحاجةٍ لأخذ الماء معهم، لأنهم إذا عطشوا، خبط نْغاتورو الأرض بقدمه، فتنبجس من الأرض ينابيع من الماء الصافي. وفي منتصف السهل توقفوا للأكل. جاءت هونغارو بعد مسيرةٍ شاقةٍ في أرض الخِفاف المُغْبِرة، فظلت تأكل بعد أن انتهى أخوها وأختها بمدةٍ طويلةٍ. ضحكت منها النساء اللاتي حملن الطعام وتهامسن، «ما أطول وجبةَ هونغارو!» ومنذ ذلك اليوم صار السهل يُعرف باسم تي كاينْغارو آهونغارو، أي وجبة هونغارو الطويلة.

ولكن الأمر لا يحتمل الهزل بالنسبة إلى الكاهنة الشرسة. فغضبت من إمائها وراحت تُمطِرهنَّ بكلماتٍ جارحةٍ وصفعاتٍ ثقيلةٍ، وكانت تسوقهن أمامها كأنها ريحٌ عاتيةٌ. ساقهن الخوف بعيدًا عن متناول يديها، فأنزلت بهن مصيرًا أسوأ وحوَّلتْهُن إلى أشجارِ ملفوفٍ.

لا توجد أشجارُ تي أو ملفوفٍ أخرى في طول آوْتِيارُوا وعرضها. لم تُرسِّخ جذورَها في الأرض بل حُكِم عليها أن تتجول مُشردةً، ضائعةً إلى الأبد على السهل الذي استغرقت فيه هونغارو وقتًا طويلًا لتُنهي وجبتها. وقد سمّاها الماوري تي واكا آوي آوي، أي أشجار الملفوف المتجولة. يراها المسافرون من بعيدٍ، لكنها كانت تتراجع أمامهم لتظهر فجأةً في سحب الضباب التي كانت تعصف بسهول

الخِفاف ولتتبعهم من بعيدٍ.

وأخيرًا، شاخت وتعبت فتحولت إلى أشجارٍ طويلةٍ عظيمةِ الساق، ولاقت حتفَها مرةً بحدٍّ مِنْحَت من الحجر الأخضر لزعيمٍ من زعماء الماوري، ومرةً بنصل فأس الپاكيها الفولاذي. انتهى مُزاحُهن القصيرُ على حساب هونغارو، وعاد السلامُ أخيرًا.

شجرة هيناو في رُواتا هونا

لجأت نساءُ تيوهو الراغباتُ في الإنجاب إلى شجرةٍ كان أحد أسلافهن هو من جعلها مثمرةً. كانت شجرةً مبجلةً تُعرف باسم تي إيهو أوكَتاكا، وازدهرت عددًا من السنين على سلسلةٍ جبليةٍ مغطاةٍ بالحِراج. مدَّ زائرٌ اسمه كَتاكا يدَه ليلتقط بعض الثمار من شجرة الهيناو هذه، فسمع صوتًا يقول له، «لا تأكل ثماري، فأنا روحُ حياةِ طفلِك».

أطاع كَتاكا الصوتَ الذي أخبره أن الشجرة مقدسة لأطفاله.

مرت القرونُ بطيئةً، وظلت شجرة الهيناو منتصبةً على السلسلة الجبلية، ورُوِيَ عن قوتها حكاياتٌ كثيرةٌ.

كانت الزوجات العواقر يتهامسن بينهن أن من أرادت أن تصبح أمًّا فعليها أن تذهب إلى إيهو كَتاكا وأن تطوِّق جذعَها بذراعيها.

كنَّ يذهبن سرًّا في الصباح الباكر أو عند الغسق، يرافقهن أزواجُهن وكاهنٌ يرشدهن إلى ما يجب فعله. كان الجانب الذي تشرق عليه الشمس هو جانب الذكورة، والجانب الذي تغرب عليه

هو جانب الأنوثة. لذلك إذا أرادت الأم الشابة ولدًا طوَّقت الشجرة من جانبها الشرقي، وإذا أردات بنتًا طوَّقتها من جانبها الغربي، إذ كانت بضعُ نساءٍ يفضلن أن يلدن البنات، وهذا أمرٌ تستغربه صديقاتُهن. فكانت الشجرة تبعث في أجسادهن حياةً جديدةً للعالم.

پوهوتو كاوا الشادِيَة

من الأشجار الأخرى التي يمكننا أن نتحدث عنها شجرة پُوهوتو كاوا التي تحرس بوابةَ العالم السفلي عند رأس تي رايْنغا، أو شجرة هينا هوپو للأمنيات، أو شجرة المانوكا عند وَكَتاني التي يقال إنها كانت أقدس شيءٍ في البلاد.

لكن دعونا نختم حكاياتنا بحكاية تاپُواي، شجرة خليج أوهو كاكا في روتويْتي التي تُنذِر بالرياح. فهذه الشجرة القديمة الكثيرة العُقَد المتباهيةُ بأزهارها القرمزية تتدلى فوق حافة جرفٍ طويلٍ. فحين تتهفهف أغصانها الناعسة مثل الذبابة نْغارو، فتلك إشارةٌ على طقسٍ جميلٍ وسماءٍ زرقاء، أما إذا همست في النسائم الرقيقة، فإنها تنذر بالمطر والريح. كانت الأغنية الهامسة تتعالى أحيانًا فتصير صراخًا حادًّا، فكان الصيادون في البحيرة الذين يسمعونها يُهرَعون إلى الشاطئ لأنهم يعلمون أن العاصفةَ قادمةٌ.

لدى الأشجار سحرٌ، سحرٌ قويٌّ في كل أولاد تاني الذين ادَّعى أُبوتهم ربُّ الطبيعة الذي كان يغذيهم بالماء وتربةِ أمنا الأرض الداكنة، ثم أسكنها بأحب المخلوقات الأخرى لديه، الطيور!

27

حكاياتٌ عن الحجر الأخضر

وايابو وپوتيني

كانت هينا تو آهونغا، حارسةُ الحجر الرملي المعروف باسم وايابو، تغار من نْغاهو وكنزه الثمين الحجر الأسود المعروف باسم پوتيني. لو أنه كان في مكانٍ آخر، أو لو يملك قطعة اليَشَب البهية البراقة، لكانت بأفضل حال. لذلك بثت عنه إشاعاتٍ خبيثةً وافترت عليه افتراءاتٍ جعلت أصدقاءه ينظرون إليه نظرة شزراء. صارت حياة نْغاهو لا تُطاق، فقرر أخيرًا أنه لن يعيش بسلامٍ ما لم يهجر بيته في هَوايْكي.

أعدَّ زورقه لرحلة بحرية طويلة. أخذ پوتيني معه، وانطلق مبحرًا لا يعرف إلى أين يذهب، بل كل الذي يعرفه هو أنه سيتخلص من اضطهاد هينا. وما إن ارتحل حتى صار قلب هينا يأسى لفقدان يَشَب نْغاهو بدلًا من أن يفرح. كان وايابو وپوتيني في حربٍ دائمةٍ، ولكن كل منهما بحاجة للآخر، لأن واحدًا منهما كان حجر الطاحون والآخر هو الحجر الذي يُطحَن.

أمرت هينا بأن يُعدَّ زورقُها على عَجَلٍ وتبعت عدوها القديم، وهي لا تدع قمة شراعِه في الأفق تغيب عن ناظريها البتة. ظلت تلاحق نْغاهو يومًا بعد يومٍ إلى أن رسا أخيرًا على جزيرة توهْوا. لحقت

به هينا إلى الشاطئ، لكنها اكتشفت من جديدٍ أنها لا تستطيع تحمله طويلًا، كما لا يستطيع واياپو وپوتيني أن يمكثا مع بعضٍ في سلامٍ. أبحر نْغاهو من جديدٍ مع پوتيني، فتبعته العنيدة هينا تو آهونْغا، التي يربطها به حسدٌ وخبثٌ دائمان، إلى أن وصلا إلى آوتِيارُوا التي لم يرها أحدٌ من قبل.

هنا وجدا أرضًا جبالُها ضبابيةٌ مكللةٌ بالثلوج، وغاباتها خضراء، وفيها الأطيار تشدو، وفيها متسعٌ لنْغاهو ليستمتع بپوتيني بلا تطفلٍ. لقد عزم على إنهاء الصراع بين الحجرين، فلم يسترح إلى أن جاء نهرَ أراهورا الذي جعله مُستراحًا أبديًّا لحجره. إذ دفنه في مائه السريعِ الجَرَيان، تُهفهِف من فوقه الأشجارُ، والماءُ الباردُ يلعقه من كل جانب ويُزبِد فوق جسده.

عندئذٍ ارتحل إلى موطنه، ولكنه أخذ معه كسرةً صغيرةً من پوتيني، لأنه لم يكن يطيق فراق كنزه العزيز نهائيًا.

سألوه حين عاد، «وماذا رأيت في البلاد البعيدة؟» ابتسم وروى لهم حكاياتٍ رائعةً عن طيورٍ تُدعى المُوا ويبلغ حجمها حجم عدة رجالٍ، وعن الحجر الأخضر المدفون في نهرٍ جبليٍّ باردٍ، وعن الحَمَام ذي الذيل المروحي وحمام الغابات، وعن طيور البَلْشون البيضاء الرائعة، وعن أشجارٍ تتألق كالنار بأزهارها القرمزية. أخرج قطعة پوتيني من مخبئها وصنع منها الفؤوس والقلادات، وأخبرهم أن الجزيرة الجنوبية فيها الكثير من الحجر الأخضر الذي يسر قلوبهم.

كانت مثل هذه الحكايات التي تنتقل من قريةٍ إلى قريةٍ هي التي

جاءت بالماوري إلى آوتِيارُوا.

تي واهي پونامو

كانت الجزيرة الجنوبية من نيوزيلاندا بلا منازعٍ تي واهي پونامو– موطن الحجر الأخضر. لكن من بإمكانه أن يجزم كيف أتى الحجر الأخضر إلى هذه الجزيرة الجنوبية؟ هل جلبه نْغاهو معه وخبأه في النهر، أو كما يقول البعض، هل أرسلت هينا تو آهونغا السمكة الخضراء لتطارده حتى التجأ في النهر؟ يقولون إنه ارتحل باتجاه منبع النهر في الظلام الذي لا تنيره إلا قمة تارا أوتاما المتوهجة وفي إثره پوتيني. كافحت السمكة وهي تحاول صعود شلالٍ صغيرٍ لكنها عجزت عن الوصول إلى رأسه. قَلَبَها الماءُ فسقطت على الصخور في الأسفل، وانزلقت في بركةٍ عميقةٍ. وبعد إصابتها جرّاءَ السقوط وإنهاكها من الكفاح الطويل، ماتت فتحول جسدها إلى كتلةٍ من الحجر الأخضر الذي سُمِّي به الشاطئ الغربي، بل كل الجزيرة الجنوبية. كان پوتيني سمكةً حادةَ الطباع أيضًا. ومن يستسلم لسوء طبعه من الصبيان يوبَّخ بهذا القول، «ها! إنه من ذُرِّية پوتيني!»

يُعَدُّ تانجي واي أروعَ أنواع الحجر الأخضر، فهو صافٍ وبرّاقٌ، ويحتوي على قطراتٍ من الدمع. إنها ماء البكاء، ولعلَّ حكايات نْغاهو وپوتيني ما هي إلا خرافاتٌ من الزمن الضبابي قبل بدء الزمان، إذ توجد حكايةٌ أخرى يجب أن تُحكى. إنها قصة تانجي واي وتاما كي تي رانجي.[31]



شق تاما طريقه بين أجراف المضائق البحرية الشاهقة.

بعد أن استوطن الماوري في آوتِيارُوا بسنين عديدةٍ هجرت تاما زوجاتُه الثلاث: هينا كاوا كاوا، هينا كاهو رانجي، وهينا پونامو. لا أحد يعرف أين ذهبن. راح تامو يطوف السواحل الجنوبية بلا طائل. رسا عند كاي كورا حيث وجد طاقمُه وفرةً من جراد البحر الغض، فسموه كاي كورا أتاما كي تي رانجي، وذلك تخليدًا للوجبة التي أكلها تاما هناك.

غادر كاي كورا واستدار حول موري هيكو، آخر البلاد، وتجاوز المضائق البحرية الجنوبية. وعند پيو پيو تاهي (لسان مِلفورد البحري) سمع ضجةً مريبةً، فعبر من بين أجراف اللسان الشاهقة. وهناك وجد إحدى زوجاته وقد تحولت إلى حجرٍ أخضرَ شفافٍ. انحنى فوق الجسد البارد. انهمرت الدموع على خديه ومن هناك سقطت على الحجر القاسي، واخترقته حتى صار التانجي واي مُنقَّطًا بالدموع.

الحزن على من ارتحل، أما الحياة فلمن بقي. وفي مكانٍ ما كانت زوجتاه الأُخريان تنتظران زوجهما. بحث تاما في كل لسانٍ بحريٍّ حتى تمزق رداء سفره وصار شرائط وهو يمر في الغابات الكثيفة، فنبتت كل نباتات الكتان والكيكي وأجمات فيوردلاند المتشابكة من مِزَق ردائه المهترئ المصنوع من الكتان الخام.

ثم ظل يبحر شمالًا حتى سمع أصواتًا عند مصب نهر أراهورا. نادته هذه الأصوات، فتبع الزورق النشيد المتراجع إلى أن جاء شلالًا فلم يعد باستطاعته أن يذهب أبعد من ذلك. كان النشيد عاليًا في

أذنيه لكنه لم يجد أثرًا لزوجتيه. لم يكن يعلم أن الصخور التي أراح عليها يده والسلسلة الصخرية تحت الماء هي جسدا زوجتيه والزورق الذي انقلب بهما في النهر الشادي.

هجر تاما زورقه وراح يسير على قدميه حزينًا مع عبده تومو آكي إلى أن وصلا إلى جبال تانييري. وهناك توقفا وشويا طيورًا من أجل العشاء، ولكن تومو آكي أحرق أصابعه فمصها. وبهذه الطريقة اقترف أمرًا محرمًا، وجزاءً له مُسِخ جبلًا يحمل اسمه، بينما توتا إيكوكا، وهو نوع آخر من الحجر الأخضر، سُمّي بهذا الاسم ليذكِّرهما بالطيور التي شَوَياها.

تانجي واي، كاهو رانجي، كاوا كاوا، توتا إكوكا، هذه أسماءُ أنواعٍ مختلفةٍ من الحجر الأخضر التي ضاعت من تاما كي تي رانجي وهو يبحث عن زوجاته الهاربات ولم يجدهن.

كاهو رانجي

كاهو رانجي هو الاسم الجميل الذي تحمله زوجة تاما، ويعني عباءة السماوات. وهو أيضًا اسم لجدةٍ مشهورةٍ لقبيلةٍ كانت تقطن على شاطئ خليج هوراكي. وصارت ذُرِّيتها قويةً وفي رغدٍ من العيش. كانوا يتفاخرون بقوة عصبيتهم واعتقدوا أن نجاحهم عائدٌ إلى قوتهم هم. فهجروا تبجيل الآلهة ونسوا أن يؤدوا الشعائر المقدسة.

حزنت روح كاهو رانجي لما رأت قومها يتمادون في تفاخرهم.

فهبطت من منزلها في السماء ودخلت إحدى القرى غير المُسوَّرة متنكرةً بهيئة غريبٍ. كان كاهن وثلةٌ من المؤمنين لا يزالون يقيمون بعض الشعائر القديمة. فذهبوا إلى نهرٍ، ترافقهم كاهو رانجي، وأنشدوا التراتيل. واختتم الكاهن الطقوس بأن ضرب سطح الماء بمجدافٍ. وحين فعل هذا توهَّج حولهم نورٌ ساطعٌ كالنار وبرزت من سرير النهر صخرةٌ. وحين تلاشى النور، كانت كاهو رانجي قد اختفت، ولكن الصخرة بقيت، فشطرت النهر شطرين.

ظل الناس مدةً من الزمن لا يجرؤون على الاقتراب من الصخرة الغريبة التي بدت كأن ضوءًا يُشعُّ من داخلها. وذاتَ يوم غامرت عجوزٌ مشهورةٌ بقواها الخارقة واقتربت من الصخرة. مدت يدها ولامستها. وفجأةً ادلهمَّت السماء، ودوّى الرعدُ، وطار من السحب برقٌ ذو شُعَبٍ وضرب الصخرة فتلاشت. انزاحت السحب، وبزغت الشمس على المياه التي كانت تجري كما جرت لدهورٍ قبل مجيء الصخرة. كان كل شيءٍ هادئًا عند النهر، ولكن المرأة كانت ذراعها تؤلمها ألمًا لا يُطاق. شقت طريقها بين الآجام إلى بحيرةٍ موحلةٍ وغطست في الماء، وراحت تصبه على رأسها وجسدها وهي تدعو الآلهة. كما جاءها الألم فجأةً، كذلك غادرها فجأةً، وامتلأت العجوز بالمانا، بالقوة المانحة للحياة التي أتتها من كاهو رانجي. عادت إلى القرية راكضةً وأخبرت قومها. سخروا منها في البداية، ولكن حين أرتهم كيف بإمكانها أن تتسلق الأشجار أسرع من الصبيان، أدركوا أن قوةً عجيبةً حلَّت بها.

بل حدثت أشياء أغرب من هذا. بدأ المرض يحصد بعض كبار زعماء القبيلة، واشتد القحط على المحاصيل ونزل بها البلاء، وباغتتهم غاراتُ أعدائهم. لقد تسلطت على قوم هوراكي الجبارين أيامٌ حُسومٌ.

ذهب الزعيم وعِليةُ القوم في أكبر القبائل إلى كاهنٍ مشهورٍ وتوسلوا إليه أن يطلب المدد من الآلهة. ظل الكاهن يدعو الآلهة طوال الليل، مُستخدمًا كلمات التراتيل القديمة التي تعلمها في شبابه. كان صوته يعلو ويهبط في إيقاعٍ عجيبٍ جعل الناس يرتجفون في منازلهم.

وفي الصباح جمعهم الكاهن في الساحة.

قال لهم بصوتٍ رزين، «لقد قالت الآلهة كلمتها. سيأتينا غدًا زوارٌ. إنهم أهلنا. ومن بينهم عجوزٌ اسمها توكي واكا تيتي التي مرت من تحت ظل صخرة كاهو رانجي. توكي هي سببُ متاعبكم. لقد أخبرني الأربابُ أن جدَّتنا الكبرى كاهو رانجي عادت إلينا من حبِّها لنا ولأنها أرادت أن تطهرنا من التبجح والآثام. اتخذت شكل صخرةٍ، ولكن توكي سلبتها قوتها، فارتحلت الآن كاهو رانجي. يكمن شيءٌ من قوتها في توكي، لكن هذه امرأةٌ شريرةٌ.

«وحين يأتي الزوار، راقبوها مراقبةً شديدةً. فقوة كاهو رانجي تكمن في ذراع توكي. حين يحل الليل ستذهب توكي إلى النهر لتطهر المانا، وبعد ذلك ستجلس على تلةٍ رمليةٍ وستصنع على الأرض دائرةً من الثمار اللبية حولها. وعليكم أن تمسكوا بها ما إن تنتهي، وتجمعوا

الثمار، وتأخذوها إلى منزلٍ تشتعل فيه نارٌ. اطلبوا منها أن تخبركم بسرها. وإن رفضت، فألقوا بالثمار في النار، وارفعوا ذراعها. سترون مانا كوهو رانجي على ضوء ألسنة اللهب وهي تلتهم آخر ثمرة. خذوا كِسرة لحاءٍ من شجرة راتا، وقرِّبوها من ذراعها. بهذه الطريقة يمكن حيازة المانا. أبنائي، إن عملتم هذه الأمور واحترمتم اللحاء المبارك بالمانا، ستصطلح أموركم في نهاية الأمر».

رفع الكاهن يديه بركةً لأهله، ثم سقط على الأرض. وحين ذهبوا إليه وجدوا أن الآلهة قد أخذت روحه لنفسها.

تذكروا كلماته، وحين أتى الأهل في اليوم التالي، تبعوا توكي واكا تيتي. وعند الغسق وحين احترقت آخر الثمار في النار، انتقلت مانا كاهو رانجي إلى لحاء الراتا، ثم دُفنت في أرضٍ مقدسةٍ.

في تلك الليلة تشاور الزعيم مع وجهاء القبيلة وقال لهم، «رأيت منامًا. بين الزوارِ زعيمٌ، وعليه أن يتزوج ابنتي ويذهب بها. وهذا ضروريٌّ لمصلحة قبيلتنا. فمن خلال الطفل الذي يولَد لهما ستعود مانا كاهو رانجي ونصير أقوياء من جديد».

مات الزعيم في اليوم التالي، فعُقِد حفل الزواج فوق جثته. وفي الليل كانت العروس قلقةً مكتئبةً، فسألها زوجها الشاب عما يزعجها. قالت له، «لقد رأيت في المنام أن روح أبي ظهرت لي وأخبرتني أن نستخرج لحاء الراتا».

وحين أشرقت الشمس من جديدٍ ذهب الاثنان مع بعض أصدقائهما ليجمعوا المحار وجذور السرخس ليقدموها قرابين

للآلهة. قُصَّ شعر المرأة الشابة برُقاقةٍ من حجر السبَج، ثم وُضعت الضفائر الثخينة على الأرض. كُشف اللحاء وانتُشل ووُضع على رأس العروس. صرخت من الألم، وحين أُزيل اللحاء وُجد أن بقية شعرها قد احترقت، فصارت فروةُ رأسها ملساء بيضاء.

قالا لبعضهما همسًا، «هذه علامةٌ على أن الروح ما زالت تعيش في اللحاء». ثم وضعاه في وعاءٍ مزخرفٍ بشكلٍ دقيقٍ.

قالوا لهما، «خذا هذا في أسفاركما. سيحميكما من كل أذى، وسيرشدكما في طريقكما».

عادا إلى القرية وبدأ الزعيم وزوجته تطوافهما. تسلقا جبالًا وعبرا سهولًا واسعةً، على أمل أن يرشدهما الأرباب. مرت أشهرٌ طويلةٌ من القَرِّ والحَرِّ. تعبت المرأة ومرضت، ولكن حين ذهب زوجها ليأتي لها بشربةٍ، لم يجد ماءً. كان الليل حالكًا، ولم يكن بوسعه أن يرى مقدارَ ذراعٍ أمامه. جلس بجانب زوجته، أحس بأحجارٍ تحت يده فراح يقذفها بلا هدفٍ هنا وهناك. فكانت تُحْدِثُ إما صوتًا مكتومًا على الأرض أو تصيب الأوراقَ والأغصان الصغيرة الطرية؛ لكن حجرةً واحدةً أصدرت صوت بقبقةٍ حين سقطت.

صاح، «ماء!» ولما حمل زوجته بين ذراعيه ظهر القمر من خلف كتف الجبل وكشفَ بحيرةً صغيرةً مختبئةً بين الأشجار. مدَّد الزعيم زوجته على الحافة العشبية وغسل رأسها. انتعشت وشعرت بالقوة والتعافي من جديد. ألقيا حزمة من أوراق التيتوكي في الماء قربانًا لروح البحيرة. فجأةً سطع من شِقٍّ في الصخور عمودٌ من النور

على وجهيهما. حاولا أن يرفعا العلبة التي تحتوي على اللحاء، إلا أنها أصبحت ثقيلةً لا يمكن لأحد زحزحتُها. انطفأ النور، وحجبت السحبُ القمر، فسمعا في الظلام صراخَ وليدٍ. أمسكت المرأة بيد زوجها بقوةٍ وهمست له قائلةً، «ادعُ الآلهة من أجلي».

خاضت في الماء ووقفت تحت الصخرة التي ظهر عندها النور. ولما حدقت إلى الأعلى رأت وجه الكاهن العجوز، وانهمرت الدموع على أخاديد خدَّيه الموشومة.

«لقد جُزيتِ خيرًا لشجاعتكِ، يا بُنيَّتي. هذا هو مسقط كاهو رانجي، والصوت الذي سمعتِه هو صوتُها. وقوة حياتها تعيش فيك الآن. ستأتي أتراحٌ، ومن بعدها أفراحٌ عظيمةٌ من خلالها سيعود أهلنا إلى سابق عهدهم».

غابت الاحتفالات أو الألعاب من القرية. كان حراس برج المراقبة يترقبون بفارغ الصبرِ عودة الزعيم وزوجته. فرحت القبيلة لعودتهما، لكن لم يُقَل كلامٌ كثيرٌ، إذ ما فتئت القبيلة ترزح تحت وطأة الشر.

وبعد عدةِ أيامٍ أنجبت ابنةُ الزعيم بنتًا في عاصفةٍ هوجاء. عاشت المخلوقة الصغيرةُ ستةَ أيامٍ، وكانت صرخاتها لا تُسمَع من العاصفة التي لا تنتهي. في اليوم السادس لم ينقطع البرقُ وبدت الطفلة كأنها تسبحُ في نارٍ سائلةٍ؛ وفي اليوم السابع انسلَّت روحها من جسدها وأُخذت إلى بيت الآلهة.

لم يكن للطفلة أثرٌ. في مكانها وُجِدت قطعةٌ من الحجر الأخضر،

وكانت صافيةً كصفاء البحيرة ومستديرةً كأنها دمعة.

قالت المرأة الشابة وهي تبكي، «إنها روح طفلتنا ومانا أسلافنا. إنها كاهو رانجي ذاتُها وطفلتنا وسلامُ قبيلتنا ورخاؤها!»

طالما بقيت كاهو رانجي معززةً مكرمةً، فلن يخبوَ فخر قبيلة هوراكي أو قوتها ثانيةً، لأنها جاءت بالدموع والحزن والعار، وأحيتها المحبة.

28

حكاياتُ عن الأسماك

المحارة التي حملت غُربونَ محَبَّة

حملت محارةٌ صغيرةٌ ذات يومٍ رسالةَ حبٍّ من الساحل الشرقي إلى خليج الوفرة. كان شابٌ قد زار أقرباءه في خليج الوفرة، فرأى فتاةً داكنةَ البشرة، بُنية العينين، سوداءَ الشعر تعيش في أوپاپي، فوقع في غرامها. ولأنه لا يملك حَزْمَ توتا نيكاي أو پونغا، عاد إلى موطنه بالقرب من غِزْبورن، ولم يصرِّح بحبه، بل لا يدري إن كانت الفتاة قد لاحظته بين الزوار الآخرين.

ظلت تشغل بالَه وهو يتقلب على فراشه ليلًا، أو يصطاد الطيور في الغابة نهارًا، أو في الزوارق يصطاد الأسماك. كان مضيق وايو إيكا الطويل المتعرج هو الممر الوحيد عبر الجبال، وهناك قد يقع المسافر الوحيد فريسةً لأعدائه. والطريق الساحلي طويل ومحفوفٌ بالمخاطر، وليس لديه زورقٌ خاصٌّ به. وأخيرًا ابتكرت روحُه المشتاقةُ طريقةً يوصِل بها إليها رسالة حبِّه.

اختار محارةً من الشاطئ، فهمس لها في هدأة الليل، ثم قذفها في البحر وهو يدعو الأرباب أن توصل رسالته إلى حبيبته.

تقاذفت الأمواج المحارة الصغيرة جيئةً وذهوبًا، فكانت تغوص وتطفو من جديد. حملها تيارٌ قادمٌ من الجنوب في طريقه وتجاوز بها



علّقت الشابةُ المحارةَ في عنقها.

الرأس الشرقي ثم إلى المياه الدافئة في خليج الوفرة. وظلت تسبح وتزحف من صخرةٍ إلى أخرى حتى وصلت أخيرًا إلى أوبابي، ورقدت على الرمال.

في ذلك اليوم، أو الذي يليه، ذهبت الشابة إلى الشاطئ لكي تجمع البيبي وبلح البحر من أجل الطعام. التقطت المحارة الصغيرة ثم قذفتها لصغرها. تمكنت المحارةُ بطريقةٍ ما من أن تقترب منها وأن تتحرك بمحاذاة الشاطئ. ظلت تلتقطها ثم ترميها عدةَ مراتٍ، ليس فقط في ذلك اليوم بل في الذي يليه والذي يليه.

لكنها ما لبثت أن عرفتها من العلامات المميزة على صَدَفتها. فحيثما ولَّت وجهها وجدتها في متناول يدها، ومهما قذفتها بعيدًا، كانت دائمًا تعود. عندئذٍ أدركت أنه لا بد من وجود شيءٍ غريبٍ في محارةٍ تعود كلما أُلقيت بعيدًا، ولكي تسايرها أو لتضع حدًّا لإلحاحها، نَظَمَتها في خصلةِ كتانٍ وعلَّقتْها حول عنقها.

لم يكن لديها من يخبرها بمدى خطورة المحارة على عُذريتها. أنشدت المحارةُ أغنيةً بلا كلماتٍ أو لحنٍ، أغنيةً تغلغلت في صدرها وملأت قلبها شوقًا وحبًّا. تذكرت شابَّ رابيةِ تيتي رانجي الذي رقص قبل شهورٍ في بيت التسلية. فهامت به، وتاقت إليه، ولم تعد تطيق العيش من دونه.

همست لها المحارة الصغيرة، «عليك أن تذهبي إليه الآن، الآن، الآن!»

لا نعرف كيف ذهبت: هل قابلها الشابُّ في منتصف الطريق، أم

أقنعت أباها أن يأخذها بالزورق، أو إن اجتازت الجبال الوعرة، أو إن كانت وحيدةً أم معها أحد؟ الأهم بكثيرٍ من هذا هو أنها بلغت مبتغاها والتأم شملُها بحبيبها لأن المحارة الصغيرة نفذت مهمتها على أكمل وجه.

كيف هبطت أسماك الأنقليس إلى الأرض

في بداية الزمان حين خُلقَت السماء والأرض أولَّ ما خُلقت، عاشت أنواع منوعة كثيرة من الأسماك وأسماك الأنقليس في المياه الباردة للعالم العُلوي الثاني، في نبع پونا كاو أريكي. فقد جعل تاني الشمسَ زينةً لرانجي؛ ثم مرَّت السنون وربط ماوي الشمسَ بالسماء وجعلها تسير بشكل أبطأ في قبة السماوات.

مرت عهودٌ بعد ذلك، واحترَّت مياهُ رانجي تاماكو، السماءِ الثانيةِ، جرّاء حرارة الشمس، فتبخرت، وامتلأ العالم العُلوي بالبخار، وجفَّت الينابيعُ. نمت نباتاتٌ مائيةٌ وغطت المياهَ السطحيةَ المتبخرةَ، ولم يكن هناك مكانٌ تعيش فيه أسماكُ الأنقليس بارتياحٍ.

لذلك قررت أن تهبط إلى الأرض. كان هناك الباراكودا پارا، وسمكةُ الأنقليس العمياء تُويري، والقرشُ مانغو، وصغير الأسماك إنانغا، والجِلْكي پيراهاو، وسمكة الأنقليس تونا، وسمكة السَّلّور نْغُويْرو. وكان طائرُ الواقِ ماتوكو هو الذي سرَّع هبوطها، إذ كان يراها بوضوحٍ في المياه الضحلة، فما كان يدعها ترتاح لحظةً وهو يطاردها بين الأعشاب المائية.

وفي أثناء رحلتها بين السماوات، التقت هذه الأسماك بتوهاكي الذي كان يصعد السماء بحثًا عن زوجته.

فسألها، «لماذا تغادرون موطنكم؟» فأخبرته أن عالَمها أصابه قحطٌ وظمأٌ، وأنها تخشى منقارَ ماتوكو الحادَّ.

«هل پاپا، الأرضُ التي خلَّفتها وراءك، مكانٌ يناسبنا».

قال لها توهاكي، «كل شيءٍ على ما يُرام. هناك جداول وبحيراتٌ ومستنقعاتٌ وبحارٌ ذاتُ ماءٍ باردٍ، فيها متسعٌ لكم جميعًا».

في البداية اتخذت هذه الأسماك ملجأً في الجداول، ولكن پارا ساءت طباعُه فهاجم تونا الذي هرب إلى المستنقعات وحُفَرِ الماء العميقة. عندئذٍ أخذ پارا معه كلًا من نْغُويْرو وتُوِيْري وتوجَّه إلى البحر حيث يعيش في محيط كِيوا العظيم.

كانت تُوِيْري، سمكة الأنقليس العمياء التي تُدعى أيضًا حَيْزَبون الأسماك، كريهةً ولزجةً، فقالت لتونا مُودِّعةً. «ابق في مستنقعاتك الكريهة. ففيها سيصطادُك أبناءُ تو ليأكلوك».

غضبت تونا وقالت، «اذهبي إلى البحر إن شئت. وأحذرك أنك ستصيرين طعامًا للقرش مانغو». وهكذا كان بالفعل، فالقرش هو النوع الوحيد من الأسماك الذي يأكل أسماك الأنقليس العمياء.

كان الجِلْكي پيراهاو يحفر تحت الضفاف المحصبة، وارتحل صغير الأسماك إنغانا إلى المياه الضحلة لينجو بنفسه من أفواه پارا ونغُويْرو ومانغو الجائعة. حتى تونا لم تكن في مأمنٍ، لأن الواق ظل يطاردها ويفترسها في مستنقعات پاپا تو أنوكو الأبدية.

كوكو وپيپي

كان بَلَحُ البحر كوكو والقوقعة پيپي عدوين، هما وعائلاتهما. كانا يتقاسمان الشاطئ عند أوني تاهْوا، حيث حمي الوطيس بينهما. اندست القواقع في الرمال وحامت عن قريتها المسوَّرة من هجوم بلح البحر. تقدم بلح البحر في صفوفٍ، وهي تنوش أعداءها بألسنتها، ولكنها غصَّت بالرمال، فاضطرت للتقهقر إلى الصخور على طرف الشاطئ. لهذا السبب تندس القواقع في الرمال، ويتشبث بلح البحر بالصخور.

سمع تي پو واكا هارا وتاكا آهو، وهما والد الحيتان وأسماك القرش، بالخصومة، فعجبا أيّما عجبٍ من طرائف صغار القوم. سأل تي پو واكا هارا عن سبب الخصومة.

قال تاكا آهو، «إنهما يتقاتلان على ملكية الشاطئ. يجب علينا أن نعطيهما ما يتقاتلان من أجله. أولادنا جائعون، وسيكون هذان لقمةً سائغةً لهم. هيّا نهاجمْهما الآن».

ردَّ تاكا آهو، «لا فائدةَ من ذلك، إذ سيتراجعان إلى ما وراء تحصيناتهما الرملية».

لكن تي پو أصر على أن الهجوم المباغت سيوفر وجبةً لأطفاله، فقاد تاكا آهو أتباعه في هجومٍ على الشاطئ. هربت القواقع من أمامهم بسرعة الطير واندستْ في الرمال وتوارت عن الأنظار بلمح البصر. وجَنَحَت الحيتان إلى الشاطئ وعلقت هناك. امتلأت غلاصمها بالرمال وماتت. لا بد أن تكون القصة حقيقية. ألم نرَ أو

نسمع جميعًا عن حيتانٍ عالقةٍ كانت قد جاءت لتأجيج الصراع، فخلَّفها المدُّ المتراجعُ على الشاطئ؟

توتارا هاوِيْكا كبير الحيتان

كانت النساء والأطفال، بل حتى الرجال البالغون، يتحاشون الصخرة الكبيرة التي تُدعى توكا آهومِيا لأنها تُواها الكاهن العجوز تي تاهي أُوْ تي رانجي، أي محرابُه ومَقْدَسُه. كان هذا رجلًا تُخشى غوائلُه، فهو يقتل من بعيد، ويمارس الشعوذة، وهو قرينٌ للأرواح الشريرة.

وطالما تمنوا لو أنه يقع فريسةً لقوى الظلام، إلا أن الكاهن العجوز كان بأحسن حالٍ وتغلب على أعدائه بدهائه ونفوذ ويرو الشرير.

قال الوجهاء، «علينا أن نقتله، لكن ذلك يحتاج إلى حيلةٍ وتخطيطٍ دقيقٍ». سهروا ليلًا وهم يحيكون مؤامرةً بمهارةٍ وأناةٍ كما تفعل امرأةٌ في تطريز الأرْدِية.

وحين أصبح الصباح أعدّوا زوارقهم لرحلةٍ بحريةٍ، وأخذوا معهم مؤونةً من الطعام والماء. ثم أرسلوا رسولًا إلى تي تاهي ليخبروه أن رجال القبيلة ذاهبون إلى وَكاري، أو الجزيرة البيضاء، وهي جزيرةٌ بركانيةٌ في خليج الوفرة، في رحلةٍ لصيد الطيور البحرية، وأنهم يريدونه ليكون كاهنهم ليحميهم في الرحلة وليؤدي الطقوس المقدسة قبل بدء الصيد. كان قد مضى زمنٌ طويلٌ منذ آخر مرةٍ دُعي فيها تي تاهي للمشاركة في الأنشطة الاجتماعية، فقبل الدعوة.

أُجلِس في مكان الصدارة في أكبر زورقٍ، وسار الأسطول مع مجرى النهر إلى عرض البحر. انتفخت الأشرعةُ بنسيمٍ خفيفٍ، وفي أواخر العصر رسوا على شواطئ وَكاري المتبخرة.

تُرِك بعضُ الناس لحراسة الزوارق بينما ذهب الصيادون ليبحثوا عن طيور التيتي (سيَّاف البحر). رافق تي تاهي مجموعة من كبار الزعماء الذين تقاطروا على حرف الأجراف المسيَّجة بأشجار البوهوتو كاوا وانعطفوا إلى الجانب الشمالي الشرقي للجزيرة، حيث وجدوا كهفًا يبيتون فيه ليلتهم. وبحلول الظلام أُشعِلت المشاعل، واصطاد الرجال طيور سيَّاف البحر وهي تجثم في جحورها غير العميقة وقد بهرها الضوء. كان منظرًا غريبًا أن ترى المشاعل وهي تتوهج وتدخِّن وتنير الأرض المتبخرة، والطيور تجثم بلا حراكٍ وهي تحدق بعيونها وتنتظر أن يصطادها الصيادون. وسرعان ما حصل كل رجلٍ على حصيلةٍ جيدةٍ من الطيور، وعادوا بها إلى الكهف. وبسبب مكانته الدينية، انتحى تي تاهي عن الآخرين وذهب لينام بعد رحلة يومه الشاقّة.

وحين بددت أشعة الفجر الأولى ظلمات الكهف استيقظ تي تاهي واستمع مدةً لهدير الأمواج على الصخور في الأسفل. لم يكن هناك صوتٌ آخر. عبرت وجهَه ابتسامةٌ ساخرةٌ. كان الإعياء باديًا على الصيادين. استدار ثم اتكأ على مرفقه لينظر إليهم. وقريبًا منه رأى حصته من طيور سيّاف البحر، ولكن لم يكن في الكهف أيُّ شيءٍ سواها: لا أكوامٌ أخرى من الطيور ولا رجالٌ.

هبَّ واقفًا على قدميه واندفع خارج الكهف. خطر له خاطرٌ مرعبٌ. راح يركض من جرفٍ إلى جرفٍ، متفاديًا الأماكنَ الخطرةَ، حتى أشرف على الشاطئ الذي رسوا عنده عصر البارحة. لم يكن هناك أثرٌ للرجال أو الزوارق. رفع ناظريه ورأى الزوارقَ من بعيدٍ تنساب على المياه الهادئة والسهامَ الآخذةَ بالاتساع وراءها. تهادت إلى سمعه تلك الأنشودة الخافتة التي كان المجدِّفون يجدفون على أنغامها.

أحدثت هبَّةٌ من الريح سحابةَ دخانٍ محملةً بالكبريت، فحالت بينه وبين الزوارق المتلاشية، وجعلته يسعل سُعالًا عنيفًا. كان يشعر بالأرض ترتج تحت قدميه. لم يكن في الجزيرة ماءٌ، والحوجلاتُ أُخِذت، وكان يشعر بالعطش. بيدَ أن تي تاهو لم يكن تنقصه الحيلة حتى وإن عَلِقَ في جزيرةٍ بركانيةٍ. كشَّر تحت وطأة الحر، ثم أخذ ثلاث أوراق من نبات الكتان من حِزامِه. وهذه له في فنونِ السحرِ عونٌ قويٌّ، إذ كان قد اقتطفها من غابةِ كتانٍ مقدسةٍ قريبةٍ من موطنه. وقف على حرف الجرف، وهو يلوِّح بالأوراق ويُنشِد ترتيلةً قديمةً وقويةً جدًّا. سمع تانغارو، إلهُ البحر، دعاءه، فأنجده بتوتارا هاويكا، زعيم الحيتان وسيدِّهم.

رأى تي تاهي هيئةً سوداءَ ضخمةً تنبثق من البحر بالقرب من الشاطئ. فأسرع إلى الشاطئ، ودسَّ أوراق الكتان في حزامه، وسبحَ إلى الحوت. وحين وصل إليه، غطس المخلوق الهائل، وحين عاود نهوضه برفقٍ من الماء، كان تي تاهي يتربَّع بأمانٍ في التجويف الذي

على ظهره. استدار الحوتُ واتجه جنوبًا إلى البر الرئيس عند فم مرفأ وَكَتاني، يتبعه في أثره عبدُه من الحيتان.

انعطفوا بحيث لا يراهم صيادو سَيَّافِ البحرِ في قواربهم. ترك الكاهنُ الحوتَيْنِ عند مصبِّ النهر، ثم راح يسبح عكس التيار، وسار إلى بيته على الطرف الآخر. استراح مدةً إلى أن أيقن أنه حان موعدُ عودةِ الزوارقِ. فبعد رُسُوِّهم، لا بد أن يمروا من أمام صخرته توكا آهومِيا. جلس أمامها وهو يمسك بأوراق الكتان المقدسة بيديه، وراقب وجهاءَ القبيلة ورِعاعَها ينسربون في رتلٍ من أمامه. لقد رأوه حين جروا زوارقَهم على الشاطئ، لكن لم يكن هناك مَهرَبٌ.

لم يجرؤوا على النظر إلى الكاهن العجوز مباشرةً، بل تجاوزوه ورؤوسُهم تتحاشاه، أما تي تاهي فقد نظر إليهم بعجَبٍ متجهِّم. لم يُغِظْهم طويلًا بوجوده، بل ذهب ليعيش في مَتاتا. وحين مات أصبح مارا كيهاوْ، أو أحد آلهة البحر، وهكذا استطاع أن يشكر توتارا هاويكا بلغته هو من أجل إنقاذه من مخاطر الجزيرة البركانية.

جاك البِلُوروسي

على الرغم من حداثة تاريخ البِيْضِ في نيوزيلاندا، إلا أن هناك بضعَ حوادث بدأت تأخذ طابعًا أسطوريًا. ومن بين هذه الأحداث الأخيرة قصة طرائف أوپو، دولفين أوپو نوني الأليف؛ أما الحكاية الأشهر فهي حكاية جاك البِلُوروسي، دولفين رأس پِلُوروس البحري. هناك يتحدث التاريخ، لا الأسطورة، عن جاك البِلُوروسي

وكيف كان يقابل البواخر ويرافقها عبر خليج أدميرالتي حتى المضيق الفرنسي، وكيف سنَّ البرلمان قانونًا لحمايته.[32]

يمكن للأسطورة أن توغل أكثر في القِدَم وتروي عن أفعالٍ أروعَ من أي تاريخ. فالأسطورة هي التي تخبرنا عن رجلين أحبا فتاةً واحدةً، فاختارت أحدهما زوجًا لها. أمسك رورو، العاشق المنبوذ، بالفتاة، وكان رجلًا قويًا، وألقى بها من فوق جرفٍ. رأى زوجها هذا الفعل الشنيع، فهاجم رورو، لكن هذا تغلب عليه وألقى به على الصخور الشنيعة في الأسفل، حيث انضمت روحُه إلى روح زوجته، فارتحلا إلى رايْنغا (مُرتَحَل الأرواح).

نزل رورو، وهو يزهو افتخارًا، إلى الشاطئ ليتفقد جثتي العاشقَيْن المشوَّهتين. لفت انتباهَه جسمٌ رماديٌّ ينهض من الأمواج، فأجفل لحظةً، ثم تبين له أنه دولفين، فلعنه. وكانت الكلمات التي استخدمها هي كلمات سحرٍ قديم كان قد سمع بها ذات يومٍ، وكانت من القوة أنها قتلت الدولفين، فطَفت جثته على الشاطئ.

وقد شاهد هذه الأحداثَ كاهنٌ، من غير عِلْم رورو، فنزل إلى الشاطئ واتهمه بقتل الشابَّيْن وباستخدام سحرٍ لا يجوز إلا لطلاب واري وَناغا (بيت العِلْم).

قال له الكاهن، «لقد انتهكت قدسية الآلهة، وأهلكت نُظراءك من الكائنات، وهم من أجمل ما خلق الآلهة. لن تُفْلِتَ من العقاب».

في هذه الأثناء كانت غطرسة رورو قد تلاشت، فتذلَّل أمام غضب الكاهن، ولكن هذا لم يكن يعرف الصَّفْح.



دولفين رأس بِلُوروس البحري.

«هنا ترقد جثة الدولفين. إني آمُر روحَك أن تخرج منك وتدخل فيها. عليك ألا تُغادر هذا الساحل أبدًا، بل أن تكرس نفسك لفعل الخير، وترافق الزوارق وهي تدخل اللسان البحري وتغادره. كن لها مرشدًا وحاميًا إلى أن أُعْتِقَكَ».

سقط جسد رورو على الأرض، وفي اللحظة ذاتها تحرك الدولفين، وراح جسده يتثنى إلى أن انزلق بين الأمواج. يُقال إن رورو ظل يعود إلى الكاهن مرةً كل عامٍ ويتوسل إليه كي يُعْتِقه من عمله المضني الطويل، فكان يُؤمَر بأن يعود ويواظب على عمله. وأخيرًا شاخ الكاهن ومات، ولم يكن هناك مَن يرفع اللعنة عن رورو. وظل الدولفين على مدى سنين طويلةٍ وقرونٍ أطول يرافق الزوارق عبر رأس بِلُوروس البحري.

ثم جاء الرجل الأبيض بسفنه الحديدية الفظيعة، فكان رورو يرشدها عبر الممرات المائية حتى المضيق الفرنسي، تمامًا كما فعل مع القوارب في الزمن الغابر.

لم يُر جاك البِلُوروسي منذ سنينَ عديدةٍ. فلما تعاظمت مانا الرجل الأبيض، ضَعُفَ آلهة الماوري. أو لعل اللعنة تضاءلت مع مرِّ الزمن حتى لم يعد لها تأثير، أو لعلها تلاشت بسبب نزعة البيض المادية. من يدري؟ كل ما نرجوه هو أن يكون رورو قد كفَّر عن جرائمه السالفة ووجد الطمأنينة في مياه الرأس البحري الهادئة.

الحواشي

1 «ڤايكنغ الشروق» تعبير مجازي أطلقه الباحث النيوزيلانداي پيتر بَك سنة 1938 على الماوري في كتابٍ بذات العنوان. والمقصود بتعبير «الڤايكنغ» هو الإشارة إلى كون الماوري بحارةً جسورين لا يهابون الموت. أما «الشروق» فهو يرمز إلى الحياة والأمل وأراضٍ جديدةٍ لم تُكتشف بعد. المترجم.

2 المُوا طائرٌ من فصيلة النعاميات موطنه نيوزيلاندا. وهو من الطيور التي لا تطير. يبلغ ارتفاعه حوالي 360 سنتيمترًا، ووزنه حوالي 250 كغ. انقرض بنهاية القرن السادس عشر الميلادي. المترجم.

3 پوهوتو كاوا شجرٌ من فصيلة الآسيات يُسمى باللاتينية Metrosideros excelsa، وبالعربية ميتروسيدروس المتعالي. المترجم.

4 الپاكيها: البِيْض، أي المستعمرون الأوربيون. المترجم.

5 الكاوري شجرة من أضخم الأشجار في نيوزيلاندا وأستراليا، يبلغ قطر جذعها في بعض الأحيان 9 أمتار. تدعى باللاتينية Agathis Australis. المترجم.

6 بلح البحر هو نوع من الرخويات. المترجم.

7 آوْتِيارُوا هو الاسم الأصلي لنيوزيلندا عند الماوري، ويُعتقد أنه يعني «أرض السحابة الطويلة البيضاء» لكن لا يوجد إجماعٌ بين الباحثين على معنى الكلمة. المترجم.

8 لعله نجم سُهيل. المترجم.

9 اليوكيكو هو دجاج المستنقعات الأرجواني. المترجم.

10 التيكوتيكو هو شكل يُنقش على جملون المنزل. المترجم.

11 اليوناتوري هم جِنِّيَّات البحر. المترجم.

12 رايْنْغا هي أرض الأرواح عند الماوري. المترجم.

13 التُواهو مكان مقدس في القرية. المترجم.

14 رقصةٌ يمسك فيها الراقصون أثقالًا مشدودةً بخيوط، تكون في العادة مصنوعةً من معدن أو خشب، ثم يتمايلون بها بحركات وأشكال عديدة. المترجم.

15 منزل الغرباء هو بمثابة المضافة، فيما يبدو. المترجم.

16 هينا تي إِيوايُوا هي زوجة تيني راو، ولها اسمٌ آخر هو هينا أوري، وقد ورد ذكرها من قبل في قصة «روپيه، الأخ الحنون». المترجم.

17 الپيپي نوعٌ من الكائنات البحرية يشبه المحار واسمه باللاتينية Paphies Australis. المترجم.

18 الأخوان غْرِم هما ياكوب (1785–1863) وڤيلهالم (1786–1859) غْرِم، عالمان لغويان وأكاديميان وباحثان ثقافيان ألمانيان

اشتهرا بجمع الحكايات الشعبية الألمانية ونشراها سنة 1821 تحت عنوان «حكاياتٌ للأُسَر والأطفال». المترجم.

19 هذه قصةٌ عن ويرو المستكشف، وليس عن ويرو العفريت وإله الشر. حاشية المؤلف.

20 التوريهو هم الجن. انظر قصة «مَتاوْرا وَنِيواريكا في العالم السفلي» أعلاه. المترجم.

21 السَّبَج زجاج بركاني. المترجم.

22 أي، «يا أيها الساكن بعيدًا وراء البحار». المترجم.

23 التيكوتيكو هو شكل يُنقش على جملون المنزل. المترجم.

24 يشتهر تاوْ ماها أوتي عند الپاكيها باسم جُرف شكسپير. حاشية المؤلف.

25 نغايو شجرة سامة الأوراق والثمار تدعى باللاتينية Myoporum laetum، كما تعرف عاميًّا باسم شجرة جُحْر الفأر. المترجم.

26 جَلَم الماء طائر بحري أصغر من النورس، يطير قريبًا جدًّا من سطح الماء حتى لَيبدو كأنه يقصُّه قصًّا. ومن هنا جاءت تسميته. المترجم.

27 كاي تانغاتا، في أساطير الماوري، هو أحد أبناء ماوي الفانين، وقد تزوج مخلوقة من غير البشر، وكانت من أكلة لحوم البشر. وبسبب اسمه، الذي يعني حرفيًا آكل البشر، ظنت أنه بالفعل مثلها. ولكنها هجرته حين تبين لها غيرُ ذلك. المترجم.

28 شجرة الكايكو ماكو، وتعني بلغة الماوري «قدم البطة»، من الأشجار الحراجية في نيوزيلاندا، وتُعرف باللاتينية باسم Pennantia corymbosa. كان الماوري يستخدمون أعوادها لإشعال النار، وذلك بحك عودٍ مدببٍ في أخدودٍ في قطعةٍ من شجرة الماهو. المترجم.

29 المقصود بسمكة ماوي هنا هو الجزيرة الشمالية في نيوزيلاندا المعاصرة، والتي تقول الأسطورة إن ماوي استخرجها من قعر المحيط يوم ذهب للصيد مع إخوته. المترجم.

30 إن صحَّت هذه الأسطورة، فمن المحتمل أن أوراكي نفسه سُمِّي باسم قمة جبلٍ في تاهيتي. حاشية المؤلف.

31 تُحكى هذه الحكاية أيضًا عن تاماتِيا پوكاي ونْوا، الرحّالة العظيم. حاشية المؤلف.

32 جاك البِلُوروسي دولفين حقيقي أبيضُ اللون، يبلغ طوله 4 أمتار. جاءت تسميته من لسان پِلُوروس البحري، وقد كان يرافق السفن التي تعبر مضيق كوك ما بين سنوات 1888 إلى 1912، وقد صدر قانونٌ في البرلمان النيوزيلانداي سنة 1904 لحمايته. اختفى سنة 1912، ويُعتقد أنه مات موتًا طبيعيًا. المترجم.

أساطير الماوْري.. وحكاياتهم الخرافية

يضم هذا الكتاب أشهر الحكايات والأساطير لدى الماوري، سكان نيوزيلاندا الأصليين، وتعكس حكايات هذا الكتاب المعتقدات الدينية لدى الماوري ورؤيتهم الأسطورية لنشأة الكون وظواهره الطبيعية، كما تعكس الجانب المظلم للحياة والعادات البدائية، ولكنها تستثني حكايات مغامرات الماوري التي حدثت قبل حوالي ألف سنة حينَ جاء الماوري إلى آوتيارُوا (وهو اسم نيوزيلاندا القديم قبل أن يستعمرها الإنجليز في القرن التاسع عشر).







